ديوان

بدر شاكر السيّاب

المجلد الثاني





- **عنوان الكتاب: ديوان بدر شاكر السياب المجلد الثاني**
- **المؤلف : بدر شاكر السياب**
- **الطبعة : 2016**

- يطلب من دار **العودة** - بيروت - لبنان
- كورنيش المزرعة بناية الريفييرا سنتر
- هاتف:006911818405
- فاكس:009611818406
- e-mail:Daralawda@hotmail.com

ISBN: 978-9953-593-72-2

ديوان

بدر شاكر السيّاب

المجلّد الثاني

دار العودة - بيروت

أنشودة المطر

(١٩٦٠)

غريب على الخليج

الريح تلهث بالهجيره، كالجثام، على الأصيلِ
وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل
زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ
من كلّ حافٍ نصف عاري.
وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريبُ، يسرِّح البَصَر المحيَّر في الخليج
ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعِّد من نشيجِ
"أعلى من العبَّاب يهدر رغوُهُ ومن الضجيجِ
صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى: عراق،
كالمدِّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي: عراق،
والموج يُعوِل بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق.
بالأمس حين مررتُ بالمقهى، سمعتك يا عراقُ...
وكنت دورة أسطوانهْ
هي دورة الأفلاك من عُمُري، تكوِّر لي زمانه

في لحظتين من الزمان، وإن تكن فقدت مكانه.

هي وجه أُمي في الظلامِ

وصوتُها، يتزلّقان مع الرؤى حتى أنام؛

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب

فاكتظَّ بالأشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروب؛

وهي المفلّيةُ العجوز وما توشوش عن "حزامْ"[1]

وكيف شُقَّ القبر عنه أمام "عفراءَ" الجميلةْ

فاحتازها.. إلا جديلةْ.

زهراءُ، أنت.. أتذكرين

تنّورَنا الوهّاجَ تزحمه أكفُّ المصطلين؟

وحديثَ عمّيَ الحفيضَ عن الملوك الغابرين؟

ووراء بابٍ كالقضاء

قد أوصدته على النساء

أيدٍ تُطاع بما تشاء، لأنها أيدي رجال —

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال.

أفتذكرينَ؟ أتذكرين؟

سعداءَ كنا قانعينَ

بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء.

---

[1] هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق عروة بن حزام عند العامة الذين يروون قصة حبه لعفـراء وموتـه ويرددون معاني قصيدته، بشعر عامي.

حَشْدٌ من الحَيَوات والأزمان، كنا عُنْفوانهْ،
كنا مَداريْه اللذين وجدتُ بينهما كيانهْ.
أفليس ذاك سوى هباء؟
حُلُمٌ ودورة أسطوانهْ؟
إنْ كان هذا كلُّ ما يبقى فأين هو العزاء؟
أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنتِ فيه؛
يا أنتما، مصباح روحي أنتما — وأتى المساء
والليل أطبق فلتشعّا في دجاه فلا أتيه.
لو جئتِ في البلد الغريب إليَّ ما كمل اللقاء!
الملتقى بكِ والعراقُ على يديَّ... هو اللقاء!
شوق يخضُّ دمي إليه، كأنَّ كلَّ دمي اشتهاء،
جوعٌ إليه... كجوع كلِّ دم الغريق إلى الهواء.
شوقِ الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادهْ!
إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!
أيخون إنسانٌ بلادهْ؟
إن خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟
الشمس أجملُ في بلادي من سواها، والظلامْ
— حتى الظلام — هناك أجملُ، فهو يحتضن العراق.
واحسرتاه، متى أنامْ
فأحسَّ أن على الوسادهْ
من ليلك الصيفي طَلاًّ فيه عطرُك يا عراق؟

بين القرى المتهيّباتِ خطاي والمدنِ الغريبه
غنّيتُ تُربتكَ الحبيبه،
وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبهْ،
فسمعتُ وقع خطى الجياع تسيرُ، تدمى من عثار
فتذرُّ في عينيَّ، منكَ ومن مناسمها، غُبار.
ما زلتُ أضرب، مُترِبَ القدمين أشعثَ، في الدروب
تحت الشموس الأجنبيَّهْ،
متخافقَ الأطمار، أبسُطُ بالسؤال يداً نديّهْ
صفراءَ من ذُلٍّ وحُمّى: ذلِّ شحّاذٍ غريبِ
بين العيون الأجنبيهْ،
بين احتقارٍ. وانتهارٍ، وازورارٍ... أو "خطيّة"[1]،
والموت أهون من "خطية"،
من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيهْ
قطراتِ ماءٍ ... معدنيّهْ!
فلتنطفي، يا أنتِ، يا قطراتُ، يا دمُ، يا ... نقودُ،
يا ريحُ، يا إبراً تخيط ليَ الشراعَ – متى أعودُ
إلى العراق؟ متى أعودُ؟
يا لمعةَ الأمواجِ رنّحهنَّ مجذافٌ يرودُ
بيَ الخليجَ، ويا كواكبَه الكبيرةَ... يا نقودُ!

* * *

[1] كلمة إشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة.

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ
أو ليت أنّ الأرضَ كالأفق العريضِ، بلا بحار!

ما زلتُ أحسب يا نقودُ، أعدُّكنَّ وأستزيد،
ما زلتُ أُنقِصُ، يا نقود، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي،
ما زلتُ أُوقد بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي
في الضفّة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ
متى أعود؟ متى أعودُ؟
أتُراه يأزف، قبل موتي، ذلك اليوم السعيدُ؟
سأفيقُ في ذاك الصباح، وفي السماء من السحابِ
كِسَرٌ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشبَع بعطور آبِ؛
وأُزيح بالثُّؤَباء بُقيا من نعاسي كالحجابِ
من الحرير، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبينْ:
عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى، وشكٌّ في يقين.
ويضيءُ لي — وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي —
ما كنتُ أبحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب
لِمَ يملأُ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب؟
اليوم — واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأني — أعودُ!

* * *

واحسرتاه ... فلن أعودَ إلى العراق!

وهل يعـــودُ

من كان تُعْوِزُهُ النقود؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ
وأنت تأكل إذ تجوع؟ وأنت تُنفقُ ما يجودُ

به الكرام، على الطعام؟

لتبكِنَّ على العراقِ

فما لديك سوى الدموع

وسوى انتظارك، دون جدوى للرياح وللقلوع!

الكويت ١٩٥٣

- "بابا ... بابا..."

ينساب صوتُكَ في الظلام، إليَّ، كالمطر الغضيرِ،

ينساب من خَلَل النُعاس وأنت ترقد في السريرِ

من أيِّ رؤيا جاء؟ أيِّ سماوةٍ؟ أيِّ انطلاقِ؟

... وأظلُّ أسبح في رشاشٍ منه، أسبح في عبير.

فكأنَّ أوديةَ العراقِ

فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي: كلُّ وادِ

وهبته عشتارُ الأزاهرَ والثمار. كأنَّ روحي

في تربةِ الظلماءِ حبةُ حنطةٍ وصداكَ ماءُ.

أعلنتِ بعثي يا سماءُ.

هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ.

* * *

"بابا..." كأنَّ يد المسيح

فيها، كأنَّ جماجم الموتى تُبرعِمُ في الضريحِ.

تموز عاد بكل سنبلةٍ تُعابث كلَّ ريحِ.

* * *

"بابا... بابا..."

أنا في قرار بُوَيّبَ[1] أرقد، في فراشٍ من رمالِهْ،

---

[1] بويب نهر في قرية الشاعر.

من طينه المعطور، والدم من عروقي في زلالهْ
ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ.
أنا بَعْلُ: أخطر في الجليلِ...
على المياه، أنثُ في الورقات روحي والثمارِ
والماء يهمس بالخرير، يصلّ حولي بالمحار
وأنا بويبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري.

* * *

"بابا... بابا..."
يا سُلّم الأنغام، أيّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ؟
"سيزيف" يرفعها فتسقط للحضيض مع الهيارِك.
يا سُلّمَ الدم والزمان: من المياه إلى السماءِ
غيلانُ يصعد فيه نحوي، من تراب أبي وجدي
ويداه تلتمسان، ثمّ، يدي وتحتضنان خدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي.
"بابا... بابا..."
جيكور[1] من شفتيكَ تولَد، من دمائِكَ، في دمائي
فتُحيل أعمدةَ المدينهْ
أشجار توتٍ في الربيع. ومن شوارعها الحزينهْ
تتفجَّرُ الأنهار، أسمع من شوارعها الحزينه
ورَقَ البراعم وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباحِ
والنُّسغَ في الشجرات يهمس، والسنابلَ في الرياح

---

[1] جيكور قرية الشاعر في جنوب العراق.

تَعِدُ الرَّحى بطعامهنّ.

كأنّ أوردةَ السماءِ

تتنفّسُ الدمَ في عروقي والكواكبَ في دمائي.

يا ظلّيَ الممتدَّ حين أموت، يا ميلاد عمري من جديدِ:

الأرضُ (يا قفصاً من الدم والأظافر والحديد

حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا.. كظلّ،

كيدٍ بلا عَصَبٍ، كهيكل ميِّتٍ، كضُحى الجليد،

النورُ والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ)

عشتارُ فيها دون بَعْلِ

والموت يركض في شوارعها ويهتف: يا نيامُ

هبّوا، فقد وُلِدَ الظلامُ[1]

وأنا المسيح، أنا السلامُ.

والنار تصرخ: يا ورود تفتّحي، وُلِدَ الربيعُ

وأنا الفُرات؛ ويا شموعُ

رشّي ضريحَ البَعْل بالدم والهُباب وبالشحوبِ.

والشمس تُعْوِلُ في الدروبِ:

بردانةٌ أنا ، والسماء تنوء بالسُحُبِ الجليد.

* * *

"بابا... بابا..."

من أيِّ شمس جاء دفؤُك أيِّ نجمٍ في السماء؟

ينسلُّ للقَفَص الحديدِ، فيورقُ الغدُ في دمائي؟

---

[1] كان كهنة ايزيس ينطلقون، في منتصف ليلة ١٢/٢٥ من كل عام، هاتفين في شوارع الاسكندرية: لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس.

أغنية في شهر آب

تموز يموتُ على الأفقِ

وتغور دماهُ مع الشفق

في الكهف المعتمِ والظلماءْ

نقّالة إسعافٍ سوداء

وكأن الليل قطيعُ نساء:

كحلٌ وعباءاتٌ سودُ

الليل خباء

الليل نهار مسدودُ.

نادت مربية الأطفال الزنجيةْ:

الليل أتى يا مرجانهْ

فأضيئي النور. وماذا؟! إني جوعانهْ

و.. نسيت – أما من أغنيّهْ؟

بِمَ يهذر هذا المذياعُ؟!

في لندنَ موسيقى جازٍ، يا مرجانهْ

فإليها... إني فرحانه

والجاز من الدم إيقاعُ

* * *

تموز يموت ومرجانهْ

كالغابـــــة تـــربض بردانـــــةْ...

* * *

وتقـــــول، ويخـــــذلها الـــــنفَسُ:

"الليـــــلُ"، الخنـــــزير الشـــرسُ

الليل شقـــاء!"

مرجانـــــةُ.. هـــل قـــرع الجـــرسُ

فتقـــــول، ويخـــــذلها الـــــنفَسُ

"في البــــــاب نســــــاء".

وتعـــــدُّ القهـــــوة مرجانـــــةْ

* * *

وعلـــى الأكتـــاف البـــيض فـــراء:

الـــــذئب يـــــدثّر إنســـــانهْ

وعلـــى الأثـــداء مـــن النَمِـــرِ

شرق يتسلل، مـــلء الغـــاب، مـــن الشـــجر

والليـــل يطـــول مـــع الســـمر

الليـــل كتّنـــورٍ – مـــن أشـــباح البشـــر

خبـــز يتنشـــق نيرانـــــةْ

والضـــيفة تأكـــل جوعانـــــةْ

مـــن هـــذا الـــزاد. ومرجانـــــةْ

كالغابـــــة تـــربض بردانـــــةْ

والضيفة تضحك وهي تقول: "خطيب سعاد

جافاهـــــا، وانطـــوت الخطبـــــةْ!

الكلــــب تنكّــــر للكلبــــةْ..."

تمــوز يمــوت بــدون معــاد

والــبرد ينــثُّ مــن القمــر

فنلــوذ بمــدفأة مــن أعــراض البشــر!

* * *

ســيعود إذا انتصــف الليــلُ،

زوجــي ســيعود إلى الــدارِ

مــن بيــت صــديق أو بــارِ

لا شوقَ يعلّق بالرقّاص ولا بالعقرب أبصــاري

لا آهــةَ – مــن رهَــبٍ– تعلــو:

مــن رنــة مفتــاح في البــابْ

وضــياء مــن شِــقٍّ ينســاب

كالماء المالح أشــربه حــتى تتفطّــر أغــواري!

ولقــد يتــأخر أو يــأتي

قبــل الميعــاد إلى البيــتِ

لكن سيعــود

لا لوم عليه، فقد أعطى ما أطلب منه، ولا عتبُ!

خدمٌ، ورياشٌ ملء البيت، وأبهةٌ. دنيا، ونقــود

".. مــاسٌ، وبقيّتُهــا ذهــبُ:

وهدية والدها؟! الله هدية والــدها.. عجــب:

صــياد بــين يديــه شِــباك

تــــتلامح مــــلأى بالأسمــــاك

ذهـــب وزعـــانفُ مـــن فضـــةْ

ولآلـــئ تـــوهم أن هياكلـــها تثـــبُ

وبـــأن لصـــائدها خضّـــةْ!"

تمـــوز يمـــوت ومرجانـــه

تتعـــوَّذ، مـــن عُقَـــد الســـحرِ

والليـــل الراكـــد، بالخُضْـــر

والليـــل يطفّـــئُ شـــطآنهْ

والضـــيفة تقبـــع بردانـــه

وفـــراء الـــذئب تغطيهـــا

وتطفّأت النيران اللاتي كانت بالـدم تـذكيها.

* * *

ليلٌ وجليد

يتســاقط عبرهمـا صــوتٌ، رنــاتُ حديــد

وعـــواء ذئـــابٍ يخفيهـــا...

الصوت بعيد،

والضـــيفة مثلـــي بردانـــه.

* * *

فتعـــال وشـــاركني بـــردي

بالله تعـــال...

يـــا زوجـــي، هـــا إني وحـــدي

- والضـــيفة مثلـــي بردانـــه -

فتعـــال، تعـــال

فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناء

بالله تعـــال

فالنـــــــاس كـــــثير... والظلمـــــــاء

نقّالةُ موتى سائقها أعمـــى، وفـــؤادك جبّانـــهْ!

في قلبه تنُّور
ألنار فيه تطعم الجياع
والماء من جحيمه يفور:
طوفانه يطهّر الأرض من الشرور
ومقلتاه تنسجان من لظىً شراع
تجمّعان من مغازل المطر
خيوطه، ومن عيونٍ تقدح الشررْ
ومن ثُديٍّ الأمهاتِ ساعة الرضاعْ
ومن مُدى تسيل منها لذة الثمَرْ
ومن مُدى للقابلات تقطع السررْ
ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع
شراعُه النديُّ كالقمرْ
شراعه القوي كالحجرْ
شراعه السريع مثل لمحة البصرْ
شراعه الأخضر كالربيع
الأحمر الخضيب من نجيع
كأنه زورق طفل مزّق الكتاب
يملأ مما فيه، بالزوارق النهَر،
كأنه شراع كولمبسَ في العبابْ
كأنه القدر.

تعتيـــم

حين يذرّ النُّورْ

- يلقي به التنور -

عن وجهكِ الظلماء

ويهمس الديجورْ

آهاتهِ السمراء

على محيَّاكِ

تهجس عيناكِ

بكلّ حزن الدهور

وكل أعيادها:

أفراح ميلادها

وغمغمات النذور

وزهرها والخمور!

* * *

ألنورُ والظلماء

أسطورةٌ منحوتة في الصخورْ:

كم ذادَ بالنَّارِ،

من أسدٍ ضاري

وكم أخاف النمور،

إنسان تلك العصور

بالنُّور والنّارِ!

فأطفئي مصباحنا أطفئيه

ولنطفئ التنورْ

وندفن الخبز فيه،

كي لا تعيد الصخورْ

أُسطورةً للنار، ظلّت تدور

حتى غدا أول ما فيها

آخرَ ما فينا — وليلُ القبور

أوّلُ ما فيها —

كي لا ترانا نمور

تجوس في الظلماء

لترجم الأحياء

- من غابة في السماء -

بالصخر والنار

وتستبيح القبور!

أنا ما تشاء: أنا الحقيرْ
صبَّاغُ أحذية الغزاة، وبائع الدم والضمير
للظالمين. أنا الغراب
يقتات من جثث الفراخ. أنا الدمار، أنا الخراب!
شفة البغيِّ أعفّ من قلبي، وأجنحة الذباب
أنقى وأدفأ من يديَّ. كما تشاء... أنا الحقير!
لكنَّ لي من مقلتيَّ – إذا تتبَّعتا خطاك
وتقرّتا قسمات وجهك وارتعاشك – إبرتينِ
ستنسجان لك الشراكْ
وحواشيَ الكفن الملطَّخ بالدماء، وجمرتين
تروّعان رؤاك إن لم تحرقاكْ!
وتحول دونهما ودونك بين كفيَّ الجريدهْ
فتندّ آهتك المديدهْ
وتقول: "أصبح لا يراني"... بيد أن دمي يراك
إني أحسّك في الهواء وفي عيون القارئين.
لِمَ يقرأون: لأنَّ تونسَ تستفيق على النضال؟
ولأن ثوّار الجزائر ينسجون من الرمالْ

ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين

كفنَ الطغاة؟ وما تزال قذائف المتطوعين

يصفرن في غسق القنال؟

لِمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين

كالشامتين؟

سيعلمون من الذي هو في ضلالْ

ولأَبنا صدأُ القيود... لأَبنا صدأ القيود...

لأبنا... —

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفرُّ، سأقتفيه إلى السعير.

أنا ما تشاء: أنا اللئيم، أنا الغبيّ، أنا الحقود

لكنّما أنا ما أريد: أنا القويّ، أنا القدير.

أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيِّد من أشاءُ

بمثلهنّ من الحديد، وأستبيح من الخدود

ومن الجباه أعزَّهنَّ. أنا المصير، أنا القضاء.

الحقد كالتنور فيَّ: إذا تلهَّب بالوقود

— الحبر والقرطاس — أطفأ في وجوه الأمَّهاتْ

تنورهنّ، وأوقف الدم عن ثُديٍّ المرضعات.

في البدء كان يطيف بي شبَحٌ يقال له: الضمير

أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير.

شبَحٌ تنفَّس ثمّ مات

واللص عاد هو الخفيرْ.

في البدء لم أكُ في الصراع سوى أجير

كالبائعات حليبهنّ، كما تؤجَّر – للبكاء

ولندبِ موتى غير موتاهنّ – في الهند النساء.

قد أمعن الباكي على مضضٍ، فعاد هو البكاء!

* * *

ألخوف والدمُ والصَّغار. فأيُّ شيء أرتجيه؟

فعلى يديَّ دمٌ وفي أذنيَّ وهْوهة الدماء

وبعقليَّ دمٌ، وللدّم في فمي طعمٌ كريه!

أثقلْ ضميرك بالأثام فلا يحاسبْك الضمير

وانسَ الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا.

لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير

لفرط رعبك أو لفرط أساك... واحتضن الخطايا

بأشدّ ما وسع احتضانٌ تنجُ من وخز الخطايا.

* * *

قوتي وقوتُ بنيَّ لحمٌ آدميٌّ أو عظام

فليحقدنّ عليّ كالحمم الأنام

كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك، ولا أكون

وريثَ قابيل اللعين سيسألون

عن القتيل فلا أقول:

"أأنا الموكّل، ويلكم بأخي؟" فإن المخبرين

بالآخرين موكّلون!

سحقاً لهذا الكون أجمعَ وليحلّ به الدمارْ!
ما لي وما للناس؟ لست أباً لكل الجائعين
وأريد أن أروى وأشبع من طوًى كالآخرين
فلينــزلوا بي ما استطاعوا من سباب، واحتقار
لي حفنة القمح التي بيدي ودانية السنين
- خمسٌ وأكثر... أو أقلّ - هي الربيع من الحياة
فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة
روحَ النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين
فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من يجوع.
إني سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع،
لا شيء غير الرعب والقلق الممض على المصير
ساء المصير!
ربّاه إن الموت أهون من تَرقُّبِه المرير
ساء المصير:
لِمَ كنت أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقير؟!

عـرس فـي القـرية

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النُضارْ
عن جناح الفراشة، مات النهار —
ألنهار الطويلْ.
فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلاّ القليل.
كانَ نقْرُ الدَّرابك منذ الأصيل
يتساقط، مثلَ الثمار،
من رياح تحوّم بين النخيل —
يتساقط مثل الدموع
أو كمثلِ الشرار:
إنها ليلة العُرس بعد انتظار!
مات حبٌّ قديمٌ، ومات النهار
مثلما تُطفئُ الريح ضوءَ الشموع.
ألشموع... الشموع،
مثل حقل من القمح عند المساء،
من ثغور العذارى تعبُّ الهواء،
حين يرقصنَ حول العروس
منشداتٍ: "نوارُ، اهنئي يا نوار!

حلوةٌ أنتِ مثل الندى، يا عروس".

يا رفاقي، سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار.

زهّدتها بنا حفنةٌ من نُضار:

خاتمٌ أو سوار، وقصرٌ مشيدْ

من عظام العبيد...

وهي، يا ربِّ، من هؤلاء العبيد!

ولو أنّـا وآباءنا الأولين

قد كدحنا طوال السنين

وادَّخرنا – على جوع أطفالنا الجائعين –

ما اكتسبناه في كدِّنا من نقود،

ما اشترينا لها خاتماً أو سوار!

خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرقِ

من رفات الضحايا مئات اللحود

اشتراها به الصيرفيُّ الشقي.

مثلما تنثر الريح عند الأصيل

زهرةَ الجلّنار –

أقفر الريفُ لمـّا تولّت نوار.

بالصبابات، يا حاملاتِ الجرار

رحْنَ واسألْنَها: "يا نوار

هل تصيرين للأجنبي الدخيل؟

للذي لا تكادين أن تعرفيه؟

يا ابنةَ الريف، لم تنصفيه!

كم فتىً من بنيه

كان أولى بأن تعشقيه؟

إنهم يعرفونك منذ الصغرْ

مثلما يعرفون القمر...

مثلما يعرفون حفيف النخيلْ

وضفاف النهَر

والمطر

والهوى، يا نوار..."

احصدوا يا رفاقي، فإن المغيب

طاف بين الروابي يرشُّ اللهيب

من أباريقَ مجبولةٍ من نضار؛

والزغاريد تصْدى بها كل دار:

أوقد القصر أضواءه الأربعين،

فاتبعوني إليها مع الرائحين.

اتركوني أغني أمام العريس

وأراقص ظلي كقرد سجين

وأمثّل دور المحب التعيس

ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين،

من هواي المضاع،

من قلوب الجياع

حين تهوى، ومن ذلة الكادحين.

سوف آكل حتى ينـــزَّ الدمُ

من عيوني... فما زال عندي فمٌ:

كل ما عندنا نحن، هذا الفمُ!

كان وهماً هوانا، فإنَّ القلوب

والصبابات وقفٌ على الأغنياء!

لا عتابٌ ... فلو لم نكن أغبياء

ما رضينا بهذا، ونحن الشعوب.

مرثيـة الآلهـة

بلينا وما تبلـى النجـومُ الطوالـعُ[1] ... ويبقى اليتـامى بعـدنا والمصـانعُ

ويـبقى "كربٌ"[2] الجالب الكربَ: كالصدى ... يغصّ المنادي بالردى، وهو راجـعُ

كأنَّ الأميبى[3] تـوأمٌ وهـو تـوأمٌ ... لها، فهو في منجىً من الموت قـابعُ

ولكنه الفرد الذي يزحـف الـورى ... إلى حيث ترمي مقلتيـه المطـامعُ

أعنقاءُ من صحراء نجـدٍ تقحَّمـت ... بها مغربَ الشمس البعيدَ الزعـازعُ

أم انسلٌ من أهرام فرعـونَ هـاجعٌ ... وقتْه انتقاصَ الدود منه، المباضـعُ؟

ومن ليس يحيا لن يرى وهو هالـكٌ ... فلو كان يحيا ما عدتـه الفواجـعُ

وما كان إلا اسماً "كربٌ" ابن مثلـه ... به يُدمغ اثنان: الـورى والبضـائعُ

ولكنـه اسـمٌ بالأسـاميِّ يغتـذي ... محجّـاه زفّـار اللّظـى والمـدافعُ

تمنَّيـتُ أني آلـةٌ: لا يُصـيبها ... كلالٌ ولا وقتٌ بهـا مـرّ ضـائعُ

لها من دماء الناس قـوتٌ وخلفهـا ... من المال عن أن ينفد القوتَ مـانعُ

وما تخطئ الآلات في الجمـع تـارةً ... وفي الطّرح، إن يخطئْ من الناس جامعُ

ولا عاقبتها عصـبةٌ مـن ورائهـا ... علينا عقابٌ بُرّئـوا منـه، واقـعُ

ألا كم رفعنا من إلهٍ وكـم هـوى ... إلهٌ وأضحى ثالـث وهـو رابـعُ

فما جاوزتْنا صـورةٌ منـه خطّهـا ... على غفلةٍ منـا مُجيـعٌ وجـائعُ

---

[1] لم توضع الأبيات المضمنة بين أقواس، وإنما اكتفي بالإشارة إليها.

[2] كرب Krupp صاحب معامل الأسلحة الألمانية الشهيرة.

[3] الأميبى حيوان ذو حجيرة واحدة، وهو خالد لا يموت لانعدام شخصيته.

وما كان معبوداً سوى ما نخافه ... ونرجوه أو ما خيّلته الطبائعُ
فتموزُ مثل اللاّتِ، والرعدُ ما رمى ... بغير الذي تُطوى عليه الأضالعُ
وكم ألّه التمرَ التهاميّ معشرٌ ... لما ليس يحيا دونه الناس راكعُ
فلّما شكا بعد الأثافيّ قِدْرها ... وضنّت على الشّدق الحفيّ المراضعُ
كفى كل ثغرٍ كان يدعوه جوعه ... إلهٌ أحاطته المدى والأصابعُ
دمي هذه الخمر التي تشربونها ... ولحمي هو الخبز الذي نال جائعُ
ولما تشظّى قلب نرسيسَ وانثنى ... يلمُّ الشظايا منه شارٍ وبائعُ
وغذّى بها القلب الذي حين ذاقها ... نما فيه نابا كوسجٍ فهو قاطعُ
هوى كلُّ عالٍ من إلهٍ وسافلٍ ... إلى حيث ما من راحلٍ ثمّ راجعُ
وأفضى إلى العرس السديميّ معدنٌ ... بما امتاحَ من أحداق "ميدوزَ"[1] لامعُ
هو الشمس إلاّ أنّ في زمهريره ... من الموت ظلاً حجّبته البراقعُ
جزى أمّه الأرض التي من عروقها ... ربا واغتذى في جوفها وهو هاجعُ
بشرٍّ الذي يُجزى به شرّ من غذا ... وأروى، ويُجزاه العدوُّ المنازعُ
فأدمى بنيها وارتعى من بناتها ... حقولاً ترجّى، فهي شوةٌ بلاقعُ
كقابيل يغتال الأشقاء، راكلٌ ... - كأوديب - للخبز الإلهيّ صافعُ
وهذا الإله الأملس الفظّ ما جلا ... لنرسيسَ يجثو عنده وهو خاشعُ
سوى وجه نرسيسَ الرخاميّ، شابه ... شحوبٌ يهوذيُّ التلاوين ناقعُ
وأوفى من الأرباب جيل يؤمُّه ... على قمّة الأولمب ربٌّ مخادعُ
ترى "فحمَ" إذ يلقاه يَلقاه راجفاً ... و "فولاذُ" من تلماح عينيه مائعُ[2]

---

[1] ميدوز هي إلهة في أساطير الإغريق تحيل من تلتقي عينه بعينيها إلى صخر.
[2] جرّدت من الفحم والفولاذ شخصين لإلهين من الأرباب الجدد، أتباع زيوس الجديد – الذهب – وعاملتهما كاسمي علم، ومنعتهما من الصرف.

ويا عهد كنّا كابن حلاّج: واحداً | مع الله إن ضاع الورى فهو ضائعُ
أكَلَّ الرّجالَ الجوف أن يملأوا به | خواءَ الحشا هذا الإلهُ المضارعُ
فعادَ الفقيرَ الرّوح من ليس كاسياً | به ظاهراً منَّا... فحلّ التنازعُ

من رؤيا فوكاي

(فوكاي، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما، جُن من هول ما شاهده غداة ضُربت بالقنبلة الذرية).

١- هياي... كونغاي، كونغاي[1]

ما زال ناقوسُ أبيكِ يُقلق المساءْ

بأفجع الرثاء:

"هياي... كونغاي، كونغاي".

فيفزع الصغارُ في الدروبْ

وتخفق القلوب

وتغلق الدُّور ببكّينَ وشنغهايْ

من رَجع: كونَغاي، كونَغاي.!

فلتُحرقي وطفلكِ الوليد،

ليَجمَعَ الحديدَ بالحديد

والفحمَ والنحاسَ بالنُّضار

والعالَمَ القديمَ بالجديد

[1] تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوسا ضخما يُصنع من الذهب، والحديد، والفضة، والنحاس. وكلف أحد الحكام بصنعه. ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي - وهي ابنة ذلك الحاكم - العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن... فكان الناقوس... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق: "هياي.. كونغاي، كونغاي".

آلهةُ الحديدِ والنحاس والدّمار،

أبوك رائدُ المحيطِ، نامَ في القرار:

من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار[1]...

وحظكِ الدُّموع والمحار

وعاصفٌ عاتٍ من الرصاص والحديد.

وذلك المجلجلُ المُـــرِنُّ من بعيد:

لمن، لمن يدق: "كونغَاي، كونغَاي"؟

أهمَّ بالرّحيلِ في "غرناطة" الغجرْ؟

فاخضرَّت الرياحُ، والغديرُ، والقمرْ[2]؟

أمْ سُمِّرَ المسيحُ بالصليب فانتصرْ

وأنبتتْ دماؤه الورودَ في الصخَرْ؟

أم أنها دماءُ كونَغاي؟

ورغمَ أن العالَمَ استسرَّ واندثر[3]،

ما زال طائرُ الحديد يذرعُ السماء،

---

[1] شكسبير – العاصفة: أغنية "اريل" –.روح الهواء الذي سخره "بروسبيرو" الساحر – لفرديناند: "على عمق أذرعة خمس ينام ابوك في قرارة البحر، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين... اسمع ها هــو النــاقوس ينعاه" وقد اتخذه ت.س. إليوت في قصيدته الكبرى "الأرض الخراب" رمزا عن "الحياة مــن خــلال الموت" ولكن لاحظ كيف حولت "يبيعه التجار" المعنى!

[2] هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الاسباني القتيل لوركا. شاعر الغجر.

[3] هذا البيت والأبيات الستة التي تليه – تكاد تكون حرفية – عن الشاعرة الإنكليزية ايديث ستويل مــن قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون – القردة – في قاع المحيط تهزّ مهد طفل بشري – قتل "طائر الحديد" أمه – وتغني له مصبحة بهذا – وهي القردة – أما للطفل البشــري ومعلمة له أيضا.

وليلاحظ قراء قصيدتي هذه أن هناك شخوصا ثلاثة تترابط في ذهني: الصياد الياباني – أو الصيني– الغريق الذي أخاطب ابنته، وأبو "فرديناند" – الذي زعم اريل أنه غرق –، والقردة "البــابيون" التــي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط كما جاء في قصيدة ايديث ستويل.

وفي قرارة المحيطِ يعقد القرى

أهدابَ طفلكِ اليتيم – حيثُ لا غِناءْ

إلاّ صراخَ "البابيون": "زادُكَ الثرى،

فازحفْ على الأربع ... فالحضيض والعلاء

سيّان "جنكيزُ"، و "كَنَغايْ"

هابيلُ قابيلُ، وبابلٌ كشَنغَهاي،

وليست الفضّةُ كالحديد!

هياي.. كونغاي، كونغاي!

الصين حقلُ شايْ،

وسوقُ شنْغهاي

يعجُّ بالمزارعين قبلَ كلِّ عيد.

هياي.. كونغاي. كونغاي!

٢– تسديد الحساب

تلك الرواسي كم انحطَّ النهار على / أقصى ذُراها، وكم مرَّت بها الظلَمُ

فما فرحن بآلاف الشموسِ، ولا / من ألفِ نجمٍ تردى مسَّها ألم

صمَّاءُ، بكماء، لم تأخذ، ولا وهبتْ / ولا ترصَّدها موتٌ ولا هرم

لو أودع الله إياها أمانته / لنالهنَّ على استيداعها ندمُ

. لاقتسمنَ مع الأحياء ما دفعت / من جزيةٍ لا تُوفّى حين تُقتسم:

عن كل ، مقهة من صرخةٍ ثمنٌ / وما استجدَّ دمٌ إلا وضاع دم

وما تحمَّل آلامَ المخاض ولم
يقرب من النور إلاّ الفكرُ والرحمُ

وإن يكن أسعدَ الأحياء أكملها
فإنما هو أشقاهنَّ لا جَرَمُ؟

"قابيلُ" باق وإن صارت حجارته
سَيفاً، وإن عادَ ناراً سيفُه الخذم

وردَّ "هابيلُ" ما قاضاه بارئه
عن خَلقه، ثمّ ردَّت، باسمه الأمَمُ

واليومَ، في حين وفّى الدَّينَ غارمه
إلا بقايا وكادت تخلص الذّمم

وكاد يُرجع للدنيا بشاشتها
ما قرَّبته الضحايا وهي تبتسمُ

مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه
من وحشها في المخاض الأولِ الضرمُ

خَلقٌ تراءى لـ "يحيى"[1] ساعةافترستْ
عينيه رؤيا لها من هؤلاء فمُ

لو يُقبض النورُ بالأيدي لسوَّره
دونَ الورى... ولتعمَّ العالم الظّلم

ريَّانُ عطشانُ لا يروى، بلا فرحٍ
جذلانُ، بادٍ عليه الجوع والبشمُ

كأنه – وهو ماض في غوايته –
من نفسه اقتصَّ، فهو الماءُ والحممُ

تفجر الضَّحكُ المسلوبُ من رئة
منخوبة بعد أخرى هدَّها السقم

عن ضحكة أطلقوها فهي صاعقةٌ
أصابهم والورى من رجعها صمم

واستنزفوا متعةَ الأحياء: ما دفعوا
عنها، ولا غارماً ما استنزفوا رحموا

ثم استزادوا... فإن لم يذهبوا ديةً
أو يقصروا عن طماحٍ يرجحِ العدمُ!

---

[1] القديس يوحنا – كما يسميه المسيحيون.

٣- حقائق كالخيال[1]

ماذا تريد العيونُ السود من رجـــلٍ ... قد حاش زهر الخطايا حين لاقاهـــا

زهراً على جسميَ المحمومِ أقطفـــه ... في باقةٍ من جراحٍ بـــتُّ أصـــلاها:

هذا الربيع الذي تُهـدي شـــقائقه ... ريـــحَ المنايـــا إلى قلـــبي بريَّاهـــا

أزهارُ تموزَ[2] مـــا أرعـــى: أُسـلِّمه ... في عتمةِ العـــالم السُّـــفليِّ اياهـــا؟

أم صِلُّ حـــوّاء بالتفّـــاح كافـــأني ... وهو الذي أمسِ بالتفـــاح أغواهـــا؟

ماذا تريد العيون الســـود؟ إن لهـــا ... ما لستُ أنساه منها حـين أنســـاها

ما بالهن استعَضـــنَ البـــوم أوعيـــةً ... عن أوجه الغيد... حتى ضاع معناها

أين المناقير مـــن لُعْـــسٍ مراشـــفُها ... ربِّي؟ وأين ابتسام كـــان يغشـــاها

من هذه الخربةِ الظلمـــاء محدقـــةً ... بي أعين البومِ من أجداثِ موتاهـــا؟

قفراءُ من غيرِ ثكلى شفَّ مئزرهـــا ... عن وهج فانوسها الكابي وأخفاهـــا

تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعتَـــه[3] ... طفلٌ، وطارت وقد ألوى جناحاهـــا

محنيَّـــة تتقـــرَّى كـــلَّ شـــاهدةٍ ... من كل قبرٍ، كما لو كان طفلاهـــا

في كلِّ قبرٍ يذوقان الـــردى: ديـــةً ... عمَّن يؤاوي وعـــن أحيـــاء دنياهـــا

نادتهما فـــانبرى يزقـــو لصـــيحتها ... -من حيث ردّ الصدى- بُومٌ وناداها:

"أمَّاه إنا هنا. ريحٌ بنـــا عصـــفت ... لم ندر أين انتـــهينا بعـــد لقياهـــا"

وانشقّ من خلفهـــا قـــبرٌ ليبلعهـــا ... واحتازها واشـــرأبّت منـــه كفّاهـــا

---

[1] المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها، ولكنه - خلال أوهامه ودون وعي منه - يصـــور جانبا مما حدث في هيروشيما حين ألقيت عليها القنبلة.

[2] تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء، وحبيب عشتروت - أو فينوس - إلهة الحب. وهـــو يقضـــي نصفا من السنة - الشتاء - في العالم السفلي مع برسفون، والنصف الآخر - الصيف أو الربيـــع - على الأرض مع فينوس.

[3] اليراعة؛ ذبابة مضيئة، حباحب.

يختضّ فانوسـها التّمتـامُ بينـهما والـريحُ خرسـاء تعـبى...
غيرَ "هـا. هـا.. هـا.."

* * *

وَيْلُمّ سازاك[1] كيف اندكّ حائطـه حتى تعرّى ليَ السهلُ الذي حجبـا؟
سهلٌ يكنُّ الصلالَ الرّقطَ، أجهضه عادٍ من المحل حـتى يفـزع العطبـا
وانبحَّت التربةُ العجفاء–من عطش– عن أشدُقٍ فاغراتٍ تنـبح السـحبا
والشمس كالأطلس[2] المسعور تنهشه والريحُ تصليه مـن تنورهـا لهبـا
الريح؟ لا ليست الريح التي ركضت بيضاء سوداء رقطاء القفـا عجبـا
عنقاء[3] في مِسعر الجـوزاء أعينُهـا والصخر يرفضّ من أظلافها شـهبا
تلك الزرافات[4] في السهل العقيم لها مرعى روًى من سراب، ينبت السّغبا
ما روّعتها سوى ضوضاء خشخشة في كفٍّ أبرص يعدو خلفهـا خببـا
تخفيه عنها ضـماداتٌ، ويظهـره ما نزَّ من قيحه الدامي ومـا شـخبا
نادى، وكفّاه تختضّان، "واحربَـا" فاستعبر العاصف المصدور "واحربا"!
"ماءَ اسْقِ يا ماءُ.." تلهاثٌ مقاطعه منـزوعة من لسان يشـبه الخشَـبا
حتى استجاب السحاب الجوْن فانعقدت في الجوّ حبّاتـه الغـبراء فاحتجبـا
والهلُّ: لا عن ندىً صافٍ ولا مطر بل عن دم، من ثُديٍّ مُزّقـت حُلبـا
أو عن مشاشٍ من الأحداق فقّأهـا سِيخٌ لجنكيـزَ[5] دامٍ ينفـث اللـهبا
"ماءَ، اسق يا ماءُ.." والغيثُ الرهيب كلـى مَفريَّةٌ سـحَّت الآجـال والكربَـا

---

[1] الدكتور سازلكي كان طبيبا في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هروشيما.
[2] الأطلس: الذئب.
[3] عنقاء طويلة العنق.
[4] الزرافات جمع زرافة، الحيوان المعروف.
[5] جنكيز خان السفاح المشهور.

لم يبقَ من مرتوٍ أو ظـامئ، بفـمٍ أو دونَ...، إلا ومن ماء الردى شربا

* * *

ويلٌ لسازاكَ! ماذا ينْتـوي بـدمي من نيّةٍ... فهو يستصـفي ويمتـار؟

تلك الزجاجـات أشـلاء مجـزأة مني، دمي مختـزٍ فـيهنّ مـوّار!

لم تثن سازاك عن شـحذٍ لمديتـه آهـات مرضـى، ولا ألهـاه زوار

إني لـدارٍ بـأني حـين يشـرعها رانٍ إليهـا، فملـدوغٌ، فمُنْتهـار

هل تبتغي شـفرتاها غـير آنيـةٍ فيها دمي راجفٌ، والـداء والعـار؟

ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرَضٍ -في عين سازاك- يُجبى منه إنجـار

ست وعشرون: أعدادٌ على سـررٍ أما الأصحاء والمرضـى فأصـفار!

فالرقْم "عشرونَ" لا يسقى سوى لبنٍ والرقْم "عشرٌ" نعـاه اليـومَ محـرارُ

واليوم لم يبقَ ما أعطيه من مـرضٍ إلا دعائي وقولي "نِعمـتِ الـدارُ"!

فليلْقَ سازاكُ من يسـمى "ثمانيـة" غيري، ويستوفِ أجرَ القبر حفـارُ!

قافلة الضياع

أرأيت قافلة الضَّياع؟ أما رأيت النازحين؟
ألحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين
آثامَ كل الخاطئين
ألنازفين بلا دماءْ
ألسائرين إلى وراءْ
كي يدفنوا "هابيل" وهو على الصليب ركام طين؟
"قابيل، أين أخوك، أين أخوك؟"
جمّعت السماءْ
آمادَها لتصيح. كُوِّرت النجوم إلى نداءْ:
"قابيل، أين أخوك؟"
- "يرقد في خيام اللاجئين
السلُّ يُوهن ساعديْه، وجئتُه أنا بالدواءْ
والجوع لعنة آدمَ الأولى وإرثُ الهالكين
ساواه والحيوانَ ثم رماه أسفل سافلين
ورفعته أنا بالرغيف، من الحضيض إلى العلاءْ".
أللَّيل يُجهض، والسفائن مثقَلات بالغزاه:
بالفاتحين من اليهود

يلقين في حيفا مراسِيَهنّ — كابوس تراه

تحت التراب محاجرُ الموتى فتجحظ في اللحود.

أللیل يُجهَضُ ، فالصباحُ من الحرائق.. في ضحاه

أللیل يُجهَض ، فالحياه

شيء ترجَّح لا يموت ولا يعيش بلا حدودْ

شيء تفتّحَ جانباه على المقابر والمهود

شيء يقول "هنا الحدود!

هذا لكل اللاجئين، وكل هذا.. لليهودْ!"

* * *

ألنار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب

في كل منعطف تصيح: "أنا النضار، أنا النضار"

من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دارْ:

"أنا عجلُ "سَيْناءَ" الإلهُ، أنا الضمير، أنا الشعوب

أنا النضار!"

ألنار تتبعنا، كأنّ مدى اللصوص وكل قطّاع الطريقْ

يلهثن فيها بالوباء، كأنّ ألسنةَ الكلاب

تلتزُّ منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور بابْ

تتصبّب الظلماء كالطوفان منه؛ فلا ترابْ

لِيُعادَ منه الخلق، وانجرف المسيح مع العبابْ

كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيقِ

يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب

فاجتاحه الطوفان: حتى ليس ينـــزف منه جنبٌ أو جبين
إلا دجىً كالطين تبنى منه دورُ اللاجئين.
ألنار تركض كالخيول وراءنا. أهمُ المغولُ
على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرينَ
أروَّضوا أمسِ الخيول؟
أم نحن بدء الناس: كل تراثنا أنصاب طينْ.

* * *

ألنار تصهل من ورائي والقذائف لا تنامُ
عيونُها وأبي على ظهري، وفي رحمي جنينْ
عُريانُ دون فمٍ ولا بصرٍ تكوّر في الظلامْ
في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ. وكالجرس الصغيرِ
يرنُّ ملء دمي صداه — تكاد تومض كل روحي بالسلام
حتى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير
عريانُ دون فمٍ كأفقر ما يكون: بلا عظامْ
وبلا أب، وبدون حيفا دون ذكرى — كالظلام!
أسْريتُ أعبر، تحت أجنحة الحديد به الزمان
من الحقول إلى المراعي فالكهوف
والأرض تطمس من وراء ظهورنا، كالأبجديه
ألدُورُ فيها والدوالي شاخصات كالحروف
فكأن أمسِ غدٌ يلوح وليس بينهما مكانْ.
لم يخرجونا من قرانا وحدَهنّ ولا من المدن الرخيّه:

لكنهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّه!

فاليوم تمتلئ الكهوف بنا ونعوي جائعين

ونموت فيها لا نخلّف للصغار على الصخورِ

سوى هبابٍ ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين!

ونموت فيها لا نخلّف بعدنا حتى قبور

ماذا نخطّ على شواهدها؟. أ.. "كانوا لاجئين"؟

أليوم تمتلئ الكهوف بنا: تُظلـــّل بالخيامِ

وبالصفيح، وقد تغلفهنَّ بالآجرّ دور

والنور كالتابوت فيها، ليس فيه سوى ظلامْ.

* * *

بين الكهوف وبين حيفا من ظلامٍ ألفُ عام أو يزيدْ

بين الكهوف وبين أمسِ هناك بئرٌ لا قرارَ

لها، كهاوية الجحيم تلزّ فاها دون نارْ

تتعلّق الأحداث فيها كالجلامد في جدارْ

لحداً على لحدٍ، أُزيحَ الطينُ عنها والحجارْ

من يدفن الموتى وقد كُشفوا وماتوا من جديدْ؟

من يدفن الموتى

ليولد، تحت صخرةِ كلّ شاهدةٍ، وليدْ؟

من يدفن الموتى لئلا يزحموا باب الحياةِ

على أكفّ القابلاتْ؟

من يدفن الموتى لنعرف أننا بشر جديدْ!

في كل شهرٍ من شهور الجوع يومئ يوم عيدْ
فنخفَ نحمل من "تذاكرنا" صليبَ اللاجئين:
- "يا مكتباً للغوث في سيناء هبْ للتائهين
منّاً وسلوى من شعيرٍ، والمشيمةَ للجنين
واجعل له المطّاط سُرَّةْ
وارزقْه ثدياً من زجاجٍ واحْشُ بالإدريج صدره."

* * *

وبأيما لغةٍ نقول فيستجيب الآخرون
ونورث الدم للصغار؟
أعلمتَ – حين نقول: دار أو سماء – أيّ دارٍ
أو سماء تخطران على العيون؟
هيهات، ليس للاجئين ولاجئاتٍ من قرار
أو ديار،
إلا مرابع كان فيها أمسِ معنى أن نكون
سنظل نضرب كالمجوس نحسّ ميلاد النهار!
كم ليلةٍ ظلماء كالرّحم انتظرنا في دجاها
نتلمس الدم في جوانبها ونعصر من قواها
شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاحَ نار
حتى حسبنا أن باب الصبح يفرج -- ثم غار
وغادر الحرسُ الحدود.
واختصّ رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار،

ثم اضمحل إلى غبار بين احذية الجنود.

ألليل أُجهِضَ: ناره الحمى وديمته انتحاب الضائعين

ألليل أجهض: ليس فيه سوى مجوس اللاجئين.

* * *

ألنار تركض كالخيول وراءنا. أهمُ المغولُ

على ظهور الصافنات؟ وهل سألتَ الغابرينَ

أروّضوا أمسِ الخيول؟

أم نحن بدء الناس: كل تراثنا أنصاب طين؟

يوم الطغاة الأخير

(أغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته)

- "إلى الملتقى..."، وانطوى الموعدُ

وظلّ الغدُ:

غد الثائرين القريبْ.

يداً بيدٍ من غمار اللهيب

سنرقى إلى القمة العاليه

وشعرك حقلٌ حباه المغيب

أزاهيرَه القانيه.

* * *

نرى الشمس تنأى وراء التلالْ

وبين الظلال

وقد رفّ، مثل الجناح الكسير ---

على كومةٍ من حطام القيود

على عالمٍ بائدٍ لن يعود ---

سناها الأخير.

تقولين لي: "هل رأيت النجوم؟

أأبصرتها قبل هذا المساء

لها مثل هذا السّنا والنّقاء؟"

تقولين لي: "هل رأيت النجوم
وكم أشرقت قبل هذا المساء
على عالم لطّخته الدماء:
دماء المساكين والأبرياء!"
تقولين لي: "هل رأيت النجوم
تُطلّ على أرضنا وهي حرّه
لأول مرّه؟"
نعم. أمس حين التفتَ إليك
تَراءيْنَ كالهجس في مقلتيك.

* * *

وإذ يستضيء المدى بالحريق
فيندكّ سجن ويُجلى طريقْ
ويُذكي بأطيافه الدافئه
محيّاك باللهفة الهانئه؟
تقولين "نحن ابتداء الطريق
ونحن الذين اعتصرنا الحياه:
من الصّخر تدمى عليه الجباه
ويمتصّ ريّ الشفاه،
من الموت في موحشات السّجون:
من البؤس، من خاويات البطون؛
لأحيالها الآتيه

لنا الكوكب الطالعُ

وصبح الغد الساطعْ

وآصاله الزاهيه!"

إلى جميلة بوحيرد

لا تسمعيها.. إنّ أصواتنا

تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،

بابٌ علينا من دمٍ مُقْفَلُ

ونحن في ظلمائنا نسأل:

"من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟

من يصلب الخبز الذي نأكلُ؟

نخشى إذا واريتِ أمواتنا

أن يُفزِعَ الأحياءَ ما يُبصرونْ،

إذ يُقفر الكهف الذي يأهلون؛

إن عربد الوحشُ الذي يطعمون

من أكبُد الموتى، فمن يبذلُ؟

يا أُختنا المشبوحةَ الباكيه،

أطرافُك الداميه

يقطرْن في قلبي ويبكين فيه.

يا من حملتِ الموتَ عن رافعيه

من ظلمة الطين التي تحتويه

إلى سماوات الدم الواريه،

حيث التقى الإنسان والله، والأموات والأحياء في شهقةٍ،

في رعشةٍ للضربة القاضيه.

الأرضُ، أمُّ الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبلِ،

لم تبلُ في إرهاصها الأولِ

من خضّة الميلاد ما تحملينْ:

ترتجُّ قيعان المحيطات من أعماقها، ينسحُّ فيها حنين،

والصخر منشدٌّ بأعصابه — حتى يراها — في انتظار الجنين.

الأرض؟ أم أنت التي تصرخين؟

في صمتك المكتظّ بالآخرين؟

في ذلك الموت، المخاض، المحب، المبغض، المنفتح، المقفلِ.

ونحن؟ أم أنت التي تولدين؟

أسخى من الميلاد ما تبذلين،

والموت، أقسى منه، من كل ما عاناه أجيالٌ من الهالكين،

أنّ الذي من دونه الجُلْجله

والسوطَ والسجّانَ والمقصله،

أنّ الذي يفديكِ أو تفتدين،

غيرُ الذي آذاه بالنار أو بالعار والماء الذي تشربين:

عبءٌ من الآجال ما أثقله!

كم حاول الجلاد أن ينـــزله،

كم ودَّ أن تُلقيه إذ تعجزين.

مشبوحةَ الأطراف فوق الصليبْ،

مشبوحة العينين عبر الظلام،

يأتيك من وهرانَ – يا للزحام!

حَشْدٌ مُشعٍ باشتعال المغيب،

يأتيك كلُّ الناس، كل الأنام،

يرجون، مما تبذلين، الطعام

والأمنَ والنعماء والعافيه.

و تِ مثلُ الدوحةِ العاريه،

لم يبقَ منك البغيُ إلا الجذور

الموتُ واهٍ دونها، والنشور

فيها وتجري دونكِ الساقيه.

ما شبَّ في وهرانَ من بُرعُمِ

أو أزهرت في أطلسٍ عَوسَجه،

إلا ودبّت في مسيل الدمِ

نمنمةٌ منعشةٌ مبهجه

توحي بأن الأرض ظلت تدور

طاحونةً للقاتل المجرمِ

تسحق منه واهنَ الأعظُمِ،

وأنّ ألوان الأذى والعذاب

ذُخرٌ لنا، نجلوه يومَ الحساب

نسقي به الباغين، نُروي التراب

من لَفْحه – أنَّ الهوى والشباب
لم يذهبا – أن البعاد اقتراب –
أن من الدفع الذي تسكبين أسلحةً في أذرع الثائرين.
جاء زمانٌ كان فيه البشرْ
يفدون من أبنائهم للحجر:
"يا ربّ عطشى نحن. هات المطر!
روِّ العطاشى منه. روِّ الشَّجَرْ".
وجاء حينٌ عاد فيه البشر
يفدون بالأنعام ما تحبس السماء في أعماقها من قدر.
وجاء عصرٌ سار فيه الإله
عريانَ، يدمى، كي يروِّي الحياه.
واليوم ولّى محفلُ الآلهه،
اليوم يفدي ثائر بالدماءْ
الشيبَ والشبانَ، يفدي النساء،
يفدي زروع الحقل، يفدي النماء،
يفدي دموع الأيِّم الوالهه.
بالأمس دوّى في ثرى يثربِ
صوتٌ قويٌّ من فقيرٍ نبي،
ألوى ببغي الصَّخْر. لم يضرب،
وحطّم التيجانَ. أيُّ انطلاقْ
في مصرَ، في سوريّةٍ، في العراق،

في أرضكِ الخضراء. كان انعتاق!
بالأمس وارى قومك الآلهه.
عشتار، أمُّ الخِصْب، والحب، والإحسان، تلك الربّة الوالهه
لم تُعطِ ما أعطيتِ، لم تُرْوِ بالأمطارِ ما روّيتِ: قلبَ الفقير،
لم يعرف الحقد الذي يعرفونْ
والحسَدَ الآكلَ حتى العيون.
نحن بنو الفقر الذي يزعمون
في كل عصر أنهم وارثوه.
قابيل فينا ما تهاوى أخوه
من ضربة الحقد التي يضربون.
يوم ابتدأنا كان عبءُ السماء
ملقىً على أطلسٍ،
يزحمه بالمنكب الأملسِ.
ثم ارتقى "إيفل"[1]، تمّ البناء
فانحطّ ذاك العبءُ حيناً عليه،
ثم انطلقنا نحن من جانبيه
حتى حملنا عبئها، كلّ ما فيها من الأبراج والأنجمِ،
يا أختنا المشبوحة الباكيه،
أطرافك الداميه
يقطرن في قلبي ويبكين فيه.

---

[1] برج إيفل في باريس.

لم يلقَ ما تلقين أنتِ المسيح –
أنتِ التي تفدين جُرح الجريح
أنت التي تُعطين.. لا قبضَ ريح،
يا أُختنا، يا أُمَّ أطفالنا
يا سقفَ أعمالنا
يا ذروة تعلو لأبطالنا.
ما حزَّ سوط البغي في ساعديْك
إلا، وفي غيبوبة الأنبياءْ،
أحسستِ أنَّ السوط، أن الدماء،
أنَّ الدجى، أن الضحايا.. هباء
من أجل طفل ضاحكته السماء
فرحانَ في أرضه
وبعضُه فرحانُ من بعضِه،
أحسستِه يحبو على راحتيْك،
سمعتِه يضحك في مسمعَيك،
يهتف: "يا جميله
يا أختيَ النبيله،
يا أختيَ القتيله،
لك الغد الزاهي كما تشتهينْ"
وأنت إذ أحسستِ، إذ تسمعين،
تعلو بك الآلام فوق الترابْ

فوق الذرى، فوق انعقاد السحاب،
تعلين حتى محفل الآلهه
كالربّة الواله،
كالنسمة التائهه.

لا تسمعيها.. إنّ أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،
بابٌ علينا، من دمٍ، مقفلُ
ونحن نُحصي، ثَمَّ، أمواتنا.
الله لولا أنت يا فاديه
ما أثمرت أغصاننا العاريه
أو زنبقت أشعارنا القافيه.
إنّا هنا.. في هوةٍ داجيه
ما طاف لولا مقلتاك الشعاعْ
يوماً بها. نحن العراة الجياع؛
لا تسمعي ما لفّقوا، ما يُذاع،
ما زيّنوا، ما حطَّ ذاك اليراع.
إنّا هنا كومٌ من الأعظمِ
لم يبق فينا من مسيل الدمِ
شيء نروّي منه قلبَ الحياة.
إنّا هنا موتى، حفاة، عراة.

لا تسمعيها، ان أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،
بابٌ عينا، من دمٍ، مقفلْ
ونحن في ظلمائنا نسأل:
"من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتَلُ؟"
يا نفحةً من عالم الآلهه
هبَّت على أقدامنا التائهه،
لا تمسحيها من شواظ الدماء،
إنا سنمضي في طريق الفناء؛
ولترفعي "أوراسَ" حتى السماء
حتى تروّى من مسيلِ الدماء
أعراقُ كلِّ الناس، كلِّ الصخور،
حتى نمسَّ الله.
حتى نثور!

رسـالة مـن مقبـرة

"إلى المجاهدين الجزائريين"

من قاع قبري أصيحْ

حتى تئنَّ القبورْ

من رَجع صوتي، وهو رملٌ وريح:

من عالمٍ في حفرتي يستريح،

مركومةٌ في جانبيه القصورْ،

وفيه ما في سواه

إلاّ دبيبَ الحياه،

حتى الأغاني فيه، حتى الزُّهور

والشمسُ، إلاّ أنها لا تدور

والدُّود نخّارٌ بها في ضريح.

من عالمٍ في قاع قبري أصيح:

"لا تيأسوا من مولدٍ أو نشور!"

* * *

النور من طينٍ هنا أو زجاجْ،

قُفلٌ على باب سورْ.

النور في قبري دجىً دون نور.

النور في شُبّاك داري زجاج،

كم حدّقتْ بيَ خلفه من عيونَ
سوداءَ كالعارِ
يجرحن بالأهداب أسراري
فاليوم داري لم تعدْ داري
والنور في شبّاك داري ظنونْ
تمتصُّ أغواري.
وعند بابي يصرخ الجائعون:
"في خُبزِكَ اليوميِّ دفءُ الدِّماء
فاملأْ لنا، في كل يومٍ، وعاء
من لحمك الحيِّ الذي نشتهيه،
فنكهةُ الشمس فيه
وفيه طعم الهواء!"
وعند بابي يصرخ الأشقياءْ:
"أُعصرْ لنا من مقلتيكَ الضياء
فإننا مُظلمون!"
وعند بابي يصرخ المخبرون:
"وَعرٌ هو المرقى إلى الجلجله[1]،
والصَّخرُ، يا سيزيفُ، ما أثقله.
سيزيف... إنّ الصخرةَ الآخرون!"
لكنَّ أصواتاً كقرع الطبولْ

[1] الجلجلة الجبل الذي حمل المسيح صليبه إلى قمته.

تنهلَ في رمسي

من عالم الشمسِ

هذي خُطى الأحياء بين الحقول

في جانب القبر الذي نحن فيه.

أصداؤها الخضراء

تنهلُّ في داري

أوراقَ أزهارِ

من عالم الشمس الذي نشتهيه.

أصداؤها البيضاء

يَصدعنَ من حولي جليدَ الهواء

أصداؤها الحمراء

تنهلُّ في داري

شلالَ أنوارِ،

فالنور في شبَّاك داري دماء

ينضَحنَ من حيث التقى، بالصخورْ

في فُوهةِ القَبر المغطّاة، سور.

هذا مخاضُ الأرض لا تيأسي؛

بُشراكِ يا أجداث، حانَ النشورْ!

بشراكِ.. في "وهران" أصداءُ صوْر.

سيزيفُ ألقى عنه عبءَ الدُّهور

واستقبلَ الشمسَ على "الأطلسِ"!

* * *

آهٍ لوهرانَ التي لا تثور!

في المغـرب العـربي

قرأتُ اسمي على صخره
هنا، في وحشة الصحراءْ،
على آجرّةٍ حمراء،
على قبرٍ. فكيف يحسُّ إنسانٌ يرى قبرهْ؟
يراه وإنه ليحارُ فيه:
أحيّ هو أم ميتٌ؟ فما يكفيه
أنْ يلقى له ظلاً على الرملِ ،
كمئذنةٍ مُعفّـــرةٍ
كمقبـــرةْ
كمجدٍ زالْ
كمئذنةٍ تردَّد فوقها اسمُ الله
وخُطَّ اسمٌ له فيها،
وكان محمدٌ نقشاً على آجرَّةٍ خضراء
يزهو في أعاليها...
فأمسى تأكل الغبراء
والنيرانُ، من معناه،
ويركله الغزاة بلا حذاء
بلا قدمٍ

وتنــزف منه، دونَ دمِ،

جراحٌ دونما ألم –

فقد ماتْ ...

ومتنا فيه، من موتى ومن أحياء.

فنحن جميعنا أموات

أنا ومحمد والله.

وهذا قبرنا: أنقاض مئذنة معفّرةٍ

عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله،

على كِسَرٍ مبعثرةٍ

على الآجرّ والفخّارْ.

فيا قبر الإله، على النهار

ظلٌّ لألف حربةٍ وفيلْ

ولوْنُ أبرهَه

وما عكسته منه يدُ الدليل،

والكعبة المحزونة المشوَّههْ.

قرأت اسمي على صخره،

على قبرين بينهما مدى أجيالْ

يجعل هذه الحفره

تضمّ اثنين: جد أبي – ومحضُ رمالْ

ومحضُ نثارةَ سوداء منه، استنــزلا قبره –

وإياي، ابنَه في موته والمضغةِ الصلصال.

* * *

وكان يطوف من حدّي

مع المدّ

هتافٌ يملأ الشطآنَ: يا ودياننا ثوري!

ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالْ

يا إرثَ الجماهيرِ،

تشظَّ الآن واسحقْ هذه الأغلالْ

وكالزلزال

هُزَّ النيرَ، أو فاسحقْه واسحقْنا مع النيرِ."

وكان إلهنا يختالْ

بين عصائب الأبطال،

من زندٍ إلى زندِ

ومن بنْدٍ إلى بندِ

* * *

إلهُ الكعبة الجبّارْ،

تدرَّعَ أمسِ في ذي قار

بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثارْ.

إله محمد وإله آبائي من العربِ،

تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار،

وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار.

وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحبِ:

جريحاً كان في أحيائنا يمشي ويستجدي،

فلم نضمُدْ له جرحا

ولا ضحًى

له منا بغير الخبز والأنعام من عبْدِ!

* * *

وأصوات المصلين ارتعاشٌ من مراثيهِ

إذا سجدوا ينـــزُّ دمُ

فيسرع بالضماد فمُ:

بآياتٍ يغضّ الجرح منها خير ما فيهِ،

تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحييه

إذا ما هلل الثوار منا: "نحن نفديه!"

* * *

أغار، من الظلام على قرانا

فأحرقهنَّ، سربٌ من جرادِ

كأن مياه دجلة، حيث ولّى،

تنمّ عليه بالدم والمدادِ.

أليس هو الذي فجأ الحُبالى

قضاه، فما ولدْنَ سوى رمادِ؟

وأنعل، بالأهلة في بقايا

مآذنها، سنابك من جوادِ؟

وجاء الشام يسحب في ثراها

خُطى أسدين جاعا في الفؤادِ؟

فأطعم أجوع الأسدين عيسى

وبلّ صداه من ماء العمادِ

وعضّ نبيَّ مكة... فالصحارى

وكل الشرق ينفرُ للجهادِ؟

* * *

أعاد اليوم، كي يقتصّ من أنـــّا دحرناهُ؟

وإن الله باقٍ في قرانا، ما قتلناه؟

ولا من جوعنا يوماً أكلناه؟

ولا بالمال بعناهُ —

كما باعوا

إلهَهمُ الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه؟

كما أكلوه إذ جاعوا —

إلهَهمُ الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ؟

وفي باريس تتخذ البغايا

وسائدهنّ من ألم المسيحِ

وبات العقمُ يزرع في حشاها

فم التنّين: يشهق بالفحيحِ

ويقذف من حديدٍ في حمانا

جحافل كالفوارس، دون ريحِ

تجدّ وراء مكةَ في الصياصي

أقمناها، ويشرب في السفوحِ

* * *

قرأت اسمي على صخره...

وبين اسمين في الصحراءْ

تنفس عالمُ الأحياء

كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض

ومن آجرّةٍ حمراء ماثلة على حُفره

أضاء ملامح الأرضِ

بلا ومضِ

دمٌ فيها، فسمّاها

لتأخذ منه معناها

لأعرف أنها أرضي

لأعرف أنها بعضي

لأعرف أنها ماضيَّ، لا أحياه لولاها

وأني ميِّت لولاه، أمشي بين موتاها.

أذاك الصاخب المكتظّ بالرايات وادينا؟

أهذا لونُ ماضينا

تضوّأ من كوى "الحمراءْ"

ومن آجرّةٍ خضراء

عليها تكتُب اسمَ الله بقيا من دمٍ فينا؟

أنبرٌ من أذان الفجر؟ أم تكبيرة الثوارْ

تعلو من صياصينا...؟

تمخّضت القبور لتنشرَ الموتى ملايينا

وهبّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصارْ:

إن إلهنا فينا

مرثيـــة جيكـــور

يا صليبَ المســيح ألقــاكَ ظــلاً فوق "جيكور"[١] طائرٌ مــن حديــد
يـــا لظــلٍ كظلمــة القــبر في اللــون، وكــالقبر في ابــتلاع الخــدود
والتــهامِ العيــون مــن كــل عــذراءَ كعــذراءِ "بيــت لحــم" الولــود
مرّ عجــلانَ بــالقبور العــواري مــن صــليبٍ علــى النصــارى شــهيد
فاكتست منــه بالصــليب الــذي مــا كــان إلا رمــز الهــلاك الأبيــد:
لا رجـــاءٌ لهـــا بـــأن يُبعـــث المــوتى ولا مأمــل لهــا بــالخلود!
ويــلَ جيكــور؟ أيــن أيامهــا الخضــرُ ولــيلاتُ صــيفها المفقــود؟
والعشـــاءُ الســـخيّ في ليلـــة العـــرس وتقبيلـــة العـــروس الـــودود
وانتظارٌ له على الباب؟.

- "محمـــود، تـــأخرت يـــا أبـــا محمـــود
نادِ محمود!"

ثم يـــوفي علـــى الجمـــعِ بمنـــديل عرســـه المعقـــودِ
نقطتْــه الــدماء يشــهدنَ للخــدر بعــذراء، يـــا لهـــا مـــن شـــهود[٢]
لا على العقم والرَّدى، بـــل علـــى الميلاد والبعــث والشــباب الجديــد!
أيّ صــوت يصــيح: "محمــود، محمــود تــأخرتَ!" كــالنواح البعيــد؟

---

[١] جيكور، قرية الشاعر في جنوب البصرة.
[٢] من التقاليد المتبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس في ليلة العرس منديلا ملطخا بالدماء يشــهد على أن العروس عذراء!

أين محمود؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل!

يا أبا محمودِ

نادِ محمود. كاد أن يهتف الديكُ وما زال جمعنا في الوصيد

قل له يُبرز الدماءَ فإنّا في انتظار لها وشوق مبيد!

ذرَّ نجمُ الصباح. محمود، محمود، أأقبلت بالدم المنشود؟

أي جرح ينزُّ منه الدم الموَّار في باب داركَ المرصود؟

إنه منك! منك هذا الدم الثرّ ومن جانب العروس القديد!

الصليبُ، الصليبُ! إنّا رأيناه وقد مرَّ كالخيال الشَّرود،

قد رأيناه في الصباح. وفي الليل سمعنا كقعقعات الرعود

أهو هذا الذي يريدون؟ أشلاءً وأنقاضَ منزل مهدود؟

أفما قامت الحضارات في الأرض كعنقاءَ من رماد اللحود؟

لا و لم تُفرخ العقولُ على المجهول يسبرْنَ فيه غورَ الوجود!

أو يشقُّ العُبابَ قلعٌ يصكُّ الريحَ صكاً إلى البعيد البعيد؟

أو يلّم النسيمَ عقداً من النور ويذروه باقةً من ورودِ

ساحرٌ فحَّر المدى عن مدى ملآنَ باللحن مُترعٍ بالنشيد؟

أو تدقّ الأجراس: "يا أرضُ، يا بشراك بالحبّ والمسيح الوليد"؟

لا و لم يُختم الزجاج على كل "هرقلٍ"[1] من العقار الأكيد

يخنق الموتَ كلما همَّ بالناس ويجتاح كاسرات الأسود؟

لا ولا قيسَ بعدما لفّه الليل من الأرض واحتوى من حدود

الذي قاس حافةَ الساعةِ القوراء في قرصها ذراعا حديد؟

---

[1] هرقل الجبار: خنق الموت ونذل الأسود الكاسرة.

أو يفضّ الظلام؟ - إلا لكني تندكّ "جيكور" بالسلاح الجديد؟
كي يراها على اتساع المدى والشأوِ من ليس طرفه بالحديد؟
من وراء المحيط والليل والغابات والبيد والذرى والسدود!
أين من شالِ "جينَ" أطمار "كلثوم"؟ وأن الغضا من الأركيد؟
فيمَ أسرى صحاب "جين" المغاويرُ على زوج "كلثمَ" المنكود؟
يا رماداً تذرُّه الزعزعُ الشعثاءُ في مقلة القُمَير الوحيد،
أنت "جيكور" كل جيكور: أحداق العذارى وباسلات الزنود
والرؤوس التي حنا فوقهنَّ الدهرُ ما في رحاه من تنكيد:
صرَّد القمح من نثار لها اللون، ولم تحظَ بالرغيف الوئيد
فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى، لمائها الموؤود!

خورس[1]:

شيخ اسمُ اللهِ.. ترللا
قد شابَ ترلَ ترلَ ترارِ ... وما هلاَّ

ترلل .. العيد ترللا
ترللا.. عرّس "حمادي"،
زغردن ترلَ ترلّلاَ
الثوب من الزيز.. ترلُلا
والنقشُ صناعةُ بغداد

* * *

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود!

---

[1] يغني الخورس أغنيتين عراقيتين شعبيتين: (شيخ اسم الله) نبات كالحلفاء تؤكل ازهاره وهي في براعمها، وتتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس التي شابت.

قطّب الصمتُ حيث كانت أغانيك، وحيث العبير نتن الصديد
جاء قرنٌ وراح والمدْن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود،
ضاع صوتُ الضعاف فيها وآهات النبيِّين وابتهال الطريد
واستحال الفضاء – من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد –
غير هذا الفضاء: شيئاً لغير الآدميين – ربما للقرود...
ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد!
ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود،
ثمة التمَّ في كرات من النار... فألقى عليك صمت اللحود!
لا عليك السلام يا عصر "تعبانَ بن عيسى" وهنت بين العهود!
ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتلتظي من جديد:
ذلك الكائن الخرافيّ في جيكورَ، "هومير"[1] شعبه المكدود
جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط "الرشيد"،
يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام، بالشدق والخيال الوئيد
ما تزالُ "البسوسُ" محمومةَ الخيل لديه، وما خبا من "يزيد"
نار عينين ألقتاها على "الشمْر"[2] ظلالاً مذبَّحات الوريد!
كلما لزّ شمرُه الخيل أو عرّى أبو زيده[3] التحام الجنود
شدّ راحاً وأطلق المغزل الدوّار يدحوه للمدار الجديد!
وانتهى من حديثه الضخم عن ضخم من الغزل، وانتهى من قعود
نصفَ عريان يسحب الطرف عن صدر تعرى وعن قميص فقيد

---

[1] هومير الشاعر الإغريقي الأعمى.
[2] الشمر قاتل الحسين، وتصوره القصص مرتديا ثيابا حمر اللون.
[3] أبو زيد الهلالي.

غير بقيا على فمٍ دقّ حتى عن فم العنكبوت، في رأس عود:

مغزلٌ ينقض الذي حاكه النولُ، وجهدٌ أضاع شتى جهود

فهو كدٌّ وليس بالكدّ، أردى قبله اثنين وادعى بالمزيد -

حاضرٌ غير حاضر، منه للماضي فناء وللغد الموعود!

لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود

أنت أيتمت كل روح من الماضي، وسوّدت آلة من حديد

تسكب السم واللظى لا حليبَ الأم أو رحمةَ الأب المفقود

سُلَّمٌ في الحضيض أعلاه - مرقاه انخفاضٌ وإن بدا كالصعودِ

حدَّقت منه في الورى مقلتا "فوكاي" تستشرقان أيام "هود"

والمسيحَ المبيعَ بخساً بما لو بيع لحماً لناء عن تسديد!

حدّقي حيث شئتِ، يا عين فوكاي المدمّاة، من مداك المديد!

فهي سوق تُباع فيها لحومُ الآدميين دون سلخ الجلود:

كلُ أفريقيا وآسيةَ السمراء، ما بين زنجها والهنود

واشترى لحم كلّ من نطق الضادِ تجارٌ تبيعه لليهود!

هكذا قد أسفَّ من نفسه الإنسان وانهار كانهيار العمود

فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود!

والذي حارت البرية فيه[1] بالتآويل، كائنٌ ذو نقود!

---

[1] قال المعري: والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد.

نابُ الخنــــزير يشقّ يدي
ويغوص لظاه إلى كبدي،
ودمي يتدفّق، ينسابُ:
لم يغدُ شقائقَ أو قمحا
لكنْ ملحا.
"عشتار" ... وتخفقُ أثوابُ
وترفّ حياليَ أعشابُ
من نعْلٍ يخفق كالبرق
كالبرق الخلّبِ ينسابُ.
لو يومض في عِرْقي
نورٌ، فيضيء ليَ الدنيا!
لو أنهض، لو أحيا!
لو أُسقى! آهٍ لو أسقي!
لو أنّ عروقي أعنابُ!
وتقبّل ثغري عشتارُ،
فكأنّ على فمها ظُلمهْ
تنثال عليَّ وتنطبقُ،

فيموت بعينيَّ الألق

أنا والعتْمـــه...

* * *

جيكورُ... ستولدُ جيكورُ:

النَّور سيُورق والنُّورُ.

جيكور ستولد من جُرْحي،

من غصَّة موتي، من ناري؛

سيفيض البيْدر بالقمحِ،

والجرْن سيضحك للصبحِ،

والقريةُ داراً عن دارِ

تتماوج أنغاماً حلوَه،

والشيخ ينامُ على الربوه؟

والنخل يوسوس أسراري.

جيكور ستولد... لكنّي

لن أخرجَ فيها من سجْني

في ليل الطين الممدودِ

لن ينبض قلبي كاللحْنِ

في الأوتارِ،

لن يخفقَ فيه سوى الدودِ.

* * *

هيهات.. أتولد جيكورُ

إلا من خضة ميلادي؟

هيهات.. أينبثقُ النورُ

ودمائي تُظلم في الوادي؟

أيُسَقْسقُ فيها عصفورُ

ولساني كومةُ أعوادِ؟

والحقل، متى يلد القمحا

والوردَ، وجُرحي مغفورُ

وعظامي ناضحةٌ مِلحا؟

لا شيء سوى العدم العدمِ،

والموتُ هو الموتُ الباقي.

يا ليلُ أظِلّ مسيلَ دمي

ولتغدُ تُراباً أعراقي؟

هيهات.. أتولد جيكور

من حقد الخنــزير المتدثّر بالليل

والقُبْلة بُرعمةُ القَتلِ

والغيمةُ رملٌ منثورُ

يا جيكور؟

وتلتفُّ حولي دروب المدينه:

حبالاً من الطين يمضغن قلبي

ويعطين، عن جمرةٍ فيه، طينهْ،

حبالاً من النار يجلدْن عُريَ الحقول الحزينه

ويُحرْقن جيكور في قاع روحي

ويزرعن فيها رماد الضغينهْ.

دروبٌ تقول الأساطير عنها

على مَوْقدٍ نام: ما عاد منها

ولا عاد من ضفّةِ الموت سارٍ،

كأن الصدى والسكينهْ

جناحا أبي الهول فيها، جناحان من صخرةٍ في ثراها دفينه.

فمن يفجرُ الماءَ منها عيوناً لتُبنى قرانا عليها؟

ومن يرجع الله يوماً إليها؟

* * *

وفي ليل، فردَوْسها المستعادِ،

إذا عرَّش الصخرُ فيها غصونه

ورصَّ المصابيحَ تُفاحَ نارٍ

ومدّ الحوانيتَ أوراقَ تينه،

فمن يُشعل الحبَّ في كل درب وفي كلِّ مقهى وفي كل دار؟
ومن يُرجع المِخلبَ الآدميَّ يداً يمسح الطفلُ فيها جبينه؟
وتَغضلُّ من لمسها، ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟
وبين الضُّحى وانتصافِ النهار:
إذا سبّحت باسم ربٍّ المدينه
- بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب الصغار -
رحى معدنٍ في أكُفٍّ التجار
لها ما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار،
فمن يسمع الروحَ؟ من يبسطُ الظلَّ في لافحٍ من هجير النضار؟
ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيحُ السفينه؟
وجيكور، من غلَّق الدور فيها — وجاء ابنها يطرق
البابَ — دونه؟
ومن حوَّل الدرب عنها... فمن حيث دارَ اشرأبّت إليه المدينه؟
وجيكور خضراءُ مسَّ الأصيل ذرى النخل فيها
بشمس حزينه.
يمدُّ الكرى لي طريقاً إليها:
من القلب يمتدُّ، عبرَ الدهاليز عبر الدجى والقلاع الحصينه...
وقد نام في بابلَ الراقصون
ونام الحديدُ الذي يشحذونهْ،
وغشَّى، على أعين الخازنين، لهاثُ النُّضار الذي يحرسونه:
حصادَ المجاعات في جنتيها.

رحىً من لظى مرَّ دربي عليها،

وكرْمٌ ، عساليجُه العاقراتُ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينه،

شرايينُ في كل دارٍ وسجنٍ ومقهى

وسجنٍ وبارٍ وفي كل ملهى

وفي كل مستشفيات المجانين...

في كل مبغىً لعشتار...

يُطلعنَ أزهارَهنَّ الهجينه:

مصابيحَ لم يُسرج الزيتُ فيها وتمسسْه نار

وفي كل مقهى وسجن ومبغى ودار:

"دمي ذلك الماء، هل تشربونه؟

ولحمي هو الخبز، لو تأكلونه!"

وتموز تبكيه لاةُ الحزينه.

* * *

تَرفع بالنواح صوتها مع السَّحَرْ

تَرفع بالنواح صوتها، كما تنهَّد الشجر

تقول: "يا قطار، يا قدَرْ

قتلتَ - إذ قتلته - الربيع والمطر".

وتنشر (الزمان) و (الحوادثُ) الخبرْ[1].

ولاةُ تستغيث بالمضمِّد، الحُفرْ

أن يُرجِعِ ابنها: يديه، مقلتيه، أيَّما أثرْ!

---

[1] واضح ان "الزمان" و "الحوادث" جريدتان.

وترسل النواح: "يا سنابل القمَرْ

دم ابنيَ الزجاجُ في عروقه انفجر..

فكهرباءُ دارنا أصابت الحجَرْ

وصكّه الجدارُ، خضّه، رماه لمحةَ البصرْ

أراد أن يُنير، أن يبدِّد الظلامَ... فاندحر"

وتُرسل النواحَ...

ثم يصمت الوَتَرْ.

* * *

وجيكور خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها

بشمسٍ حزينه.

ودربي إليها كومض البروق،

بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنارَ المدينه

وعرّى يدي من وراء الضّماد كأن الجراحات فيها حروق.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

فمن يخرق السورَ؟ من يفتح البابَ؟ يدمي على كل قفل يمينه؟

ويُمناي: لا مخلبٌ للصراع فاسعى بها في دروب المدينه

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين...

لكنها محضُ طينه.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكنيه.

على جواد الحُلْم الأشهبِ
أسريتُ عَبرَ التلالْ
أهرب منها، من ذُراها الطوال،
من سوقها المكتظّ بالبائعين،
من صبحها المتعَبِ
من ليلها النّابح والعابرين،
من نورها الغَيهب،
من ربها المغسول بالخمرِ،
من عارها المخبوء بالزهرِ،
من موتها الساري على النهرِ[1]
يمشي على أمواجه الغافيه.
أوّاه لو يستيقظ الماء فيهْ،
لو كانت العذراء من وارديه،
لو أن شمس المغرب الداميه
تبتلُّ في شطّيه أو تُشرقُ،
لو أن أغصان الدُّجى تورقُ
أو يُوصَدُ الماخور عن داخليه.

---

[1] كان المسيح، في عهده، هو الذي مشى على الماء.

* * *

على جواد الحُلُم الأشهبِ
وتحت شمس المشرق الأخضرِ
في صيف جيكور السخيِّ الثري
بين الندى والزهر والماءِ
أبحث في الآفاق عن كوكبِ[1]
عن مولد للروح تحت السماءْ
عن منبعٍ يروي لهيب الظماء
عن منــزلٍ للسائح المُتْعبِ.

* * *

جيكور، جيكور: أين الخبزُ والماءُ؟
الليل وافى وقد نام الأدلاّءُ؟
والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ
والريح صِرٌّ، وكل الأفق أصداءُ.
بيداءُ ما في مداها ما يبين به
دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ
جيكور مدّي لنا باباً فندخلَه
أو سامرينا بنجم فيه أضواءُ!

* * *

من الذي يسمع أشعاري؟
فإن صمْت الموت في داري

---

[1] ... وبزغ كوكب عرف منه المجوس ان المخلص قد ولد.

والليلَ في ناري.

من الذي يَحمل عِبءَ الصليبْ

في ذلك الليل الطويل الرهيب؟

من الذي يبكي ومن يستجيب

للجائع العاري؟

من يُنــزل المصلوبَ عن لَوحِهِ؟

من يطرد العقبان عن جرحهِ؟

من يرفع الظلماء عن صبحهِ؟

ويُبدل الأشواكَ بالغارِ[1]؟

أواه يا جيكور لو تسمعينْ!

أواه يا جيكور... لو توجَدين!

لو تنجبين الروح، لو تُجهضين

كي يُبصر الساري

نجماً يضيء الليلَ للتائهين.

* * *

نَزْعٌ ولا مَوْتُ،

نُطْقٌ ولا صوتُ،

طَلْقٌ ولا ميلاد.

من يصلب الشاعرَ في بغداد؟

من يشتري كفَّيه أو مُقْلتيه؟

من يجعل الإكليلَ شَوْكاً عليه؟

---

[1] وألبسوا المسيح تاجا من الشوك... سخرية به.

جيكور يا جيكورْ

شدَّت خيوطُ النور

أرجوحةَ الصُّبحِ.

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي.

* * *

هذا طعامي أيُّها الجائعون

هذي دموعي أيها البائسون

هذا دعائي أيها العابدون:

أن يقذف البركانُ نيرانَهُ،

أن يُرسل الفراتُ طوفانَهُ،

كي نُشرق الظُّلْمَه،

كي نعرف الرحمه؛

جيكور يا جيكور

شدّت خيوط النور

أرجوحة الصبحِ

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي!

* * *

هذا حرائي[1] حاكت العنكبوتْ

---

[1] حراء، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد. حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ – والمشركون جادون في أثره – في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد.

خيطاً إلى بابه
يهدي إليَّ الناس ، إني أموت
والنور في غابه
يُلقي دنانير الزمان البخيلْ
من شرفةٍ في سعفات النخيل.
جيكور، يا جيكور: خلٌّ وماءْ
ينساب من قلبي،
من جُرحيَ الواري،
من كل أغواري.
أوَّاه يا شعبي...
جيكور، يا جيكور هل تسمعينْ؟
فلْتفتح الأبواب للفاتحين
ولتجمعي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية. هذا العشاءْ.
هذا حصاد السنين:
الماء خمرٌ، والخوابي غذاء[1]
هذا ربيع الوباء.

* * *

أقوى من الأسوار هذا الجوادْ
"أقوى جوادُ الحُلُمِ الأشهبُ"
لانَ الحديدُ المغتذي بالحداد

---

[1] ... وأحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون.

وانخذل الموكبُ.

جيكور، ماضيكِ عاد.

....

هذا صياحُ الديك: ذاب الرقاد

وعدتُ من معراجيَ الأكبرِ:

الشمس أمُّ السنبل الأخضرِ

خلف المباني، رغيفْ.

لكنها في الرصيف

أغلى من الجوهرِ.

والحُبُّ: "هل تسمعين

هذا الهتافَ العنيف؟

ماذا علينا؟ إن عبد اللطيف[1]

يدري بأنّا... ما الذي تحذرين؟

وانخطفتْ روحي، وصاح القطارْ

ورقرقت في مقلتيَّ الدموعْ

سحابةً تحملني، ثم سار.

يا شمس أيامي، أما من رجوع؟

....

جيكور، نامي في ظلام السنين.

---

[1] اقرأ مذكراتي "كنت شيوعياً" المنشورة في جريدة الحرية العراقية.

رؤيا في عام ١٩٥٦

حطّت الرؤيا على عينيَّ صقراً من لهيبْ:

إنّها تنقضّ، تحتثُّ السواد

تقطع الأعصاب تمتص القذى من كل

جفنٍ، فالمغيبْ

عاد منها توأماً للصبح – أنهار المدادْ

ليس تطفي غُلّة الرؤيا: صحارى من نحيب

من جحورٍ تلفظ الأشلاء، هل جاء المعادْ؟

أهْو بعثٌ، أهْو موتٌ، أهْي نار أم رماد؟

أيها الصّقر الإلهيّ الغريبْ

أيها المنقضُّ من أولمبَ في صمتِ المساءْ

رافعاً روحي لأطباق السماء

رافعاً روحي – غنيميدا[1] جريحا،

صالباً عينيّ – تموزاً، مسيحا،

أيها الصقر الإلهيّ ترفّقْ

إن روحي تتمزّق،

إنما عادت هشيماً يوم أن أمسيت ريحا.

---

[1] غنيميد راع يوناني شاب وقع زيوس كبير آلهة الأولمب الإغريقي في حبه، فأرسل صـــقرا اختطفـــه وطار به إليه.

في غيمة الرؤيا

يوم بلا ميعاد

جنكيز هل يحيا

جنكيز في بغداد؟

عينٌ بلا أجفانْ

ممتدّ من روحي

شدقٌ بلا أسنانْ

ينداح في الريحِ

يعوي: أنا الإنسانْ.

* * *

يا جواداً راكضاً يعدو على جسمي الطريح

يا جواداً ساحقاً عينيّ بالصخر السنابك

رابطاً بالأربع الأرجل قلبي

فإذا بالنبض نقرٌ للدرابكْ

وإذا بالنار دربي.

سحّت الرؤيا ضياء من لظاها

صابغاً ما تبصر العين القريحْ

مازجاً بالشيء ظلّهْ

خالطاً فيها يهوذا بالمسيح،

مدخلاً في اليوم ليله

بانياً في عروة المهد الضّريح

الدماء

الدماء

الدماء

وحّدت بالمجرمين الأبرياء،

نصبت في شدْقي الذئبة كرْسيّ القضاء،

ماذا جنى شعبي؟

حلّت به اللعنهْ

من زاده المحنه،

رحماك يا ربي.

من مائه الديدانْ

من لبسه الأكفان

من طيره الغربانْ

ينقرن في قلبي.

واليوم في بيدري

لم يبقَ من حبي

شيءٌ — هنا حبّــتان

فأمطري أمطري

وإن يكن نيرانْ.

وأثمري أثمري

وإن يكن ثعبان.

* * *

ما الذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال؟

منجلٌ يجتثَّ أعراق الدوالي

قاطعاً أعراق تموز الدفينه.

وعلى القنّب أشلاءٌ حزينهْ:

رأس طفلٍ سابح في دمهِ

نهد أُمٍ تنقر الديدان فيه، في سكينه،

أي آهٍ من دمٍ في فمه؟

ما الذي ينطف من حلمته، من لحمهِ؟

يا حبال القنبِ التفّي كحيَّات السعيرِ

واخنقي روحي وخلّي الطفل والأم الحزينه؟

يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبيرِ

- جفنة قد هيّأوها للوليمهْ -

يا حبالاً تسحب الأحياء - من شيخٍ كبيرٍ؛

من فتاةٍ أو عجوزٍ، من ضلوعٍ حطموها

علّقت فيها تميمه،

من صدورٍ مزّقوها،

زرعوا فيها بذوراً من رصاصٍ، من حديد.

ما الذي تثمر هاتيك البذور

غير أحجار القبور؟

غير تفاح الصديدْ؟

* * *

تموز هذا، أتيس[1]

هذا، وهذا الربيع.

يا خبزنا يا أتيس،

أنبتْ لنا الحب وأحيِ اليبيس.

إلتأم الحفل وجاء الجميع

يقدّمون النذورْ،

يحيون كل الطقوسْ

ويبذرون البذورْ

سيقان كل الشجرْ

ضارعة، والنفوس

عطشى تريد المطر

شدّوا على كل ساق

يا ربّ، تمثالكْ

فلتسقِ كل العراقْ

فلتسقِ فلاحيك، عمالك

شدّوا على كل ساق

أواه، ما شدّوا؟

أوّاه،ما سمّروا؟

أغصان زيتوننا أثقلها الوردُ

---

[1] أتيس يقابل تموز الإله البابلي عند سكان أسيا الصغرى القدماء. يحتفل بعيده في الربيع، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة. وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قربانا دلالة الخصب.

وردَ الدمِ، الأحمرِ.

شدوا على كلِ ساقْ

يا ربَ تمثالكْ

فاسمعْ صلاةَ الرفاق

ولترعَ فِلاحيك، عمالك

تمثالكَ البعلُ

تمثالكَ الطفل

تمثالكَ العذراءْ

تمثالك الجانون والأبرياء

تمثالكَ الأمّ الشماليه،

لأنها ليست شيوعيه

يُقطع نهداها

تُسمل عيناها،

تُصلب صلباً فوق زيتونه،

تهزها الريح الجنوبيهْ.

تمثالك الآلاف، مجنونه

من رعبها، تمثالك الأحمرُ

كأنه الشقيق[1] إذ يُزهرُ

* * *

عشتار[2] على ساق الشَّجره

---

[1] في الأساطير البابلية أن دم تموز القتيل أصبح شقائق.

[2] إلهة الخصب والحب عند البابليين وهي حبيبة تموز.

صلبوها، دقّوا مسمارا

في بيت الميلاد — الرَّحِمِ.

عشتار بحفصةَ[1] مستتره

تدعي لتسوق الأمطارا

تدعى لتُساقَ إلى العدمِ.

عشتار العذراء الشقراء مسيل دمِ

صلّوا... هذا طقسُ المطرِ

صلّوا... هذا عصر الحجر

صلّوا، بل أصلوها نارا.

تموز تجسَّد مسمارا

من حفصةَ يخرج والشجره.

النهد الأعذَرُ فاض ليطعم كل فمِ

خبزَ الألمِ.

"الأقّةُ"، صاح القصّابُ،

"من هذا اللحم بفلسينِ"،

إقطعْ من لحم النهدينِ

اللحمُ لنا، والأثوابُ —

ستكون لمسح السكّينه

من آثار دم الأطفالِ

من آثار دم المسكينه

---

[1] حفصة إحدى شهيدات مذبحة الموصل.

فلتحيَ زنود العمال.

في قلبي دمدم زلزالُ

فجنائن بابل تندثرُ،

في قلبي يصرخ أطفالُ،

في قلبي يختنق القمر.

الظلمة تعبس في قلبي

والجو رصاصْ

والريح تهبُّ على شعبي

والريح رصاص

أواه لقد هجم التتر

فالصبح رصاص

والليل رصاص.

* * *

الرؤيا تلمح كالقلعِ

في بحر يُزبد غضبانا،

طوراً للأغوار وأحيانا

يعلو فنراه، وفي سمعي

أصداء تصمت أو تعلو،

وبياني يغمض أو يجلو:

* * *

أي حشد من وجوهٍ كالحات،

من أكفٍّ كالتراب

نبتها الآجرّ والفولاذ كالأرض اليباب؟

أي حشدٍ من ذئاب؟

يطعمون الجو ريح المعملِ؟

أي نعشٍ، أي شكوى، أي دمعٍ من نساء ثاكلات؟

أي جمعٍ من عذارى نادبات

أي موتٍ مثكلِ

يا لعشتاراتِنا يبكينَ تموز القتيل.

* * *

ألعازَرُ قام من النعشِ —

شخنوب[1] العازر قد بعثا

حيّاً يتقافز أو يمشي.

كم ظلَّ هناكَ وكم مكثا.

أترى عاماً أم عامين؟

أم دامت ميتته ساعه؟

شخنوب العامل، من راعه؟

فتنكر للدينارين

وتواثب يركض مذعورا؟

[1] العازر الميت الذي أحياه المسيح من قبره. وشخنوب هو عامل السمنت الذي استأجره الفوضويون، فتظاهر بالموت وحملوه في النعش تشهيرا بالجيش "الذي يقتل العمال" كما قالوا، ثم قام ماشيا حين سقط النعش.

الموت الزائف خاتمةٌ

لحياة زائفة مثلهْ،

والبعث الزائف عاقبةٌ

للموت الزائف من قبلهْ.

* * *

ولفَّني الظلام في المساءْ

فامتصت الدماء

صحراءُ نومي تُنبت الزهَرْ؛

فإنما الدماء

توائم المطر.

أنا أيها الطاغوت مقتحم الرِّتاج على الغيوبْ
أبصرت يومك وهو يأزف

هذه سحب الغروب

يتوهّج الدم في حفافيها وتنثر في الدروب
شفقَ البنفسج والورود ولونَ أردية الضحايا
فتشعّ أعمدةٌ عوابسُ، والرصيف من الصبايا
والنسوةِ المتهامسات كحقل قمح، والسطوح
كأن بابل أودعتها من جنائنها بقايا
لو أن غرساً كان من بشر، وأسمع من يصيح
"هوذا يساق إلى الحساب" كأن أعراق المغيب
قُطعت فصاح، كأن صوتاً من لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم – هواه ... -!

* * *

إني شهدت سواك ينسفه اختناقٌ للصدورِ
بغيظها، وسمعت قفقفة الضحايا في القبورِ
ودمَ الحوامل وهو تشربه الأجنَّة في دجاها
فسمعت وقع خطاك خائرةً تجر إلى السعيرِ

حطام جسمك، والسعير مدى تراها
تحتز من قصبات صدرك ثأرَ كل دم العصور؛
إني أكلت مع الضحايا في صحاف من دماء،
وشربت ما ترك الفم المسلول منه عاى الوعاء،
وشممتُ ما سلخ الجُذام من الجلود على ردائي
ونشقت ماء جوارب السجناء في نفَس الهواء
فشممت فيه دخان دارك واحتراقَ بنيك فيها
وشواء لحم بنيك، لولا أن شيمة محرقيها
ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء
إني شببت مع الجياع، مع الملايين الفقيره
فعرفت أسراراً كثيره:
كل اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء:
إغضاءة المقل الضريرهْ
يتطلع الدم في ظلام جفونهنّ إلى الضياء،
والحاملات نذورَهن إلى قبور الأولياء
ألموقدات شموعَهنّ تلقّ ألسنها الكثيره
كِسَرَ الرغيف ويعتصرن د الثديِّ إلى الدماء
وتأوُّه المستنقعات وزفة البردىِّ فيها
وطنين أجنحة البعوض كأن غرقى ساكنيها
يتنفسون من القرار ويضرعون إلى السماء
أن ينجوَ الأطفالُ من غرق وحمّى في الهواء

وملالة الأكواخ تشرب كل أمطار الشتاء
حتى تغصَّ بها فللقصب النقيع بكل ماء
شهقات محتضَرٍ يُغرّ وإن تقيأ بالدواء،
وتنهد الأشجار عطشى يابساتٍ في الظهيره
تتكسر الورقات فيها والمناقير الصغيره،
فكأن مقبرة الهجيره
تمتصُّ من رحم الحياة لتسقيَ الموتى عصيره.

* * *

أنا قارئ الدم لا تراه وأنت أنت المستبيحُ،
أفلست تجرؤ أن تحدِّق فيه علك تستريحُ
من ازدياد دمٍ تُذرّ على جفونك منه نار
لزجٍ يسلُّ مع الرقاد كأن بؤبؤك الذبيح
قابيل حدَّق في دماء أخيه أمسِ.
وأنت يأخذك الدوار
من رؤية الدم وهو ينـــزف ثم يركد فالغبار
من تحته كفم الرضيع له اختلاج وافترار
أتخاف أن تطأ النبوءةُ مقلتيك "هو الدمار"
أتخاف منها أن تفرّ كأن سرب قطا يثارُ
فأنت من هلع تخضّ إلى المشاش "هو الدمار"
إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمصّ مائي
وعرفت ما قلق الطريد يكاد كل فم ورائي

يعوي بـــ "ها هوذا" وتوشك كل عين ألتقيها
أن يومض اسمي في قرارها وجهلي بالدروبِ
ولست أسأل عابريها عن بعيد عن قريب
من منتهاها واكتئابي والحنين مع الغروب
وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها
وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مُستريبِ
ألاّ تشدّ يدٌ على كتفي، وأُوشك أن أراها.
أعرفتَ ذاك؟ فسوف تعرف منه دنيا في مداها
تصطفّ أعمدةٌ عوابسُ ثم تسمع من يصيحُ
"هوذا يساق إلى الحساب" كأنما اطّرحت رداها
جثثُ القبور، كأن صوتاً من لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم: هوا...ه!

كم يُمِضُّ الفؤادَ أن يُصبح الإنسان صيّداً لرميةِ الصــيّاد؟
مثل أيِّ الظّباء، أيِّ العصافير، ضعيفا
قابعاً في ارتعادة الخوف، يختضُّ ارتياعاً، لأنَّ ظــلاً مخيفــا
يرتمي ثمّ يرتمي في اتّئادِ.
ثعلبُ الموت، فارسُ الموت، عزرائيـــل يــدنو ويشـــحذ
النَّصْلَ. آه
منه آه، يصكُّ أسنانه الجوعى ويرنو مهــدِّداً. يــا إلهــي
ليت أنَّ الحياة كانت فناء
قبل هذا الفناءِ، هذي النهايهْ،
ليت هذا الختامَ كان ابتداء.
واعذاباه، إذ ترى أعْيُنُ الأطفالِ هذا المهــدِّدَ المســتبيحا،
صابغاً بالدماء كفَّيْه، في عينيْه نــارٌ وبــين فكَّيْــه نــارُ.
كم تلوَّتْ أكفُّهم واستجاروا،
وهو يدنو... كأنَّه احتثَّ ريحا،
مستبيحا،
مستبيحاً، مهدِّداً، مستبيحا.
مَنْ رآها، دجاجةَ الريف، إذ يُمسي عليها المساءُ في بستانهْ؟

حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفرّاس، يا للصريف من أســـنانه!
وهي تختضُّ، شلّها الرعبُ، أبقاها بحيثُ الردى –
كأنَّ الدروبَ ...
... استلّها ماردٌ، كأنَّ النيوبا
سورُ بغداد موصد الباب، لا منجى لديه ولا خلاصٌ يُنال.
هكذا نحن، حينما يُقبل الصيّادُ عزريل:
رجفةٌ فاغتيــــالُ.

المبغى

بغداد[1]؟ مبغىً كبيرْ

(لواحظ المغنِّيه

كساعةٍ تتكُّ في الجدارْ

في غرفة الجلوس في محطّة القطارْ)

يا جثةً على الثرى مستلقيَهْ

الدود فيها موجةٌ من اللهيب والحريرْ.

* * *

بغداد كابوسٌ: (ردىً فاسدُ

يجرعه الراقدُ

ساعاته الأيام، أيّامه الأعوام، والعام نيرْ:

العامُ جرْحٌ ناغرٌ في الضمير)

* * *

عيون المها بين الرصافة والجسْرِ

ثقوب رَصاصٍ رقّشتْ صفحة البدرِ؛

ويسكب البدر على بغداد

من ثُقْبيِ العينين شلاّلاً من الرمادْ:

الدور دارٌ واحده،

---

[1] كتبت في العهد المباد قبل ثورة سنة ١٩٥٨.

وتُعصر الدروب، كالخيوط، كلُّها

في قبضة مارده

تمطُّها، تشلُّها،

تُحيلها درْباً إلى الهجيرْ.

وأوجه الحسان كلُّهنَّ وجه "ناهده"

(حبيبتي التي لُعابها عَسَلْ،

صغيرتي التي أردافُها جبل

وصدرُها قُلل.)

* * *

ونحن في بغداد؟ من طينِ

يعجنه الخزّافُ تمثالا،

دنيا كأحلام المجانينِ

ونحن ألوانٌ على لجِّها المرتجِّ أشلاءً وأوصالا

* * *

بالأمس كان العيد، عيد الزهورْ:

الزادُ تحثوه الربى، والخمور،

والرقص، والأغنيات

والحب، والكركرات.

ثم انتهى إلا بقايا طيور

تلتقط الحَبَّ، وإلاّ دماء

ممّا نماه الحقلُ – طيرٌ وشاء –

وغير أطفال يطوفون أُور:

- "العيدُ، من قال انتهى عيدُنا؟

فلتملأ الدنيا أناشيدُنا

فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور..

بالأمس كان العيد، عيد الزهور،

واليوم؟ ما نفعلُ؟

نزرعُ أم نقتلُ؟

* * *

أهذه بغـــداد؟

أم أن عاموره

عادتْ فكان المعادْ

موتاً؟ ولكنني في رنّة الأصفادْ

أحسَسْتُ.. ماذا؟ صوتَ ناعوره

أم صيحةَ النُسْغ الذي في الجذورْ؟

النهر والموت

بُوَيْب...
بُوَيْبْ...
أجراسُ بُرجٍ ضاع في قرارة البَحَرْ.
الماء في الجرار، والغروبُ في الشَّجَر
وتنضحُ الجرارُ أجراساً من المطرْ
بلُّورُها يذوب في أنينْ
"بُوَيْبُ... يا بُوَيبْ!"،
فيَدْلَهِمُّ في دمي حنينْ
إليْكَ يا بُوَيْب،
يا نهريَ الحزينَ كالمطرْ.
أودُّ لو عدوْتُ في الظلامْ
أشدُّ قبْضتيَّ تحملان شوْقَ عام
في كلِّ إصبَعٍ، كأني أحملُ النّذورْ
إليكَ، من قمحٍ ومن زهور.
أودُّ لو أُطلُّ من أسرّةِ التلال
لألمحَ القَمَرْ
يخوض بينَ ضفتيكَ، يزرع الظلالْ

ويملأُ السِّلال

بالماء والأسماكِ والزَّهرْ.

أودُّ لو أخوض فيكَ، أتبعُ القمرْ

وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرار

صليلَ آلافِ العصافير على الشجر.

أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نَهَرْ؟

والسَّمكُ الساهرُ، هل ينام في السَّحَرْ؟

وهذه النجومُ، هل تظلُّ في انتظارْ.

تُطْعِمُ بالحرير آلافاً من الإبَرْ؟

وأنتَ يا بُويْب...

أودُّ لو غرقتُ فيك، ألقِطُ المحارْ

أشيدُ منه دارْ

يُضيءُ فيها خُضْرَةَ المياهِ والشَّجرْ

ما تنضحُ النجومُ والقمر،

وأغتدي فيكَ مع الجَزْرِ إلى البحَرْ!

فالموت عالَمٌ غريبٌ يفتنُ الصِّغار،

وبابُه الخفيُّ كان فيكَ، يا بُويبْ...

* * *

بوَيبُ... يا بُويبْ،

عشرون قد مضيْن، كالدُّهور كلُّ عام.

واليوم، حين يُطبقُ الظلامْ

وأستقرُّ في السرير دون أن أنام

وأُرهفُ الضميرَ: دوحةً إلى السَّحَرْ

مرهفة الغصونِ والطيور والثمرْ —

أُحسُّ بالدِّماء والدموع، كالمطرْ

ينضَحُهُنَّ العالمُ الحزينْ:

أجراس موتى في عروقي تُرعشُ الرنينْ،

فيدلهمُّ في دمي حنين

إلى رصاصةٍ يشق ثلجُها الزُّؤامْ

أعماقَ صدري، كالجحيم يُشعِل العظام.

أودُّ لو عدوتُ أعضد المكافحين

أشدُّ قبضتيَّ ثم اصفعُ القدَرْ.

أودُّ لو غرقتُ في دمي إلى القرار،

لأحملَ العبْءَ مع البشرْ

وأبعثَ الحياة. إنَّ موتيَ انتصار!

بعدما أنزلوني، سمعتُ الرياحْ
في نواحٍ طويلٍ تسفُّ النخيلْ،
والخطى وهي تنأى. إذن فالجراحْ
والصليبُ الذي سمّروني عليه طوال الأصيلْ
لم تُمتّني. وأنصتُّ: كان العويلْ
يعبر السهلَ بيني وبين المدينه
مثل حبل يشدّ السفينه
وهي تهوي إلى القاع. كان النواح
مثلَ خيط من النور بين الصباح
والدجى، في سماء الشتاء الحزينهْ.
ثم تغفو، على ما تُحسُّ، المدينه.

* * *

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالْ،
حين تمتدُّ "جَيْكورُ" حتى حدودِ الخيال،
حين تخضرُّ عشباً يغنّي شذاها
والشموسَ التي أرضعتها سناها،

حين يخضرُّ حتى دجاها،

يلمس الدفءُ قلبي، فيجري دمي في ثراها.

قلبيَ الشمسُ إذْ تنبضُ الشمس نورا،

قلبيَ الأرض، تنبض قمحاً، وزهراً، وماءً نميرا،

قلبيَ الماءُ، قلبي هو السنبلُ

مَوته البعثُ: يَحيا بمن يأكلُ.

في العجين الذي يستدير

ويُدحى كنهدٍ صغيرٍ، كثَدي الحياه،

متُّ بالنار: أحرقت ظلماء طيني، فظلَّ الإله.

كنتُ بدءاً وفي البدء كان الفقيرْ.

متُّ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسمِ،

كم حياةٍ سأحيا: ففي كل حفره

صرتُ مستقبلاً، صرت بذرهْ،

صرتُ جيلاً من الناس: في كل قلبٍ دمي

قطرةٌ منه أو بعض قطره.

* * *

هكذا عدتُ، فاصفرَّ لما رآني يهوذا...

فقد كنت سِرَّهْ.

كانَ ظلاً، قد اسودَّ، منّي، وتمثال فكرهْ

جُمِّدتْ فيه واستُلّتِ الروحُ منها،

خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...

(عيناه صخره

راح فيها يُواري عن الناس قَبرَه)

خاف من دفئها، من محالٍ عليه، فخبَّر عنها.

- "أنتَ! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفضَّ نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى! هو الموتُ مرَّه.

هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا فهل كان زورا؟"

ذاك ما ظنَّ لما رآني، وقالته نظرهْ.

* * *

قدمٌ تعدو، قدمٌ، قدمُ

القبر يكاد بوقْع خطاها ينهدمُ.

أترى جاءوا؟ من غيرهُمُ؟

قدمٌ... قدمٌ.. قدمُ

ألقيتُ الصخر على صدري،

أوَ ما صلبوني أمسِ؟.. فها أنا في قبري.

فليأتوا – إني في قبري.

من يدري أني..؟ مَن يدري؟؟

ورفاق يهوذا؟! من سيصدِّق ما زعموا؟

قدَمٌ... قدمُ.

ها أنا الآن عريانُ في قبريَ المظلمِ:

كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ، كالبرْعم،

تحت أكفانيَ الثلجِ، يخضلُّ زهرُ الدمِ،

كنتُ كالظلِّ بين الدجى والنهارْ —

ثم فجَّرتُ نفسي كنوزاً فعرَّيتها كالثمار.

حين فصَّلْتُ جيبي قماطاً وكمّي دثار،

حين دفّأتُ يوماً بلحمي عظامَ الصغار،

حين عرَّيتُ جرحي، وضمّدتُ جرحاً سواه،

حُطِّمَ السورُ بيني وبين الإلهْ.

* * *

فاجأ الجندُ حتى جراحي ودقاتِ قلبي

فاجأوا كلَّ ما ليس موتاً وإن كان في مقبرهْ

فاجأوني كما فاجأ النخلةَ المثمرهْ

سربُ جَوْعى من الطير في قريةٍ مقفره.

* * *

أعينُ البندقيات يأكلْنَ دربي،

شُرَّعٌ تحلم النارُ فيها بصلبي،

إن تكن من حديدٍ ونارٍ، فأحداقُ شعبي

من ضياء السماوات، من ذكرياتٍ وحُبِّ
تحمل العبءَ عني فيندى صليبي، فما أصغرهْ
ذلك الموتُ، موتي، وما أكبرهْ!

* * *

بعد أن سمَّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينه
كدتُ لا أعرف السهلَ والسور والمقبره:
كان شيءٌ، مدى ما ترى العينُ،
كالغابة المزْهره،
كان، في كلِّ مرمى، صليبٌ وأمٌّ حزينه.
قُدِّس الربُّ!
هذا مخاضُ المدينه.

جوعانُ في القبر بلا غذاءْ
عُريان في الثلج بلا رداء
صرختُ في الشتاء:
أقِضّ يا مطرْ
مضاجعَ العظام والثلوج والهباءْ،
مضاجعَ الحَجَرْ،
وأنبتِ البذورَ، ولتفتّح الزّهرْ،
وأحرق البيادرَ العقيمَ بالبروقْ
وفجّر العروقْ
وأثقلِ الشجرْ.
وجئتَ يا مطرْ،
تفجَّرَتْ تنثــُك السماءُ والغيومْ
وشُقِّق الصخرَ،
وفاض؛ من هباتِك، الفراتُ واعتكرْ
وهبَّتِ القبورُ، هُزَّ موتَها وقامْ
وصاحتِ العظام:
تبارك الإلهُ، واهبُ الدَّمِ المطرْ.

فآه يا مطرْ!

نودُّ لو ننامُ من جديد،

نودُّ لو نموت من جديد،

فنومنا براعِمُ انتباه

ومَوتنا يخبّئ الحياه؛

نودُّ لو أعادنا الإله

إلى ضمير غيبه المُلبّد العميق؛

نودُّ لو سعى بنا الطريق

إلى الوراءِ، حيث بدْؤه البعيد.

مَنْ أيقظَ "العازرَ" من رقاده الطويلْ؟

ليعرف الصباحَ والأصيلْ

والصيفَ والشتاءْ،

لكي يجوع أو يُحسَّ جمرةَ الصدى،

ويحذرَ الردى،

ويحسب الدقائق الثّقال والسِّراعْ

ويمدح الرعاع

ويسفك الدماء!

من الذي أعادنا، أعاد ما نخاف؟

من الإلهُ في ربوعنا؟

تعيش نارُه على شموعنا

يعيش حقده على دموعنا

* * *

أهذا أدونيس، هذا الخواءْ؟

وهذا الشحوبُ، وهذا الجفافْ؟

أهذا أدونيس؟ أين الضياءْ؟

وأين القطافْ؟

مناجلُ لا تحصدُ،

أزاهرُ لا تَعقدُ،

مزارعُ سوداءُ من غير ماءْ!

أهذا انتظار السنين الطويله؟

أهذا صراخ الرجوله؟

أهذا أنينُ النساء؟

أدونيس! يا لانحدار البطوله.

لقد حطَّم الموتُ فيك الرجاءْ

وأقبلتَ بالنظرة الزائغه

وبالقبضة الفارغه:

بقبضةٍ تهدِّدُ

ومنجلٍ، لا يحصدُ

سوى العظام والدمِ.

اليومَ، والغدُ؟

متى سيولد؟

متى سنُولد؟

* * *

الموتُ في الشوارعِ،

والعقم في المزارعِ،

وكلُّ ما نحبّه يموتْ.

الماء قيَّدوه في البيوتْ

وألهثَ الجداولَ الجفافْ.

هُمُ التتارُ أقبلوا، ففي المدى رُعافْ،

وشمسنا دمٌ، وزادُنا دمٌ على الصِّحاف.

محمّدُ اليتيمُ أحرقوه فالمساءْ

يضيءُ من حريقه، وفارتِ الدماءْ

من قدميه، من يديه، من عيونهِ

وأُحرق الإله في جفونهِ.

محمَّد النبيُّ في "حِراءَ" قيَّدوه

فسُمِّر النهارُ حيث سمّروه.

غداً سيُصلب المسيحُ في العراقْ،

ستأكل الكلابُ من دم البراقْ[1]

* * *

يا أيها الربيع

يا أيها الربيعُ ما الذي دهاكْ؟

جئتَ بلا مطرْ

جئتَ بلا زَهَرْ،

[1] الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليلة معراجه.

جئتَ بلا ثمرْ،

وكان منتهاكَ مثل مبتداكْ

يلفُّه النجيع...

وأقبل الصيفُ علينا أسودَ الغيومْ

نهاره هموم،

وليله نسهر فيه نحسب النجوم؛

حتى إذا السنابلُ

نضجْنَ للحصادْ

وغنّت المناجلُ

وغطّت البيادرُ الوهادْ،

خُيِّل للجياعِ أنَّ ربَّة الزَّهرْ،

عُشتار، قد أعادت الأسير للبشر،

وكلَّلت جبينه الغضيرَ بالثمَر،

خُيِّل للجياع أنَّ كاهل المسيحْ

أزاح عن مدفنه الحجَر

فسار يبعث الحياةَ في الضَّريحْ

ويُبرئُ الأبرصَ أو يجدِّد البصر؟

من الذي أطلق من عقالها الذئاب؟

من الذي سقى من السَّراب؟

وخبّأ الوباءَ في المطرْ؟

ألموتُ في البيوت يُولَدُ،

يولد قابيلُ لكي ينتـــزعَ الحياه

من رَحِمِ الأرض ومن منابع المياه،

فيُظلم الغدُ

وتُجهض النساء في المجازرِ،

ويرقص اللهيبُ في البيادر،

ويهلك المسيحُ قبل العازرِ؛

دعوه يرقدُ،

دعوه فالمسيح ما دعاه!

ما تبتغون! لحمه المقَدَّدُ

يُباع في مدينة الخُطاه،

مدينةِ الحبال والدماء والخمور،

مدينة الرصاص والصخور!

أمس أزيح من مداها فارس النُّحاس،

أمس أزيح فارسُ الحجر،

فران في سمائها النعاسْ

ورنَّق الضجَر،

وجال في الدروب فارسٌ من البشرْ

يقتل النساء

ويصبغ المهودَ بالدماء

ويلعن القضاء والقدر!

* * *

كأن بابل القديمة المسوَّرةْ

تعود من جديدْ،

قبابها الطوالُ من حديدْ

يدق فيها جرسٌ كأنَّ مقبرةْ

تئن فيه والسماء ساحُ مجزره

جنانها المعلقات زرعُها الرؤوس

تجزُّها قواطعُ الفؤوس

وتنقر الغربان من عيونها،

وتغرب الشموس

وراء شعرها الخضيب في غصونها.

أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول

خُطَّ عليها: "عاشت الحياة"

من دم قتلاها، فلا إله

فيها، ولا ماءَ، ولا حقول؟

أهذه مدينتي؟ خناجر التتر

تغمد فوق بابها، وتلهث الفلاه

حول دروبها، ولا يزورها القمر؟

أهذه مدينتي أهذه الحُفرْ

وهذه العظامْ؟

يطلُّ من بيوتها الظلام

وتُصبغ الدماء بالقتام

لكي تضيع، لا يراها قاطع الأثر؟

أهذه مدينتي؟ جريحة القباب

فيها يهوذا أحمر الثيابْ

يسلِّط الكلاب

على مهود إخوتي الصغار... والبيوت،

تأكل من لحومهم. وفي القرى تموت

عشتار عطشى، ليس في جبينها زهَرْ،

وفي يديها سلَّةٌ ثمارُها حَجَرْ

تُرجَم كلُّ زوجة به. وللنخيلْ

في شطِّها عويل

أنشـــودة المطـــر

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ
وترقص الأضواء... كالأقمار في نَهَرْ
يرجُّه المجذاف وهْناً ساعة السَّحَر
كأنما تنبض في غوريْهما، النُّجومْ...
وتغرقان في ضبابٍ من أسىً شفيفْ
كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،
والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛
فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء
ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ
وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...
وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر

أنشودةُ المطر...

مطر...

مطر...

مطر...

تثاءب المساء، والغيومُ ما تزالْ

تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقالْ.

كأنَّ طفلاً بات يهذي قبل أن ينام:

بأنّ أمّه — التي أفاق منذ عامْ

فلم يجدْها، ثمّ حين لجّ في السؤال

قالوا له: "بعد غدٍ تعودْ..." —

لا بدَّ أن تعودْ

وإن تهامس الرفاق أنّها هناكْ

في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ

تسفّ من ترابها وتشرب المطر؛

كأن صياداً حزيناً يجمع الشِّباك

ويلعن المياه والقَدَر

وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ.

مطر...

مطر...

أتعلمين أيَّ حزْنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟
بلا انتهاء – كالدَّم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى – هو المطر!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحار،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ.
أصيح بالخليج: "يا خليجْ
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرّدى!"
فيرجعُ الصّدى
كأنّه النشيجْ:
"يا خليج
يا واهب المحار والردى.."
أكاد أسمع العراق يذْخرُ الرعودْ
ويخزن البروق في السّهول والجبالْ،
حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرّجالْ
لم تترك الرياح من ثمودْ
في الوادِ من أثرْ.
أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر
وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج، والرعود، منشدين:
"مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوعْ
وينثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشّوان والحجر
رحىً تدور في الحقول... حولها بشرْ
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموعْ
ثمّ اعتللنا – خوف أن نلامَ – بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أنْ كنّا صغاراً، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر،
وكلَّ عام – حين يعشب الثرى – نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ.

مطر...

مطر...

مطر...

في كل قطرة من المطر

حمراءَ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حَلْمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!

مطر...

مطر...

مطر...

سيُعشبُ العراق بالمطر..."

أصيح بالخليج: "يا خليج...

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!"

فيرجع الصدى

كأنَّه النشيج:

"يا خليج

يا واهب المحار والردى."

وينثر الخليج من هِباته الكثارْ،

على الرمال،: رغوه الأُجاجَ، والمحار

وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق

من المهاجرين ظلّ يشرب الردى

من لجّة الخليج والقرار،

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرَّحيقْ

من زهرة يربُّها الفرات بالنّدى.

وأسمع الصدى

يرنّ في الخليج

"مطر..

مطر...

مطر...

في كلّ قطرة من المطرْ

حمراء أو صفراء من أجنَّةِ الزَّهَرْ.

وكلّ دمعة من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد

أو حَلمةٌ توردّت على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة.."

ويهطل المطر...

سربروس في بابل

ليعوِ سَرْبوسُ[1] في الدروب
في بابلَ الحزينةِ المهدَّمهْ
ويملأ الفضاءَ زمزمهْ،
يمزّق الصّغار بالنيوب، يقضم العظامْ
ويشرب القلوبْ.
عيناه نَيزكان في الظلامْ
وشدقُه الرهيب موجتان من مُدى
تخبئ الردى.
أشداقه الرهيبة الثلاثةُ احتراقْ
يؤجُّ في العراقْ —
ليعوِ سَربوس في الدروب
وينبشِ التراب عن إ لهنا الدفين
تموزِنا الطعين،
يأكله: يمص عينيه إلى القرارْ،
يقصم صلبه القويَّ، يحطم الجرار
بين يديْهِ، ينثر الورود والشقيقْ.

[1] الكلب الذي يحرس مملكة الموت، في الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش "برسفون" آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت وقد صوره دانتي في "الكوميديا الإلهية" حارسا ومعذبا للأرواح الخاطئة.

أواه لو يُفيق
إلهنا الفتيُّ، لو يُبرعمُ الحقولْ،
لو ينثر البيادرَ النُّضارَ في السهول،
لو ينتضي الحُسام، لو يفجر الرعود والبروقَ والمَطرْ
ويطلق السيول من يديه. آه لو يؤوب!
لحافنا التراب، فوقه من القَمَرْ
دمٌ، ومن نهودِ نسوة العراق طينْ.
ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنين
نرى العراقَ، يسألُ الصغارُ في قراه:
"ما القمحُ؟ ما الثمرْ؟"
ما الماء؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البَشَرْ؟
فكلُّ ما نراه
دمٌ ينـــزُّ أو حبالٌ، فيه، أو حُفَرْ.
أكانت الحياه
أحبَّ أن تُعاشَ، والصغارُ آمنين؟
أكانت الحقولُ تُزهرُ؟
أكانت السماء تُمطر؟
أكانت النساء والرجال مؤمنينْ
بأنَّ في السماء قوّةً تدبِّرُ،
تُحسُّ، تسمع الشكاةَ، تُبصر،
ترقُّ، ترحم الضِّعافَ، تغفر الذنوبْ؟

أكانت القلوبْ

أرقَّ، والنفوسُ بالصفاء تقطرُ؟"

وأقبلتْ إلهة الحصادْ،

رفيقةُ الزهورِ والمياه والطيوبْ،

عُشتارُ ربَّةُ الشمال والجنوبْ،

تسير في السهول والوهادْ

تسير في الدروب

تلقط منها لحم تمُّوزَ إذا انتثرْ،

تلمُّه في سلَّةٍ كأنه الثمر.

لكنَّ سربروس بابل — الجحيم

يَخبُّ في الدروب خلفها ويركضُ،

يمزّق النعالَ في أقدامها، يعضعضُ

سيقانُها اللدْان، ينهش اليدين أو يمزّق الرداءْ،

يلوّث الوشاح بالدمِ القديم

ويمزج الدمَ الجديدَ بالعواءْ.

ليعوِ سربروسُ في الدروبْ

لينهش الإلهة الحزينةَ، الإلهة المروَّعه؛

فإنْ من دمائها ستُخصب الحبوبْ،

سينبت الإلهُ، فالشرائحُ الموزَّعه

تجمَّعتْ؟ تململتْ. سيُولَدُ الضياءْ

من رَحِمٍ ينـــزُّ بالدماء.

مدينــة بــلا مطـــر

مدينتُنا تؤرّق ليلَها نارٌ بلا لَهَبِ.

تُحمُّ دروبها والدُّور، ثم تزول حمّاها

ويصبغها الغروبُ بكلِّ ما حملته من سُحُبِ

فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبَّ موتاها:

"صحا من نومه الطينيِّ تحت عرائش العِنَبِ...

صحا تمّوزُ، عاد لبابلَ الخضراءِ يرعاها."

وتوشك أن تدقَّ طبولُ بابلَ، ثم يغشاها

صفيرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها.

وفي غرفات عُشْتارِ

تظل مجامر الفخّار خاوية بلا نارِ،

ويرتفع الدعاءُ، كأن كلَّ حناجر القَصَبِ

من المستنقعات تصيح:

"لاهثةً من التَعَبِ

تؤوب إلهةُ الدمِ، خُبزُ بابلَ، شمسُ آذارِ.

ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارِ

لنسألَ عن هداياها.

جياعٌ نحن... واأسفاه! فارغتان كفّاها،

وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب.
سحائبُ مُرْعداتٌ مُبرِقاتٌ دون إمطارِ
قَضَيْنا العامَ، بعد العام، بعد العام، نرعاها،
وريحٌ تشبه الإعصار، لا مرَّت كإعصارِ
ولا هدأتْ — ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها.
فيا أربابنا المتطلعين بغيْر ما رحمه،
عيونكُم الحجار نُحِسُّها تنداح في العتمه
لترجمنا بلا نقمه؛
تدور كأنهنَّ رحىً بطيئاتٌ تلوكُ جفونَنَا..
حتى ألِفْناها،
عيونكم الحجار كأنَّها لَبِناتُ أسوارِ
بأيدينا، بما لا تفعل الأيدي، بنيناها.
عذارانا حزانى ذاهلاتٌ حول عشْتارِ
يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محيَّاها،
وغُصناً بعد غصْن تذبل الكرمه.
بطيءٌ موْتنا المتْسلُّ بين النور والظلمه،
له الويلاتُ من أسد نكابد شَدقه الأدردْ!
أنارُ البرق في عينيه أم من شُعلة المعبد؟
أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار؟
أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود:

هنالك حيث يحمل كلَّ عامٍ، جُرحَه الناريّ،
جُرحَ العالم الدوّار، فاديهِ
ومنقذه الذي في كل عامٍ من هناك يعود بالأزهارِ
والأمطار — تجرحنا يداه لنستفيقَ على أياديهِ؟
ولكن مرّتِ الأعوام، كثراً ما حسبناها،
بلا مطرٍ... ولو قطرَه
ولا زهرٍ... ولو زهرةْ
بلا ثمرٍ — كأنّ نخيلَنا الجرداء أنصابٌ أقمناها
لنذبل تحتها ونموت.

سيّدنا جفانا. آهِ يا قَبْرَهْ

أما في قاعك الطينيِّ من جرّه؟
أما فيها بقايا من دماء الربّ، أو بذرهْ؟
حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها:
سرقنا من بيوت النمْل، من أجرانها، دخْناً وشوفاناً
وأوشاباً زرعناها
فوفَّينا — وما وفَّى لنا — نَذره!"
وسار صغار بابلَ يحملون سلال صبَّارِ
وفاكهةٍ من الفخّار، قرباناً لعشتار
ويشعل خاطفُ البرق،
بظلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار،
وجوهَهُم المدوَّرة الصغيرة وهي تستسقي.

فيوشك أن يفتّح – وهي تومِضُ – حقلُ نوَّارِ
ورفٌ – كأنّ ألف فراشةٍ نُثرتْ على الأفْقِ
نشيدُهم الصغيرُ:

"قبورُ إخْوتِنا تنادينا

وتبحثُ عنكِ أيدينا
لأنّ الخوفَ ملءُ قلوبنا، ورياحَ آذارِ
تهزُّ مهودنا فنخاف. والأصواتُ تدعونا.
جياعٌ نحن مرتجفون في الظُلمه
ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا، تغطّينا،
نشدُّ عيوننا المتلفّقات بزندها العاري.
ونبحث عنكِ في الظلماء، عن ثديَيْن، عن حَلْمَه
فيا من صدرُها الأفْق الكبير وثديُها الغيْمه
سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموت... فاسْقينا!
نموت، وأنتِ – واأسفاه – قاسيةٌ بلا رحمه.
فيا آباءنا، من يفتدينا؟ من سَيُحيينا؟
ومن سيموت: يُو لِمُ لحمَه فينا؟"
وأبرقت السماءُ كأنّ زنبقة من النارِ
تفتّح فوق بابل نفسَها. وأضاء وادينا،
وغلغلَ في قرارة أرضِنا وَهجٌ فعرّاها
بكلِّ بذورها وجذورها وبكلِّ موْتاها.
وسحٌّ – وراءَ ما رفعتْه بابلُ حول حُمَّاها

وحول ترابها الظمآن، من عَمَدٍ وأسوارِ

سحابٌ.. كان لولا هذه الأسوار روَّاها!

وفي أبَدٍ من الإصغاء بين الرعد والرعدِ

سمعنا، لا حفيفَ النّخل تحت العارض السحّاح

أو ما وشْوشتْه الريحُ حيث ابتلّت الأدواحْ،

ولكنْ خفقةَ الأقدام والأيدي

وكركرةً و "آهُ" صغيرةً قبضتْ بيُمناها

على قمَر يرفرفُ كالفراشةِ، أو على نجْمَه..

على هبةٍ من الغيْمه،

على رعشاتِ ماءٍ، قطرةٌ همستْ بها نسمَه

لنعلم أنّ بابلَ سوف تُغسَل من خطاياها!

بور سعيد

يا حاصدَ النار من أشلاء قتلانا ... منكَ الضحايا، وإن كانوا ضحايانا

كم من ردىً في حياة، وانخذالِ ردىً ... في ميتة، وانتصارٍ جاء خُذْلانا!

إنّ العيون التي طفّأتَ أنجُمَها ... عجّلْن بالشمس أن تختار دنيانا

وامتدّ، كالنور، في أعماق تُربتنا، ... غرْسٌ لنا من دمٍ، واخضلّ موتانا

فازّلْزَلي يا بقايا كاد أوَّلُنا ... يبقي عليها، من الأصنام، لولانا

نحن الذين اقتلعنا من أسافلِها ... لاةَ وعُزّى، وأعليْناهُ إنسانا

حُيّيتِ بورْتَ سعيدٍ، من مسيلِ دمٍ ... لولا افتداءٌ لما يُغليه، ما هانا

حُيّيتِ من قلعةٍ صمّاءَ ناطَحَها ... عادٍ من الوحش يُزجيهنّ قُطعانا

عاناكِ في اللّيل داجٍ من جحافلِها: ... نوراً من اللهِ أعماها ونيرانا

ما عاد ليلٌ قد استخفى بأقنعة ... من أوجُهِ الناس، لولا أنتِ، عرْيانا

ليلٌ تُعيذُ الكهوفُ السودُ آنيةً ... فيها وفكّاً لموتاها وصَوّانا

من بعضِ ما فيه من ظلماءَ، ما عُرفتْ ... باسمٍ لها، فهي قبلَ اسمٍ إذا كانا

حُيّيتِ من قلعةٍ ما آدَ كاهلَها ... عِبْءُ السماوات إلاّ خفّ إيمانا

أمسكتِها أن يميد الظالمون بها ... ديناً لنا وانتصاراتٍ وعُنوانا.

يا مرفأَ النور، ما أرجعتِ وادعة ... من غير زاد، ولا آويتِ قُرصانا

ولا تلفظتِ من مرساك معتدياً ... إلا مدمّى ذليلَ الهام خزْيانا

جمّعتِ من شطِّ صُورٍ لَمحَ أحرُفِها ... واخترتِ من بابلٍ واحتزْتِ مروانا

والنيلُ ساقَ العذارى من عرائِســـه ... للخصْب، في موكب الفادين، قُربانا!
فالويّل.. لو كان للعادين ما قَدَروا! ... لانْهدَّ من حاضرٍ مــاضٍ فأحزانــا
فلا ابتنى هرماً بــانٍ، ولا لبســتْ ... تيجانَها، في انتظار الــروحِ، موتانــا
ولا تفجَّر في "ذي قــارَ" فِتيَتُهــا ... ولا تنفّســـتِ الصـــحراءُ قُرآنــا!
حُيِّيتِ مــوتى، وأحيــاءً، وأبنيــةً ... مستشهداتٍ أو استعصــيْنَ أركانــا
والنار والباذرونَ النارَ كم زرعــوا ... من كلِّ ثكلــى لعزرائيــل بُســتانا!
من كلِّ وَجهٍ لطفــلٍ فيــه زنبقــةٌ ... تَدْمى، وتلتمُّ فيــه الــرِّيح غِرْبانــا
الجوِّ ممــا يلــزّون الحديــدَ بــه ... قاعُ الجحيم التظى وانصبَّ طوفانــا
سقّاكِ من كلِّ غيمٍ فيــه أحــرَزَهُ ... جوفُ الثرى واشتهتْه النــارُ أزمانــا
كأسَ الرَّصاص التي غنّى بتوأمهــا ... "سقراطُ" وابتلَّ منها جرحُ وهرانــا[1]

من أيِّما رئةٍ؟ من أي قيثارِ
تنهلُّ أشعاري؟
من غابةِ النارِ؟
أم من عويل الصبايا بين أحجار
منها تنــزُّ المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟
من أيِّ أحداق طفلٍ فيكِ تُغتصَبُ؟
من أيِّ خبزٍ وماءٍ فيك ما صلبوا؟
من أيِّما شُرْفةٍ؟ من أيِّما دارِ؟
تنهلُّ أشعاري
كالثارِ؟

---

[1] أجبر الفيلسوف الأغريقي سقراط على تجرع كأس من السم.

كالنور في رايات ثوّار؟

من مائلكِ السهران أوتاري؟

أم بُرجكِ الهاري

يبكي دماً من جرح بحّار؟

أطفالكِ الموتى، على المرفأِ

يكون في الريح الشماليَّةْ،

والنور من مصباحه المطفأِ

قد غار كالمديهْ

في صدريَ العاري.

أطفالك الأموات عارُ الحديدْ

في عرسه الدامي، وذلُّ الرصاصْ،

مالوا بملك من شقاء العبيد

واستنـــزلوا أربابه للقصاص

في ساحة النارِ.

يكون في الريح الشماليه

أسرى، على السُّفْن الصليبيه،

والريح كالمديه

تجتثُّ أظفاري.

يكون.. في داري.

بالقشِّ والطين سدّوا كوَّةَ القَمَرِ،

والريحُ في الشجر
قد كمَّموا فاها،
كي لا تصيح: اخبئوا عن أعيُن الغَجَرِ
أطفالكم، فهي ما ترتدُّ إحداها
إلا وحال الذي تلقى، إلى حَجَرِ"
الريحُ قيثاري
قد كمَّموا فاها

هاويكِ أعلى من الطاغوت فانتصبي
حُيِّيتِ من قلعة شقَّ الفضاءَ بها
الطين فيها دمٌ منه، وجندلُها
أنتِ السماواتُ والأرض، التي خُلِقت
والصخر فيكِ استمدَّ الروحَ إذ لمستْ
في كلِّ أنقاض دار، من صفاه يدٌ
ما الهدُّ إلا وأعلى في ضمائرنا
والماء، حتى زلالُ الماءِ، فيكِ مُدىً
ما بلَّ للجحفل المأجور غُلّته
أملى على كلِّ شيء فيكِ جوهَرَه
إن الحديدَ الذي صُنتِ الحياةَ به
والخير في بُندقياتٍ قذائفها
لكنه الشرُّ في خبزٍ حقائبُه

ما ذلَّ غيرُ الصفا - للنار - والخشبِ
أُسٌّ لها في صدور الفتيةِ العربِ
من عزمة، والحديد الصَّلْدُ من غضب
في عشرةٍ تحسب الأيام بالحُقُب
عُقْمَ الجمادات فيه إصبَعُ اللَّهب
جبّارةٌ تصفع العادين كالشهب
سدّاً من الثار أعيا حيلة النُّوَب.
من فضَّة الله توهي جحفل الذهب
حتى جبى قِدْرَ ماءٍ من دمٍ سرب!
حلْفٌ لجيشين: ذي قُربى وذي أرَب
غيرُ الحديد الذي وافاكِ بالعطب
حتفُ المغيرين، والميلادُ في قُضُب
عونٌ لأعدائكِ الجوعى، وفي قِرَب!

ليت المسيحَ الذي داجى بشِرْعته   من باعَ مثواه، راءٍ فيك عن كثب:

خرسٌ نواقيسكِ الثكلى، ودامية   فيكِ الأناجيلُ، والموتى بلا صُلُب

والحابس الماءَ من جرحاكِ حمَّلها   عبءَ الصليبين: من حُمَّى ومن خشب

واستنطق الأمَّ ثكلى: أين جيرتها   من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللَّجب؟

فالتمَّ في مقلتيها، وهي تنظره،   كلُّ المخاضات والتسهيد والنَّصَب

كأنما استودعتها كلُّ والدةٍ   آجالَ كلِّ الذراري طيلة الحقبِ

فاختارت الموت معلوكاً مراضعُها،   معروكةً في رحىً تترى من الرُّكَبِ

تفدي بما يستبيح الجندُ من دمها   والنار، أعراضَ كلِّ الخرَّدِ العُرُبِ.

أبناءُ "جنكيز" في روحٍ، وإن بعدوا   في نسبةٍ: ربَّ قُربى دون مُنْتَسَب

شرُّ اللصوص، إذا عفَّ التتارُ.. فما   عفّوا عن الرِّيش والأسمال واللُّعبِ!

فلتنفخ الصُّورَ في أفريقيا أُمَمٌ   بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتبِ

ولتُسمِعنَّ الزنوج البيض صيحتها: "إنا إلى الله أدنى منكِ في نسب"!

حُيِّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبهُ؛   يا غابة النار قد أثمرْتِ بالغَلَبِ!

من أيِّ عبءٍ على روحي ومسمارِ

من أعينٍ، في صليب تحت أسواري،

تأتيكِ أشعاري؟

حمراءَ خضراءَ من جُرحٍ ومن غارِ،

خضراءَ من راية، حمراءَ من نار،

خضراءَ كالماء في فردوسكِ الجاري؟

يا ليت أوتاري

خضراءُ حمراءُ من قلبي ومن ثاري!

يا ليتَ أبوابَ قلبي منكِ تلتهبُ!

يا ليتها دون قُفْلٍ، ليتها خشَبُ!

أو خرّبَ الجندُ قلبي، فهي تنتحبُ

في كلِّ إعصار!

سودٌ، كما اسودّت الأموات، أنهاري

فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري،

والريحُ في داري

سوداءُ ما رفّ منها باللّظى عَصَبُ.

لا تسألي بعدُ عنها: إنما عشُب

أعواده السود غذّى عجلَه الذهبُ

منها، فخبّأتُ في عينيّ قيثاري!

كوني لأشعاري

وحياً، وشدّي ببأسٍ منك أوتاري.

يا مرفأ النور، كن مرسىً لأفكاري!

يا مرفأ النار

الهبتَ أغواري

بالثارِ

مزّقت عنها سودَ أستارِ

فانهلّتِ الشمسُ على داري.

كم من دفين، كلّ ماء القنالْ
في مدّه العاتي وفي جزرهِ،
يلقي على صدرهِ
عبئاً من الظلماء — كان القتال
من أجل أن يرتاحَ في قبرهِ!
ما كان إلاّ من دموع الرجَال
والنسوة الباكين في قعره،
هذا الذي بين العُبابيّنِ سال!
كالليل هذا الماءُ فوق القبورْ
كالنار، كالإعصار، كالداء:
تختضُّ في ليل الخليج الصدور،
والشمسُ تحسو كلّ ماءِ الصدور
في عالم لم تمشِ فيه العصور —
من ملتقى للماء بالماء!
كالليل هذا الماء، ندُّ الحياه:
الموْت والميلاد بوّابتاه.
في قاعهِ الموتى قد استبدلوا
بالنبض، ما يُرغي به المرجلُ
في موقرات، من سفين الغزاه،
بالموتِ مما يصنع المعملُ.
حتى إذا ما رشَّ عارَ العُتاه

بالدمعِ من عينيه، والنارِ
من قلبه المورق بالغارِ،
إنسانُكِ العملاق ظِلُّ الإله،
ظِلُّ الملايين التي مقلتاه
عنها ترى ما في خيال تراه،
هذا الذي أعصابُها في قِواه —
أحيا دمَ الموتى، فخرَّ الطغاه!
فليحرسِ الأحياء باب الحياه!

غاضَ المغيرونَ عن واديكِ وانحسروا ... فالأرضُ تـدمى بقتلاهـا وتزدهـرُ
وازداركِ الموتُ لا مُلْسـاً ملامحـه ... بيضاً، كما تملك الأنعـام والشـجَر
حاشاكِ! فالموتُ توري فيكِ حدّتَهُ ... طعْمَ الدم الحيِّ، ما يرقى به البشـر
أخفاهُ عنك التزامٌ واشـتباكُ يـدٍ ... في مثلها، فهو حيثُ اجتازهُ البصـر
حتى إذا ارتدَّ واستبشعتِ صـورتَهُ ... أدركتِ أيَّ انتصارٍ ذلـك الظّفـرُ!
أدركتِ أنَّ الضـحايا ردّ كاثرَهـا ... فيكِ الأقلُّ المضَـحِّي أنّهـا كُثُـر
من سدّدَ النارَ في أيديكِ، يُوردهـا ... كيْدَ المغيرينَ منـه الظـنُّ والنظـر؟
واحتاز في قلبه الأحقابَ، يزرعهـا ... في جانبٍ منه، واستبسـالك الثمـر
واستنفر الشرق حتى كـاد ميِّتـه ... يسعى؟ أهذا صلاحُ الدين أم عمَـر؟
هذا الذي حـدثتنا عنـه أنفسـنا ... في كـلِّ دهيـاءَ نبلوهـا وننتظـر
هذا الذي كلٌّ، عن سحقٍ لبذرتـه ... بالخيل والـذابلات، الـرومُ والتتـر
يا أمّةً تصنع الأقـدارَ مـن دمهـا ... لا تيأسي. إنّ "سيف الدولة" القـدر

أعلى لكل انتصارٍ فيــك جذّتــهُ فاخضل واخضلت الآياتَ والسّــورَ

في مســـجدٍ أمَّ مشّـــاءٌ بأمّتـــه فيه المصلّين! حــتى كبَّــرَ الحجــر!

واستشرفَ الساحَ ناءٍ عنه يحملــه ما بين جنبيْــه، رامٍ فيــه منْتصــر:

عينٌ لســـيناءَ ترقـــى كـــلَّ رابيـــةٍ فيها، وعـــينٌ وراء النيـــل تنحـــدر

أو تنفِضُ الأفقَ، حتى ضاءَ من لهبٍ حملاقها، فهـــي ممّـــا راءَ تســـتعرِ!

جاؤوك! جاء الصليبيون، قاصـــفةً تنقضُّ في إثْر أُخرى، فاللظى مطـــر

في كلِّ فانوس موتى من قـــذائفها نورٌ له اختضّت الأبعـــادُ والعُصُـــر

فالشرق عارٍ مدى عينيْه، منبســـطٌ كالراحة: الدور، والأكواخ والحُفـــر

يكاد يبصر مـــا أبقـــاه مكتـــدَحٌ في جبهةٍ، واغتذى من مقلـــةٍ سَـــهرُ

إيماضةَ الـــبرق: إلا أنهـــا حقـــبٌ تُطوى، ومســـتقبل يُـــبْنى ويـــدّخر!

المجـــد لله والإنســـان: أن يـــداً تحيي وقلباً يـــداوي، منـــهما أثـــر!

يا قلعة النور تـــدمى كـــلُّ نافـــذةٍ فيها، وتلظى، ولا تستسلم، الحُجَـــر

أحسَسْتُ بالذُّلّ أن يلقاكِ دونَ دمي شعري، وأني بما ضـــحّيتِ أنتصـــر

لكنّها باقـــةٌ أســـعى إليـــكِ بهـــا حمراءُ يخضلُّ فيها من دمـــي زهَـــر!

الليل يُطبق مرّة أخرى، فتشربه المدينه
والعابرون، إلى القرارة ... مثل أغنيةٍ حزينه.
وتفتحت، كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق،
كعيون "ميدوزا"[1]، تحجِّر كل قلب بالضغينه،
وكأنها نذرٌ تبشِّر أهل "بابل" بالحريق
من أي غابٍ جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف
من أي وجر للذئاب؟
من أي عشٍّ في المقابر دفَّ أسفع كالغراب؟
"قابيل"[2] أخفِ دم الجريمة بالأزاهر والشفوف
وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء
ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء
عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي المدينه،
والليل زاد لها عماها.
والعابرون:
الأضلع المتقوّسات على المخاوف والظنون،
والأعين التعبى تفتش عن خيال في سواها

[1] في الأساطير اليونانية أن عيون ميدوزا تحول كل من تلتقي بهما عيناه إلى حجر.
[2] في القرآن الكريم أن الغراب هو الذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله.

وتعدّ آنية تلألأ في حوانيت الخمور:

موتى تخاف من النشور

قالوا سنهرب، ثم لاذوا بالقبور من القبور!

أحفاد "أوديب"[1] الضرير وورثوه المبصرون.

(جوكست) أرملةٌ كأمسٍ، وباب "طيبةَ" ما يزال

يُلقي "أبو الهول" الرهيب عليه، من رعبٍ ظلال

والموت يلهث في سؤال

باقٍ كما كان السؤال، ومات معناه القديم

من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه.

وما الجواب؟

"أنا" قال بعض العابرين...

وانسلّت الأضواء من بـــاب تثـــاءب كـــالجحيم

تطفو علـــيهن البغايـــا كالفراشـــات العطـــاش

يبحثن في النيران عن قطرات ماء... عن رشـــاش.

لا تـــنقلنَّ خطـــاك فـــالمبغى "علائـــي"[2] الأديم:

أبناؤك الصرعى تراب تحـــت نعلـــك مســـتباح،

يتضـــــــــــاحكون ويعولـــــــــــون.

---

[1] تزوج "أوديب" امه "جوكست" وهو لا يدري بأنها أمه. وطيبة هي المدينة التي دخلها بعد أن قتل أبـــاه ملك طيبة، فتزوج أمه، زوجة الملك القتيل. وكان "أبو الهول" يحرس مدخل المدينة ويلقي على كـــل غريب يداخلها سؤالا: "ما الكائن الذي يمشي على أربع في الفجر واثنتين في الظهيرة وثـــلاث فـــي المساء" وقد حل أوديب هذا اللغز وكان الجواب. "الإنسان".

[2] نسبة إلى أبي العلاء المعري، الأعمى والقائل "ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد" و "هذا جناه أبي عليَّ...".

أو يهمسون بما جناه أب يبرّؤه الصباح
مما جناه، ويتبعون صدى خطاك إلى السكون

الحارس المكدود يعبر، والبغايا متعبات،
النوم في أحداقهن يرفّ كالطير السجين،
وعلى الشفاه أو الجبين
تترنّح البسمات والأصباغ ثكلى، باكيات،
متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقهات،
وكأن عاريةَ الصدور
أوصال جنديٍّ قتيل كلّلوها بالزهور،
وكأنها درج إلى الشهوات، تزحمه الثغور
حتى يهدَّم أو يكاد. سوى بقايا من صخور.

جيفٌ تستَّرُ بالطلاء، يكاد ينكر من رآها
أن الطفولة فجّرتها، ذات يومٍ، بالضياء
كالجدول الثرثار — أو أن الصباح رأى خطاها
في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء،
ويكاد ينكر أن شقّاً لاح من خلل الطلاء
قد كان — حتى قبل أعوامٍ من الدم والخطيئهْ —
ثغراً يكركر، أو يثرثر بالأقاصيص البريئه
لأبٍ يعود بما استطاع من الهدايا في المساء:

لأب يقبّل وجه طفلته النديَّ أو الجبينْ
أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء.
ما كان يعلم أن ألف فمٍ كبئرٍ دون ماءْ
ستمصُّ من ذاك المحيا كلَّ ماء للحياء
حتى يجفّ على العظام – وأن عاراً كالوباء
يصِمُ الجباه فليس تُغسل منه إلا بالدماء
سيحلّ من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين –
والساعدين الأبيضين، كما تنوِّرُ في السهولْ
تفاحةٌ عذراءُ، سوف يطوِّقان، مع السنين
كالحيتين، خصور آلاف الرجال المتعبين
الخارجين، خروج آدمَ، من نعيم في الحقول
تفاحُه الدمُ والرغيف وجرعتان من الكحول
والحية الرقطاء ظلّ من سياط الظالمين
يا أنتَ، يا أحد السكارى،
يا من يريد من البغايا ما يريد من العذارى
(ما ظلّ يحلم، منذ كان، به ويزرع في الصحارى
زبد الشواطئ والمحارا
مترقباً ميلاد "أفروديت"[1] ليلاً أو نهارا)
أتريد من هذا الحطام الآدميّ المستباحْ
دفءَ الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح

---

[1] في أساطير الإغريق أن "أفروديت" ولدت من زبد البحر ونزلت محمولة على صدفة محار.

ودواءَ ما تلقاه من سأمٍ وذلٍّ واكتداح

المال، شيطان المدينه

لم يحظَ، من هذا الرهان، بغير أجساد مهينةْ

"فاوست"[1] في أعماقهن يعيد أغنية حزينةْ

المال، شيطان المدينه، ربُّ "فاوستَ" الجديد

جارت على الأثمان وفرة ما لديه من العبيد،

الخبز والأسمال حظُّ عبيده المتذللين

مما يوزع من عطايا — لا اللآلئ والشباب،

والمومس العجفاء — لا "هيلين"[2]، والظمأ اللعين

لا حكمة الفرح المجنَّح والخطيئة والعذاب

الخيل من سأمٍ تحمحم وهي تضرب بالحوافر[3]

حجر الطريق.

هلمَّ: فالحوذي يبحث عن مسافرْ

والريح صرٌّ، والبغيُّ بلا زبائنَ منذُ حين.

إن لم تضاجعها وصدَّ سواك عنها معرضينَ

فكيف تحيا، وهي، مثلك لا تعيش بلا طعام؟

لا تخشَ منها أن تُراعَ بما تأكَّله الجذام

---

[1] تراهن الله والشيطان على فاوست، وزعم الشيطان أنه يستطيع شراءه روحا وجسدا... وقبل فاوست بأن يبيع نفسه فوضع الشيطان نفسه في خدمته لقاء ذلك. فرد عليه الشباب ووهبه اللآلئ والمال وأراه شبح هيلين الإغريقية.

[2] وفي النهاية لم يحصل الشيطان إلا على جسد فاوست، بينما صعدت روحه إلى السماء.

[3] البيت من "فاوست" لغوته، يقوله الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت "التي غرر بها وقتل أخاها وولدت طفلا فقتلته" وهي في سجنها.

من صدرك النخر العريض. وأنت ويحك يا أخاها
ماذا تريد، وعمَّ تبحث في الوجوه؟ ويـا أباهـا
اطعن بخنجرك الهـواء.. فأنتمـا لـن تقتلاهـا.
هي لن تموتْ:
سيظل غاصـبها يطاردهـا وتلفظهـا البيـوت
ستظلّ — ما دامت سهام التبر تصفر في الهـواء —
تعدو، ويتبعها "أبولو"[1] من جديـد كالقضـاء،
وتظلّ تهمـس، إذ تكـاد يـداه أن تتلقّفاهـا:
"أبتي... أغثني" بيد أنك لا تصـيخ إلى النـداء،
لو كنت من عرق الجبين ترشّـها ومـن الـدماء
وتخيلـها امـرأة بحـقٍّ، لا متاعـاً للشـراء
كلّلتَ منها، بالفخـار وبـالبطولات، الجباهـا!

وكأن ألحاظ البغايا.
إبرٌ تُسَلُّ بها خيـوط مـن وشـائعَ في الحنايـا
وتظل تنسج، بينـهن وبـين حشـد العـابرين،
شيئاً كبيت العنكبوت يخضّـه الحقـد الـدفين:
حقدٌ سيعصف بالرجالْ

[1] كانت "دفني" ابنة إله صغير، إله أحد الأنهار وقد رآها "أبولو" إله الشمس الجبار فأحبهـا وطاردهـا محاولاً اغتصابها. وقد استنجدت بأبيها فرشّها بحفنة من الماء وأحالها إلى شجرة غار تضفـر مـن أغصانها الأكاليل للأبطال. أما سهام التبر، الذهب، فهي السهام التي كان كيوبيد يرشق بها قلب أبولو ليلهب الحب فيه وقد استعرناها رمزاً لسطوة المال.

والأخريات، النائمات هناك في كنف الرجال
والساهرات على المهود وفي بيوت الأقربين
حول الصلاء بلا اطّراحٍ للثياب ولا اغتسال
في الزمهرير، ودون عدٍّ لليالي والسنين!
ويمرُّ عملاقٌ يبيع الطير، معطفه الطويلْ
حيران تصطفق الرياح بجانبيه، وقبضتاه
تتراوحان: فللرداء يدٌ وللعبء الثقيلِ
يدٌ، وأعناق الطيور مرنحات من خطاه
تدمى كأثداء العجائز يوم قطّعها الغزاه.
خطواته العجلى، وصرخته الطويلة: "يا طيورْ
هذي الطيور، فمن يقول تعال..."
أفزعها صداه
يأتيه في غُرَف البغايا كاللهاث من الصدور.
ويدٌ تشير إليه عن كثب، وقائلة تعال!
بين التضاحك والسعال:
عمياء تطفئ مقلتاها شهوة الدم في الرجال
وتحسّسته كأن باصرةً تمر ولا تدور
في الراحتين وفي الأنامل وهي تعثر بالطيور،
وتوسلته: "فدى لعينك – خلّني. بيدي أراها".
ويكاد يهتك ما يغلّف ناظريها من عماها
قلبٌ تحرّق في المحاجر واشرأبَّ يريد نور!

وتمسّ أجنحةً مرقّطةً فتنشرها يداها،
وتظل تذكر – وهي تمسحهن – أجنحة سواها
كانت تراها وهي تخفق ... ملء عينيها تراها:
سربٌ من البطّ المهاجر، يستحثُّ إلى الجنوب
أعناقه الجذلى.. تكاد تزيد من صمت الغروب
صيحاتُه المتقطعات، وتضمحلُّ على السهوب
بين الضباب، ويهمس البرديّ بالرجع الكئيب.
ويرج وشوشة السكونْ
طلْقٌ.. فيصمت كل شيء.. ثم يلغط في جنون.
هي بطّة فلمَ انتفضتِ؟ وما عساها أن تكون؟
ولعل صائدها أبوكِ، فإن يكنْ فستشبعون.
وتخفّ راكضةً حيال النهر كي تلقى أباها:
هو خلف ذاك التل يحصد. سوف يغضب إن رآها.
مرَّ النهار و لم تُعنْهُ... وليس من عونٍ سواها
وتظل ترقى التل وهي تكاد تكفر من أساها.

... ...

يا ذكرياتُ علامَ جئتِ على العمى وعلى السهاد؟
لا تمهليها، فالعذاب بأن تمرّي في اتئاد.
قصّي عليها كيف مات وقد تضرَّج بالدماء
هو والسنابل والمساء –
وعيون فلاحين ترتجف المذلّة في كواها

والغمغمات: "رآه يسرق.."، واختلاجات الشفاه

يخزين ميّتها، فتصرخ: "يا إلهـي، يـا إلهـي...

لو أن غير "الشيخ"!، وانكفأت تشدّ على القتيـل

شفتين تنتقمـان منـه أسـى وحبـاً والتياعـا

وكأن وسوسة السـنابل والجـداول والنخيـل

أصداء موتى يهمسون: "رآه يسرق" في الحقـول

حيث البيادر تفصد المـوتى فتـزداد اتسـاعا!

... ...

وتحسُّ بالدم وهو ينـزف من مكـانٍ في عماهـا

كالماء من خشب السفينة، والصديد من القبـور،

وبأدمعٍ من مقلتيها كالنمـال علـى الصـخور

أو مثل حبـات الرمـال مبعثـرات في عماهـا

يهـوين منـه إلى قـرارة قلبـها آهـاً فآهـا.

ومَن الملوم وتلك أقدارٌ كُـتبن علـى الجـبين؟

حتمٌ عليها أن تعيش بعرضـها، وعلـى سـواها

من هـؤلاء البائسـات. وشـاء رب العـالمين

ألا يكون سوى أبيهـا – بـين آلافٍ – أباهـا

وقضى عليه بأن يجوع

والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساءْ

وبأن يلصّ فيقتلـوه... (وتشـرئب إلى السـماء

كالمستغيثة، وهي تبكي في الظلام بـلا دمـوع)

والله – عزّ الله – شاء
أن تقذف المدنُ البعيدة والبحار إلى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستجيبوا، في زقاق
دون الأزقة أجمعين
ودون آلاف الصبايا، بنت بائعة الرقاق:
تلك الشقيّةَ، ياسمينْ.
(ذاك اسم جارتها الجديد، فليتها كانت تراها
هل تستحق اسماً كهذا: ياسمين وياسمين؟)
ومن الذي جعل النساءْ
دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟
الله – عزّ وجلّ – شاء
ألا يكنّ سوى بغايا أو حواضنَ أو إماء
أو خادماتٍ يستبيح عفافَهن المترفونْ
أو سائلاتٍ يشتهيهن الرجال المحسنون!!
لو لم تكن أنثى! – وتسمع قهقهاتٍ من بعيد:
"عباس" عاد من الترصُّد بالرجال على الوصيد
ولسوف تنزح راحتاه غُسالة الضيف الجديد.
لو لم تكن أنثى... وتسمع قهقهاتٍ من بعيد.
يا ليت حمّالاً تزوجها يعودُ مع المساء
بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين.
لكن بائسة سواها حدثتها منذ حين

عن بيتها وعن ابنتيها، وهـــي تشـــهق بالبكـــاء:
عن زوجها الشرطيّ يحمله الغـــروب، إلى البغايـــا
كالغيمـــة الســـوداء تُنـــذر بالمجاعـــة والرزايـــا،
أزراره المتألّقـــات علـــى مغـــالق كـــل بـــاب
مُقَلُ الذئاب الجائعات ترود غابـــاً بعـــد غـــاب
وخطاه مطرقة تسمّر، في الظلام، علـــى البغايـــا
أبوابهنّ إلى الصـــباح — فـــلا انّهـــارٌ بالخطايـــا
إلا لعاهرةٍ تُحاز بـــأن تكـــون مـــن البغايـــا...
ويظلّ يخفرهن مـــن شـــبعٍ، وينثـــر في الريـــاح
أغنيَّـــةً تصـــف الســـنابل والأزاهـــر والصـــبايا،
وتظل تنتظر الصـــباح وســـاعديه مـــع الصـــباح
تصغي — وتحتضن ابنتيها في الظلام — إلى النبـــاح
وإلى الرياح تـــئن كـــالموتى وتعـــول كالســـبايا
وتُجمّع الأشباح من حفر الخرائـــب والكهـــوف
ومن المقابر والصحارى بالمئـــات وبـــالألوف...
فتَقِفُّ من فـــزعٍ وتحجـــب مقلتيهـــا بالغطـــاء،
ويعود والغبش الحـــزين يـــرشُّ بالطـــلّ المضـــاء
سعفَ النخيل... يعود من سهرٍ يئن ومـــن عيـــاءِ
- كالغيمة اعتصرت قواها في القفـــار، وترتجيهـــا
عَبرَ التلال قوىً تجوع — لكي ينـــام إلى المســـاء:
عيشٌ أشـــقُّ مـــن المنيّـــة، وانتصـــار كالفنـــاء

وطوى يعبّ من الدماء وسُمٌّ أفعـــى في الـــدماء
وعيون زانٍ يشـــتهيها، كـــالجحيم يشـــعّ فيهـــا
سخرٌ وشوق واحتقـــار، لاحقتـــها كالوبـــاء...
والمال يهمـــس أشـــتريك وأشـــتريك فيشـــتريها

... ...

... ...

يا ليتها، إذنِ انتهى أجلٌ بهـــا فطـــوى أســـاها!
"لو أستطيع قتلتُ نفسي.." همسةٌ خنقت صـــداها
أخرى توسوس: "والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟
وإذا اكفهرَّ وضاق لحدك، ثم ضـــاق، إلى القـــرارِ
حتى تفجّر من أصابعك الحليـــب رشـــاش نـــارِ
وتساءل المَلَكان: فيمَ قتلتِ نفسـك يـــا أثيمـــه؟
وتخطّفاك إلى السـعير تكفّـــرين عـــن الجريمـــه.
أفتصرخين: أبي! فيـــنفض راحتيـــه مـــن الغبـــارِ
ويخف نحوك وهو يهتف: قد أتيتك يا ســـليمه؟"
حتى اسمُها فقدتـــه واســـتترت بـــآخر مســـتعارِ
هـــي - منـــذ أن عميَـــت - "صـــباحُ" ...
فأيُّ ســـخريةٍ مريـــره!
أين الصباح من الظلام تعـــيش فيـــه بـــلا نهـــار
وبلا كواكبَ أو شموعٍ أو كوى وبـــدون نـــار؟
أوَ بعد ذلك تـــرهبين لقـــاء ربّـــك أو ســـعيرهْ؟

القبر أهون من دجاك دجىً وأرفق، يا ضريره
يا مستباحةُ كالفريسة في عراءٍ، يا أسيره
تتلفّتين إلى الدروب ولا سبيل إلى الفرارِ؟

... ...

وتحسّ بالأسف الكظيم لنفسها: لِمَ تُستباح؟
ألهر نام على الأريكة قربها ... لِمَ تستباح؟
شبعان أغفى، وهي جائعة تلمُّ من الرياح
أصداء قهقهة السكارى في الأزقة، والنباح
وتعدّ وقع خطى هنا وهناك: ها هو ذا زبون
هو ذا يجيء – وتشرئبُّ، وكاد يُلمس.. ثم راح
وتدقّ في أحد المنازل ساعة.. لِمَ تستباح؟
الوقت آذن بانتهاءٍ والزبائن يرحلون.
لِمَ تستباح وتستباح على الطوى؟ لِمَ تستباح؟
كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصباح؟
الجوع ينخر في حشاها، والسكارى يرحلون،
مروا عليها في المساء وفي العشية ينسجون
حلماً لها هي والمنون:
عصبات مهجتها سَداه وكل عرق في العيون،
والآن عادوا ينقضون –
خيطاً فخيطاً من قرارة قلبها ومن الجراح –
ما ليس بالحلم الذي نسجوه، ما لا يدركون...

شيئاً هو الحلم الذي نسجوا وما لا يعرفون،
هو منه أكثرُ: كالحفيفِ من الخمائل والرياح،
والشعرِ من وزن وقافية ومعنى، والصباح -
من شمسه الوضّاء... وانصرفوا سكارى يضحكون!
فلْيرحلوا. ستعيش، فهي من السعال ومن عماها
أقوى، ومن صخب السكارى.

فامضِ عنها يا أساها!

ستجوع عاماً أو يزيد، ولا تموت، ففي حشاها
حقدٌ يؤرِّث من قواها.

ستعيش للثأر الرهيب

والداء في دمها وفي فمها. ستنفث من رداها
في كل عرق من عروق رجالها شبحاً من الدم واللهيب،
شبحاً تخطّفَ مقلتيها أمسِ، من رجلٍ أتاها
ستردُّه هي للرجال، بأنهم قتلوا أباها
وتلقّفوها يعبثون بها وما رحموا صباها،
لم يبتغوها للزواج لأنها امرأة فقيره،
واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريره،
وتهامس المتفولكون فثار أبناء العشيره
متعطشين - على المفارق والدروب - إلى دماها.
وكأن موجة حقدها ورؤى أساها.
كانت تقرّب من بصيرة قلبها صوراً علاها

صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة مــن عماهـــا:
كل الرجال؟ وأهــل قريتـــها؟ أليســـوا طيـــبين؟
كانوا جياعاً – مثلها هي أو أبيهـــا – بائســـين،
هم مثلها – وهم الرجال – ومثل آلاف البغايـــا
بالخبز والأطمار يُــؤتَجَرون، والجســـدُ المهـــين
هو كل ما يتملّكون، هم الخطـــاة بــلا خطايـــا
وهم الســـكارى بالشـــرور كهـــؤلاء العـــابرينَ
من السكارى، بالخمور.. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور
الشاربين – كمن تضاجع نفسها – ثمن العشـــاء
الدافنين خـــروق باليـــة الجـــوارب في الحـــذاء،
يتساومون مع البغايا في العشـــيّ علـــى الأجـــور
ليوفّروا ثمن الفطور!
ليس الـــذين تغصّـــبوها مـــن ســـلالة هـــؤلاء:
كانوا كآلهـــة مقطّبـــة الجبـــاه مـــن الصـــخور
تمتصُّ من فزع الضحايا زهوهـــا ومـــن الـــدماء
متطلعين إلى البرايـــا كالصـــواعق مـــن عـــلاء!
وتحسّ، في دمها، كآبـــة كـــلِّ أمطـــار الشـــتاء
من خفْق أقدام السكارى، كالأســـير وراء ســـور
يصغي إلى قرع الطبول يموت في الشفق المضـــاء.
هي والبغايا خلف سورٍ، والسكارى خلف سور،
يبحثن هنَّ عن الرجال، ويبحثون عـــن النســـاء،

دميتْ أصابعهن: تحفر والحجارة لا تلين،
والسور يمضغهن ثم يقيئهن ركامَ طين:
نصباً يخلّد عار آدم واندحار الأنبياء،
وطلول مقبرةٍ تضم رفات "هابيل" الجنين!
سورٌ كهذا، حدّثوها عنه في قصص الطفوله:
"يأجوج"[1] يغرز فيه، من حنق، أظافره الطويله
ويعضّ جندله الأصمَّ، وكفُّ "مأجوج" الثقيله
تهوي، كأعنف ما تكون، على جلامده الضخام،
والسور باقٍ لا يُثَلُّ.. وسوف يبقى ألف عام،
لكنّ (إن - شاء - الإله)
- طفلاً كذلك سمّياه -
سيهبُّ ذات ضحىً ويقلع ذلك السور الكبير.
...ألطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه
من قبل يأجوج البرايا. توأمٌ هو للسعير!
لصَّ الحجارةَ من منازلَ في السهول وفي الجبال
يتوائب الأطفال في غرفاتها ويكركرون...
والأمهات يلدن والآباء للغد يسمون،
لم يُبْقِ من حجَر عليها، فهي ريح أو خيال.

[1] قصة ياجوج وماجوج يعرفها كل من قرأ القرآن الكريم، ولكن الأساطير الشعبية تضيف إليها أنهما يلحسان السور بلسانيهما كل يوم حتى يصبح في رقة قشرة البصل، ويدركهما التعب فيقولان "غدا سنتم العمل" وفي الغد يجدان السور على عهده من القوة والمتانة.. وهكذا. حتى يولد لهما طفل يسميانه "إن شاء الله" فيحطم السور.

وأدار من حُطَمِ البلاط رحى، وساط من البطـون
ما ترتعيه رحاه مـن لحـم الأجنّـة والعظـام،
وكشاطئين من النجوم على خليـج مـن ظـلام
يتحرَّقان ولا لقاءَ ويخمـدان سـوى ركـام -
شق الرجالَ عن النساء: سُـلالتين مـن الأنـام
تتلاقيان مع الظلام وتَنْفصِـلان مـع الشـروق:
زانٍ وزانيـة، وبائعـة وشـارٍ - والطعـام
لا الحبُ والأحقاد لا الأشواق - تنبض في العروق!
زان وزانية؟.. أيمكن ذاك وهـي بـلا عشـاء؟
لمَ يُعرض الزانون عنها وحـدها؟ لَمَ يعرضـون
وهي الفقيرة فقر شحّاذ؟ أمـا هـي كالنسـاء؟
أو ما لها جسـد كناضـجة الثمـار؟ أيعشـرون
لو يقطعون الليل بحثاً والنـهار - علـى سـواها
في حسنها هي؟ في غضارة ناهـديها أو صـباها
وبسعرها هي؟ أيَّ شـيء غـير هـذا يبتغـون؟
أ "زهورُ" أجمل أو "سعادُ"؟ بأي شيء جارتاهـا
تتفوقان؟
وعضَّت اليـد وهـي تهمـس: بـالعيون..."!
عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يـا سـليمه.
.... وتلوب أغنية قديمة

في نفسها وصدى يوشوش: يا سليمه، سليمه
نامت عيون الناس. آه.. فمن لقلبي كي ينيمه؟"
ويل الرجال الأغبياء، وويلها هي، من عماها!
لم أصبحوا يتجنبون لقاءها؟ أيضاجعونَ
عيونها، فيخلّفوها وحدها إذ يعلمونَ
بأنها عمياء؟ فيم يكابرون ومقلتاها
ما كانتا فخذين أو ردفين؟

وهي هؤلاء
أدرى، وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون.
بالأمس، إذ كانت بصيره،
كان الزبائن بالمئات، و لم يكونوا يقنعون
بنظرة قمراء تغصبها من الروح الكسيره
لترش أفئدة الرجال بها، وكانوا يلهثون
في وجهها المأجور، أبخرةَ الخمور، ويصرخون
كالرعد في ليل الشتاء:
عَبرَ ابتسامتها أو الفخذ التي زلق الرداء
عنها، أو النهدين نمّ عليهما قلق الضياء -
"إن كنتِ لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود،
إن كنت لا تتجردين.. فلا نقود!"
ولعلّ غيرة "ياسمين" وحقدَها سبب البلاء:

[1] أغنية شعبية "سليمة يا سليمة. نامت عيون الناس. كلبي (قلبي) ش ينيمه؟".

فهي التي تضع الطلاء لها وتمسح بالذرور
وجهاً تطفأت النواظر فيه...

- "كيف هو الطلاء؟
وكيف أبدو.؟"

- وردةٌ.. قمر.. ضياء!"

زورٌ.. وكل الخَلق زور،
والكون مَيْنٌ وافتراء.

لو تبصر المرآةَ - لمحة مقلتيها - لو تراها
- لمح النيازك - ثم تغرق من جديد في عماها!
برقٌ ويُطفأ... ثم تُحكم فرقها بيدٍ، وفاها
بيدٍ، وترسم بالطلاء على الشفاه لها شفاها.
شفتاك عارية وخدُّك ليس خدك يا سليمه،
ماذا تخلّف منك فيك سوى الجراحات القديمه؟
وتضمُّ زهرةَ قلبها العطشى على ذكرى أليمه:
تلك المعابثة اللعوب... كأنها امرأة سواها!
كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب - مقلتاها،
والشَّعر يلهث بالرغائب والطراوة والعبير
وبمثل أضواء الطريق نعسْنَ في ليل مطير،
والثغر بين الجلّنار وزهرة النهد الصغير.
كانت إذا جلست إلى المرآة يفتنها صباها
فتظل تعصر نهدها بيدٍ، وتحملها رؤاها

من مخدع الآثام في المنفـــى، إلى قصـــر الأمـــير:
تقتات بالعسل النقيِّ، وترتدي كســـل الحريـــر.
ليت النجوم تخـــرُّ كـــالفحم المطفَّـــأ، والســـماء
ركام قـــارٍ أو رمـــاد، والعواصـــف والســـيول
تدقُّ راسية الجبال ولا تخلِّف في المدينة من بنـــاء!
أن يعجز الإنسان عن أن يســـتجير مـــن الشـــقاء
حتى بوهم أو برؤيا، أن يعـــيش بـــلا رجـــاء...
أوَ ليس ذاك هو الجحيم؟ أليس عدلاً أن يـــزول؟
شبع الذُّباب من القمامـــة في المدينـــة، والخيـــول
سرَّحن مـــن عربـــاتهن إلى الحظـــائر والحقـــول،
والناس ناموا — وهي ترتقب الزناة بـــلا عشـــاء.
هذا الذي عرضته كالسلع القديمـــة: كالحـــذاء،
أو كالجرار الباليـــات، كأســـطوانات الغنـــاء...
هذا الـــذي يـــأبى عليهـــا مشـــترٍ أن يشـــتريه
قد كان عِرضاً -يوم كان- ككل أعراض النساء!
كان الفضاء يضيق عن سعة، وتُـــرتخص الـــدماء
إن رنَّق النظر الأثيم عليـــه. كـــان هـــو الابـــاء
والعزة القعســـاء والشـــرف الرفيـــع. فشـــاهديه
يا أعين الظلماء، وامـــتلأي بغيظـــك وارجميـــه
بشواظ عارك واحتقارك يـــا عيـــون الأغبيـــاء!
- "لا تتركوني يا سكارى

للموت جوعا، بعد موتي – ميتة الأحياء – عارا.

لا تقلقوا... فعماي لـــيس مهابـــة لي أو وقـــارا.

ما زلت أعرف كيف أُرعش ضحكتي خلل الرداء

– إبّان خلعي للرداء – وكيف أرقص في ارتخـــاء

وأمسُّ أغطيـــة الســـرير وأشـــرئبُّ إلى الـــوراء.

ما زلت أعرف كل ذاك، فجربوني يا ســـكارى!

مَن ضاجع العربية الســـمراء لا يلقـــى خســـارا.

كالقمح لونك يا ابنة العرب،[1]

كالفجر بين عرائش العنب

أو كالفرات، على ملامحه

دعةُ الثرى وضراوة الذهب.

لا تتركوني.. فالضحى نسبي:

من فاتح، ومجاهد، ونبي!

عربية أنا: أمتي دمها

خير الدماء.. كما يقول أبي.

في موضع الأرجاس من جسدي، وفي الثدْيِ المذال

تجري دمـــاء الفـــاتحين. فلوّثوهـــا، يـــا رجـــال

أواه من جنس الرجال.. فأمس عاث بها الجنـــود

الزاحفون من البحـــار كمـــا يفـــور قطيـــع دود

[1] ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين. يجب أن تكون القومية شعبية، والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشـــة تليق بهم كبشر وكورثة لأمجاد الأمة العربية.

يا ليت للموتى عيوناً من هباء في الهواءِ
ترى شقائي
فيرى أبي دمه الصريح يعبُّ أوشال الدماء
كالوحل في المستنقعات. فلا يردُّ الخاطبينَ
أبٌ سواه: لأن جدة أمِّ ذاك من الإماء
ولأن زوجة خال ذلك بنت خالة هؤلاء!
أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعين
إلا العفاة المفلسين.
أنا زهرة المستنقعات، أعبُّ من وحل وطين
وأشعّ لونَ ضُحىً..."
وذكّرها بجعجعة السنينَ
سُعالها. ذَهبَ الشباب!!
ذهب الشباب!! فشيّعيه مع السنين الأربعين
ومع الرجال العابرين حيال بابك هازئين.
وأتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب،
فاستقبليه على الرصيف بلا طعام أو ثياب،
يا ليتكِ المصباحُ يخفق ضوْؤه القَلِقُ الحزين
في ليل مخدعك الطويل، وليت أنك تُحْرِقينَ
دماً يجفُّ فتشترينَ

سواه: كالمصباح والزيت الذي تستأجرين[1].
عشرون عاماً قد مضين، وشبْتِ أنت، وما يزالُ
يذرذر الأضواءَ في مُقَل الرجال.
لو كنت تدّخرين أجْرَ سناه ذاك على السنين
أثرْيتِ...
ها هو ذا يُضيء فأيَّ شيءٍ تملكين؟
ويح العراق! أكان عدلاً فيه أنك تدفعينَ
سُهاد مقلتك الضريرة
ثمناً لملء يديك زيتاً من منابعه الغزيره؟
كي يثمرَ المصباحُ بالنور الذي لا تبصرين؟
عشرون عاماً قد مضين، وأنت غرثى تأكلينَ
بنيك من سَغَبٍ، وظمأى تشربينَ
حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين!
وكزارعٍ همَّ البذورَ
وراح يقتلع الجذورَ
من جوعه، وأتى الربيع فما تفتَّحت الزهورُ
ولا تنفّست السنابل فيه...

ليس سوى الصخورِ
سوى الرمال، سوى الفلاه —
خُنْتِ الحياةَ، بغير علمك، في اكتداحك للحياه!

---

[1] تدفع البغايا للسمسارات أجرا ليليا عن المصابيح في غرفاتهن قدره ربع دينار لكل مصباح!.

كم ردّ موتَك عنكِ موتُ بنيك. إنــك تقطعــين
حبل الحياة لتنقضــيه وتضــفري حــبلاً ســواه،
حبلاً بــه تــتعلّقين علــى الحيــاة: تضــاجعينَ
ولا ثمار سوى الدموع، وتأكلين،
وتسهرين ولا عيــون، وتصــرخين ولا شــفاه،
وغداً بحبلك تُشنقين!
وغداً. وأمسِ.. وألف أمسِ – كأنما مَسح الزمان
حدودَ ما لك فيه من ماض وآت
ثم دار، فــلا حــدود
ما بين ليلك والنهار، وليس، ثَمَّ، سوى الوجودِ..
سوى الظلام، ووطء أجساد الزبــائن، والنقــودِ،
ولا زمان، سوى الأريكة والسرير، ولا مكــان!
لَم تحســبين ليــاليَ الســأم المســهَّدة الرتيبــه؟
ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك، ما الشهور؟ وما السنين؟
ماتت "رجاء" فلا رجاءَ. ثكلتِ زهرتك الحبيبــه!
بالأمس كنت إذا حسبت فعُمْرَها هي تحســبين.
ما زال من فمها الصغيرِ
طراوة في حلمتيــك، وكركــراتٌ في الســرير.
كانت عزاءك في المصيبه،
وربيع قفرتك الجديبه.
كانت نقاءك في الفجور، ونسمةً لك في الهجــير،

وخلاصك الموعود، والغـبشَ الإلهـيَّ الكـبير!

ما كان حكمةَ أن تجيءَ إلى الوجود وأن تمـوت؟

ألتشـربَ اللـبن المرنَّـق بالخطيئـة واللعـاب:

أو شالَ ما تركتْه في ثـديك أشـداقُ الـذئاب؟

كان الزُّناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قـوت.

فكأنها، وهي البريئه،

كانت تشاركك العذاب لكي تكفِّر عن خطيئـه!

أفترضينَّ لها مصيرك؟

فاتركيهـا للتـراب

في ظلمة اللحد الصغير تنـام فيـه بـلا مـآب.

فالنور والأطفـال والبسـمات حـظ المتـرفين،

والجوع والأدواء والتشريد حـظ الكـادحين..

وأنت بنت الكادحين.

... ...

مات الضجيج. وأنتِ، بَعْدُ، على انتظارك للزناه،

تتنصَّتين، فتسمعينَ

رنين أقفال الحديد يمـوت، في سـأم، صـداه:

الباب أُوصِد.

ذاك ليل مرَّ...

فـانتظري سـواه.

ضوْءُ الأصيل يغيم، كالحلم الكئيب، على القبــور
واهٍ، كما ابتسم اليتامى، أو كما بُهِتَتْ شُــموعْ
في غيهب الذكرى يُهوِّم ظلُّهــنَّ علــى دمــوعْ
والمدْرجُ النائي تمــبّ عليــه أســراب الطيــور،
كالعاصفات السود، كالأشباح في بيــتٍ قــديمْ
برزتْ لتُرعب ساكنيه
من غرفةٍ ظلماءَ فيه.
وتثاءَب الطَّلَلُ البعيد – يُحــدّق الليــل البــهيمْ
من بابه الأعمى ومن شُــباكه الخــربِ البليــدِ.
والجوُّ يملؤه النعيبْ...
فتُردّدُ الصــحراءُ، في يــأسٍ وإعــوالٍ رتيــبْ،
أصداءَه المتلاشياتْ،
والريح تذْروهنَّ، في سأم. علــى التــل البعيــدِ!
وكأنَّ بعض الساحراتْ
مدَّت أصابعها العجاف الشاحباتِ إلى الســماءِ:
تُومي إلى سِربٍ مــن الغربــان تلويــه الريــاحْ
في آخر الأفقِ المضاءِ –

حتى تعالى ثم فاض على مراقيه الفساخْ

فكأن ديدانَ القبورْ

فارتْ لتلتهم الفضاءَ وتشربَ الضوءَ الغريقْ

وكأنما أزفَ النشورْ

فاستيقظَ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق!

وتدفّع السربُ الثقيلْ،

يطفو ويرسب في الأصيل،

لجِباً يرنّق بالظلام على القبور الباليات

وظلاله السوداء تزحف، كالليالي الموحشات،

بين الجنادل والصخورْ

وعلى القبور!

وتنفس الضوء الضئيلْ

بعد اختناقٍ بالطيوف الراعباتِ وبالجُثامْ،

ثم ارتخت تلك الظلال السود وانجابَ الظلام:

فانجاب عن ظلٍ طويل

يُلقيه حفارُ القبورْ:

كفّان جامدتان، أبرد من جباه الخاملين،

وكأنّ حولهما هواءً كان في بعض اللحودِ

في مُقلةٍ جوفاءَ خاويةٍ يهوّم في ركودِ

كفّان قاسيتان جائعتان كالذئب السجينْ،

وفمٌ كشقٍّ في جدارِ

مُستوحدٍ بين الصخور الصمِّ مــن أنقــاض دارِ
عند المســاء.. ومقلتــان تحـدقان، بــلا بريــقْ
وبلا دموعٍ، في الفضاء: -
هُوذا المساء
يدنو، وأشباح النجوم تكــاد تبــدو، والطريــق
خالٍ - فلا نعشٌ يلوح على مَداه.. ولا عويــلْ -
إلا النعيبْ
وتنهُّدَ الريح الطويل!
وعلامَ تنعب هذه الغربــان، والكــون الرحيــبْ
باقٍ يدور.. يعجُّ بالأحيــاء: مرضـى، جـائعين
بيضَ الشعور كأعظمُ الأموات - لكن خالــدين
لا يهلكون؟ علامَ تنعـب؟ إنَّ عزرائيــلَ مــاتْ!
وغداً أموتُ، غداً أموت!"

وهــزَّ حفــارُ القبــورْ
يُمناه في وجه السماء، وصاحَ: ربِّ! أمــا تثــور
فتبيدَ نسلَ العار.. تُحرقَ، بــالرجوم المهلكــات،
أحفادَ عادٍ، باعــةَ الــدمِ والخطايــا والــدموعِ؟
يا ربِّ.. ما دام الفناءْ
هو غايةُ الأحياء، فأمرْ يهلكــوا هــذا المســاء!
سأموتُ من ظمأٍ وجوعِ
إنْ لم يمتْ - هذا المساء إلى غدٍ بعــضُ الأنــامْ؛

فابعثْ به قبلَ الظلام!

يا ربّ... أسبوعٌ طويل مــرَّ كالعــام الطويــلْ،

والقبرُ خاوٍ، يفغر الفمَ في انتظــارٍ.. في انتظــارْ،

ما زلت أحفره ويطمره الغبارْ –

تتثاءب الظلمــاء فيــه ويرْشــح القــاع البليــلْ

مما تعصِّــر أعــين المــوتى وتنضــحه الجلــود:

تلك الجلود الشاحبات وذلــك اللحــم النــثيرْ!

حتى الشفاه يمصُّ من دمها الثرى – حتى النــهود

تذوي، ويقطر، في ارتخاءٍ من مراضعها، المغــيرْ![1]

واهــاً لهاتيــك النواهــد، والمــآقي، والشــفاه!

واهاً لأجساد الحسان! أيأكــل الليــل الرهيــبْ

والدودُ، منها، مــا تمنــاه الهــوى؟ واخيبتــاه!

كم جثةٍ بيضــاء لم تفتضَّــها شــفتا حبيــبْ،

أمسى يضاجعها الرغام؟

هل كان عدْلاً أن أحنّ إلى الســراب، ولا أنــالُ

إلاّ الحنين – وألف أنثى تحــت أقــدامي تنــامْ؟

أفكلّما اتّقدتْ رغابٌ في الجــوانح شــحَّ مــالُ؟

ما زلت أسمع بالحروب – فأين أين هي الحروب؟

أين السنابك والقذائف والضحايا في الــدروب..

لأظلَّ أدفنها وأدفنها.. فــلا تســع الصــحارى

[1] اللبن الممزوج دما.

فأدسُّ في قمم التلالِ عظــامهنَّ وفي الكهــوفِ؟
فكأن قعقعةَ المنــازل في اللظــى نَقــر الــدّفوفِ
أو وقع أقدام العذارى
يرقصن حولي لاعباتٍ بالصــنوجِ وبالســيوف!
نُبّئتُ عن حربٍ تدور – لعلَّ عزرائيــل فيهــا..
في الليل يكدح والنهار، فلنْ يمــرَّ علــى قرانــا
أو بالمدينة وهي توشــك أن تضــيقَ بســاكنيها!
نبئت أن القاصفاتِ هناك مــا تركــتْ مكانــاً
إلاّ وحلّ به الــدمار... فــأيُّ ســوقٍ للقبــور!
حتى كأن الأرض من ذهب يُضاحك حافريهــا،
حتى كأن معاصــرَ الــدم دافقــاتٌ بــالخمورِ!
أوّاه لــو أني هنــاك أســدّ، بــاللحم النــثيرِ،
جوعَ القبور وجوعَ نفسي.. في بلادٍ ليس فيهــا
إلاّ أراملُ... أو عذارى غــاب عنــهنَّ الرجــالُ
وافتضّهنَّ الفاتحون إلى الــذماء – كمــا يُقــال!
ما زلت أسمع بالحروب. فمــا لأعــين موقــديها
لا تستقرُّ علــى قرانــا؟ ليــت عــيني تلتقيهــا
وتخضُّهنَّ إلى القــرار – وكالنيــازكِ والرُّعــودِ
تهوي بهنَّ على النخيل، على الرجال؛ على المهود!
حتى تحدّق أعــين المــوتى، كــآلاف الــلآلي،
من كل شــبرٍ في المدينــةِ.. ثم تُــنظم كــالعقودِ

في هذه الأرض الخراب – فيا لأعينها ويا لي!
رباه! إني أقشعرُ... أكاد أسمع في الخيال
أغنيَّةً تصف العيونْ...
تنثال من مقهى، فأنصت في الزحام، وينصتون!
وكأنَّ ما بيني وبين الآخرين من الهواء
ثديٌ سخيٌّ بالحليب وبالمحبة والإخاء.
يا ربِّ.. أسبوع يمرُّ ولست أسمع من غناءِ
إلاّ النعيبْ
وتنهُّد الريح الرتيب!
واخيبتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟
والطّيبات: من الرغيف، إلى النساء، إلى البنين
هي منّة الموتى عليَّ. فكيف أُشفق بالأنامِ؟
فلتمطرنَّهمُ القذائف بالحديد وبالضرام،
وبما تشاء من انتقام:
من حُمَّيا أو جذام!
نذرٌ عليَّ: لئنْ تشبَّ لأزرعنَّ من الورودِ
ألفاً تروَّى بالدماء.. وسوف أرصف بالنقودِ
هذا المزار... وسوف أركض في الهجير بلا حذاء
وأعدّ أحذيةَ الجنود...
وأخطُّ، في وحل الرصيف وقد تلطخ بالدماءِ،
أعدادهنَّ... لأستبيحَ عدادهنَّ من النهودِ!

وسأدفن الطفلَ الرمِيَّ وأطرح الأمَّ الحزينه
بين الصخور على ثراه...
ولسوف أغرز بين ثدييها أصابعيَ اللعينه.
ويكاد يخنقها لهاثي وهي تسمع، في لظاه،
قلبي ووسوسةَ النقودِ... نقودها! واخجلتاه!
أنا لست أحقرَ من سواي. وإن قسوت فلي شفيعُ
أني كوحشٍ في الفلاء...
لم أقرأ الكتبَ الضخام – وشافعي ظمأ وجوع.
أو ما ترى المتحضرينَ
المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟
مهما ادَّنأت فلن أسفَّ كما أسفُّوا.. لي شفيع
أني نويت.. ويفعلون؛ وإنَّ من يئد البنينْ
والأمهات ويستحل دم الشيوخ العاجزين
لأحطُّ من زانٍ بما انتهك الغزاة وما استباحوا!
والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور؛
وهم الذين يلوِّنون لي البغايا بالخمور،
وهم المجاعة، والحرائق، والمذابح، والنواحُ،
وهم الذين سيتركون أبي وعمته الضريره
بين الخرائب ينبشان ركامهن عن العظام،
أو يفحصان عن الجذور، ويلهثان من الأوام..
والصخر كالمقل الضريره.

وسيوثقون بشعر أختي قبضتيّ.. وكالظلامِ
وكخضَّة الحمّى، تسمّرُها على دمها صدورُ
تعلو وتهبط باللهاث، كأنهن رحىً تدور.
يا مجرمون، إلى الوراء! فسوف تنتفض القبورُ
وتقيءُ موتاها. ويا موتى، على اسم الله ثوروا
رباه، عفوك.. إنّ "قابيلَ" المكبَّلَ بالحديدْ
في نفسيَ الظلماء هبَّ وقرَّ يعصره الملالْ!
فالليل جاءَ، وما أزال
مستوحداً أرعى القبور وأنفض الدربَ البعيد.
وكأن يا بشرى! كأنّ هناك في أقصى الجنوب
خطاً كأذيال الظلام ولمعةً كدمِ الغروب!
لكأنه ضيفٌ جديد!"
وبدا الجنازُ، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاءْ،
الأوجه المتحجِّرات يضيئها الشفق الكئيب،
والغمغمات الخافتات من انفعالٍ أو رياءْ،
والنعشُ يحجبه غطاءْ
ألوانه المترنِّحات كأنما اعتصرَ المغيبُ
فيها قواهُ، وذاب فيها كوكب واهي الضياءْ،
حتى إذا انهال الترابُ وصُفّحَ القبر الجديدْ،
وتراعشَ الألقُ الضئيل، على الظهور المتعباتِ
حتى اضمحل، وغيَّبتها ظلمةُ الأفق البعيد -

كانت مصابيح السماء تــذرُّ ضــوءاً كالضــبابْ
بين القبور الموحشاتِ
وعلى الخرائب والرمال. وكــان حفــار القبــورِ
متعثر الخطوات يأخذ دربــه تحــت الظــلامْ...
يرعى مصابيح المدينة وهي تخفـق في اكتئــابْ،
ويظلُّ يحلــم بالنســاء العاريــات وبــالخمورِ،
وتحسستْ يده النقودَ وهيَّــأ الفــمَ لابتســام –
حتى تلاشى في الظلام!

* * *

النور ينضح من نوافــذِ حانــةٍ عــبرَ الطريــقِ،
وتكاد رائحة الخمورْ
تلقي، على الضوء المشــبَّعِ بالــدخان وبــالفتورْ
ظلاً كــألوانٍ حيــارى واهيــاتٍ مــن حريــقِ
ناءٍ. تحوّم، في الدجى الضافي، على وجهٍ حــزين.
وتلوح أشباحٌ عجافُ
خلف الزجاج.. تهيم في الضوء السراجيّ الغريــقِ.
ويشدُّ حفار القبور علــى الزجاجــة بــاليمين،
وكمن يحاذر أو يخافُ
يرنو إلى الــدرب المــنقط بالمصــابيح الضــئال،
وتحركت شفتاه في بــطء وغمغــم في انخــذال:
"أظننت أنك سوف تقــتحم المدينــة كــالغزاه..

كالفاتحين. وتشتريها بالــذي ملكــت يــداك:
بأقل من ثمن الطــلاء القرمــزيِّ علــى شــفاه
أو في أظــافر لاحقتـــها، ذات يـــوم، مقلتــاك،
سأعودُ، لا نهدّ تعصّره يــدي حـــتى الــذهولْ،
حتى التأوه، والأنينِ وصرخة الــدم في العــروقْ
والسكرةِ العمياءِ.. والخدر المضعضع.. والأفــول!
والأذرع المتفتّرات - يلــوّن الضــوءُ الخفــوقُ
هزاتها المستســلمات، ويــنفح الــدم والعــبيرْ
ظلٌّ لهن على السريرْ.
الأذرع المتفتــراتُ، وزهرتـــان علـــى الوســادْ
نسجتهما كــفٌّ مخضّــبة الأظــافرِ - زهرتـــانِ
تتفتحان على الوســادة كالشــفاه - وتهمســـانِ
نغماً يذوب إلى رقادْ.
ونعومة الكتفين، والشعر المعطّــر، والشــحوبُ،
وتألق الجيد الشــهيِّ ولفحــةُ الــنفس البــهيرِ.
والنور منفلتاً من الأهــداب.. تثقلــه الطيــوبُ،
قلقاً كمصباح السفينةِ راوحتــه صــباً لعــوبُ،
وتخافق الأظلال في دعــةٍ، ووسوســةُ الحريــرِ.
والحلمتان: أشد فوقهما بصــدري في اشــتهاءْ -
حــتى أحســهما بأضــلاعي وأعتصــر الــدماء
باللحمِ والدمِ والحنايــا، منــهما - لا باليــدين،

حتى تغيبا فيه – في صدري – إلى غير انتهاء،
حتى تمصّا من دماي... وتلفظاني، في ارتخاء،
فوق السرير...

وتشرئبّا

ثمّ نشوي جثتينْ!"

* * *

دربٌ كأفواه اللحودْ –
لولا التماعات الكواكب، وانعكاس من ضياءِ
تلقيه نافذةٌ – ووقع خطىً تهاوى في عياء
يُصدي له الليلُ العميق، وحارسٌ تعبٌ يعودْ
وَسْنان يحلم بالفراش وزوجة: تُذكي السراجْ
وتؤجّج التنّورَ صامتةً.. وأخيلةُ اللهيب
تُضفي عليها ما تشاءُ من اكتئابٍ وابتهاجْ.
ثمّ اضمحلَّ الحارس المكدود، والنغم الرتيبْ:
– وقع الخطى المتلاشيات. كأنه الهمس المريب –
ما زال يخفق من بعيدْ.
وتململت قَدَمان، وارتفعت يدٌ بعد انتظارِ
وهوت على الباب العتيقِ، فأرسل الخشبُ البليدْ
صَوتاً كإيقاع المعاولِ حين إدبارِ النهار
بين القبور الموحشات. وأطبق الصمتُ الثقيلْ،
وأطلَّ من إحدى النوافذ، وهي تُفتح في ارتيابْ،

وجهٌ حزين... ثم غاب!

وتحرَّك البابُ المضَعْضَع وهو يُجهش بالعويلْ.

وتقول أنثى في اكتئاب:

"ضيفٌ جديدٌ!" ثم تفرك مقلتيها في فتور.

ويظلٌّ يزحف كالكُسوف - يُحجّب الألقَ الضئيلْ

عن وجهها - ظِلٌّ يقيّدُها بحفّار القبور!

* * *

في زهوة الشَّفَقِ الملوَّنِ حيثُ يحترق النهارُ -

في عَودة الرُّعيان أشباحاً يظللها الغُبار -

في ساعة الشوْق الكئيبِ إلى شواطئَ كالضبابِ،

وإلى أكُفٍّ مُخلِصاتْ،

وإلى أغانٍ مُبهماتٍ هائماتٍ في شِعابِ

أنأى مِنَ الأصْداءِ.. تغشاها نُجومٌ ساهماتْ -

في ساعة الشَّفَقِ الملوَّن كان إنسانٌ يثورْ

بين الجنادل والقبورْ،

نَفْسٌ معذَّبة تثورْ

بين الجنادل والقبور:

"أأظلُّ أحلم بالنُّعوش، وأنفضُ الدرب البعيدْ

بالنظرة الشَّزْراء، واليأسُ المظلِّلُ بالرجاءْ

يطفو ويرسب، والسماء كأنها صَنَمٌ بليدْ

لا مأملٌ في مقلتيه... ولا شواظَ... ولا رثاءْ؟

لو أنها انفجرتْ تُقهقِــهُ بــالرعود القاصــفات!
لو أنها انكمشتْ وصاحت كالذئاب العاويِــات:
"فاتَ الأوانُ، فخُطَّ لحدَكَ واثوِ فيه إلى النشــورِ!
لو أنها انطبقــت علــيَّ كأنهــا فــمُ أفعــوانْ!
لو أنها اعتصرتْ قِواي!.
ومات ظلَّ الأرجــوانْ
في آخر الأفق البعيــد، ولألأتْ قطــراتُ نــورِ
ممــا تُبعثــره المدينــةُ وهــي تبســمُ في فتــور.
وكأنمــا رضــعتْ مصــابيحَ المدينــةِ مُقلتــاه
فَسرتْ لهيبــاً في دمــاهُ وألغمتْهــا بالرغــابِ،
وكأنهُنَّ، على المــدى المقــرور، آلافُ الشّــفاه
تدعوه ظمأى، لاهثات.. مثل أحداقِ الــذِّئاب:-
"ما زلتِ تحترقين من فَرحٍ، وأحتــرقُ انتظــارا،
صُبّي سناكِ على الترابِ
وعلى الكؤوس الفارغات: وبَعْثريه على كتــابِ
أو بين أغطية الموائــد وهــي تنتظــر النــهارا..
ظلّتْ تُعابثها شِفاه الريح، وانصرفَ الســكارى!
راحوا إليها مسرعين - إلى التي ارتعشتْ قِواهــا
بين التوجعِ والذهول، على يــديَّ وفي دمــائي.
ليــلٌ وأعقبــهُ الصــباح.. ونبّــأتني مقلتاهــا
أنّا انتهينا.

يــا سمــاءُ، ويــا قبــورُ.. أمــا أراهــا؟
لا بُدَّ من هذا!" – وصوَّبَ مقلتيــه إلى السماءِ
حنقاً يُزمجر، ثم أطــرقَ وهــو يحلــم باللقــاء:
بابٌ تفتَّح في الظلام. وضحكةٌ. وشذىً ثقيــلْ..
ويــدانِ تجتــذبان أغطيــةَ الســرير وتُرخيــانِ
إحدى الستائر...

ثم تنطفئــــان في الضَّـــوء الضــئيلْ!
وتغيم أخيلــةٌ وتجلــى – ثم تــبرز حَلمتــانِ...
ويُطلُّ وجهٌ شاحب القسمات مُختــلج الشــفاه.
وتغــيم أخيلــة وتُجلــى – ثم تُفــتح مقلتــاه:
فيرى القبورْ،
ويرى المصــابيح البعيــدةَ كالمجــامر في اتّقــادِ،
ويرى الطريق إلى القبورْ
يكتظّ بالأشــباح زاحفــةً إليــه علــى اتّئــادِ،
فيصيح من فرحٍ: "سألقاها، فإن علــى الطريــق
نعشاً... وإنْ حفَّ النساءُ به وأملــنَ حــامِلوه!
إني سألقاها!" – وينهض وهــو يرفــع بــاليمين
فانوسَهُ الصدئَ العتيقْ ...
يلقي سناه على الوجوه
وعلى الدثار القرمــزيّ وفي عيــون القــادمين.
لو أنــه اختــرقَ الــدثارَ بمقلتيــه وبالضــياء –

لو حدّثَ التابوتُ عمَّنْ فيه... أو رفعتْ يـداها
"أو هبّةٌ للزعـزع النكبـاءِ حاشـيةَ الغطـاءِ
تحت النجومِ الساهمات...
لكاد ينكر من رآها!
ماتتْ كمنْ ماتوا، وواراها كما وارى سـواها:
واسترجعتْ كفّاه من يـدها المحطمـةِ الدفينـةْ
ما كان أعطاها — وإنْ حملتْ يدُ امـرأةٍ سـواها
تلك النقودَ.. بل البقايا مـن نفايـات المدينـةْ —
وتظل أنوار المدينـة وهـي تلمـعُ مـن بعيـدِ،
ويظلُّ حفار القبورْ
ينأى عن القبر الجديدِ
متعثّر الخطوات... يحلـم باللقـاءِ، وبـالخمور!

عصافيرُ؟ أم صبيةٌ تمرحُ
عليها سناً من غدٍ يُلمَح؟
وأقدامُها العاريهْ
محارٌ يصلصل في ساقيهْ
لأذيالهم زفّةُ الشمألِ
سرت عبر حقل من السنبل
وهسهسة الخبز في يوم عيد
وغمغمة الأم باسم الوليد
تناغيه في يومه الأولِ

* * *

كأنّيَ أسمع خفق القلوع
وتصخاب بحّارةِ السندباد:
رأى كنزه الضخم بين الضلوع
فما اختار إلاه كنزاً... وعاد!

* * *

صدى عابر من وراء العصور:
من الكهف، والغاب والمعبدِ
سرى دافئاً من عروق الصخور

وإزميـــــــل نحاتهـــــــا المجهـــــدِ
يغنّـــــــي بأشـــــــواقه العاتيـــــــهْ
إلينـــــــا: (إلى القمـــــــة العاليـــــــه)...
إلى أن يفـــــلَّ الـــــــردى بالحيـــــــاه
وتلقـــــــاه أجيالهـــــــا الآتيـــــــه
علـــــــى صـــــــخرة حملتْهـــــــا يـــــــداه
تحايـــــــاه: في بســـــــمة في الشـــــــفاه
وفي أعـــــــين حجَّـــــــرتْ مقلتـــــــاه
عليهـــــــا دموعَهمـــــــا الجاريـــــــه

* * *

صـــــــدىً رجَّعتْـــــــه الأكـــــــفّ الصـــــــغار
يصـــــــفّقن في الشـــــــارع المشـــــــرقِ
كخفـــــــق الفراشـــــــات مـــــــرَّ النـــــــهار
عليهـــــــا بفانوســـــــه الأزرقِ

* * *

وكـــــــم مـــــــن أبٍ آيـــــــبٍ في المســـــــاء
إلى الـــــــدار مـــــــن ســـــــعيه البـــــــاكرِ
وقـــــــد زمَّ مـــــــن ناظريـــــــه العنـــــــاء
وغشـــــــاهما بالـــــــدم الخـــــــاثرِ
تلقَّـــــــاه، في البـــــــاب، طفـــــــل شـــــــرود
يكركـــــــر بالضـــــــحكة الصـــــــافيه
فتنـــــــهلُّ سمحـــــــاءَ مـــــــلء الوجـــــــود

وتـــــزرع آفاقــــــه الداجيـــــه
نجومـــاً، وتنســـيه عـــصـــبء القيـــود

* * *

وهــــم في ليــــالي الشـــتاء الطـــوال
ربيـــع مـــن الـــدفء والعافيـــه
تلــمُّ العجــــائز فيــــه الــــورود
ويلمحـــن عهـــد الصـــبا ثانيـــه
ويرقصـــن بـــين الــــتلال
يـــرجِّحن أرجوحـــــة في الخيــــال:
بعــــذراءَ في ليلــــة مقمــــره
وفي ظــــل تفاحــــة مزهــــره
تنـــام العصــــافير فيهـــا...
وهــــم في الصـــــباح
خطـــى خافقـــات علـــى السُّــلَّمِ
وأيـــدٍ علـــى أوجـــه النُّـــوَّم
يدغدغنــــها في مــــزاح!
وأغنيــــة مـــن أغــــاني الطريــــق
بلحـــن ســـوى لحنـــها الأولِ
وشـــأوٍ مـــن الصـــوت مســـتعجلِ
وهـــم رفقـــة الأم إذ تســـتفيق
وإذ تشـــعل التـــار في الموقـــدِ!

كخيط ترى فيه بدء الغدِ!

* * *

عصافير؟ أم صبية تمرح؟
أم الماء: من صخرة ينضحُ
زهورٌ ونور
وقبُرةٌ تصدحُ
وتفاحةٌ مزهره
لخفق العصافير فيها
صدى قبلة الأم تلقى بنيها
"دعيني .. فما تلك بالقبره!
دعيني أقُلْ إنه البلبلُ
وإن الذي لاح ليس الصباح"
أتلك السفين التي تُغْوِلُ؟
على مرفأ ناوحته الرياح؟
تُلوِّحُ منها أكفُّ الجنود
لألفٍ كـ "جوليت" فوق الرصيف:
"وداعا وداع الذي لا يعود!"
وأمٍ كما استوحشتْ في الخريف
وراء الدجى، دوحةٌ عاريه
وفرَّت عصافيرها الشاديه!

* * *

عصافير؟ أم صبية تمرحُ؟

أم الماء من صخرة ينضح
ولكن على جثة داميه؟
وقبّرة تصدحُ ولكن على خربة باليه
عصافير؟!

بل صبية تمرح
وأعمارها في يد الطاغيه
وألحانها الحلوة الصافيه
تُغلغلَ فيها نداءٌ بعيد
"حديد عتـ... يق
رصا... ص
حديـ... د"
وكالظلِّ من باشق في الفضاء
- إذا اجتاح، كالمدية الماضيه
عصافيرَ تشدو على رابيه -
ترامى إلى الصبية الأبرياء
نداءٌ تنشّقتُ فيه الدماء
"حديد عتيق...

حديد عتيق!
رصا... ص" فحتى كأن الهواء
رصاص، وحتى كأن الطريق
حديد عتيق.

ويـــــنقضُّ، كـــــالمعولِ الحـــــافرِ

صـــدى راعـــبٌ مـــن خطـــى التـــاجر

لـــــه الويـــــلُ... مـــــاذا يريـــــد؟!

"حديد عتيق

رصـــــا..ص

حديـــــد!"

لـــك الويـــل مـــن تـــاجر أشـــأمِ

ومـــن خـــائضٍ في مســـيل الـــدم

ومـــن جاهـــلٍ أن مـــا يشـــتريه

- لـــدرء الطـــوى والـــردى عـــن بنيـــه -

قبـــور يـــوارون فيهـــا بنيـــه!

"حديد عتيق

رصـــا...ص

حديـــــد.."

حديـــدٌ عتيـــقٌ لمـــوتٍ جديـــد!

* * *

"حـــد...يـــد"

لمـــن كـــل هـــذا الحديـــد!

لقيـــدٍ ســـيُلوى علـــى معصـــمِ

ونصـــلٍ علـــى حَلْمـــة أو وريـــد

وقفـــلٍ علـــى البـــاب دون العبيـــد

ونــــاعورةٍ لاغتـــراف الــــدمِ

"رصـــا..ص"

لمــن كــل هــذا الرصـــاص؟

لأطفـــــال كوريَّـــــةَ البائســــين

وعمـــــال مرســــيليا الجــــائعين

وأبنــــاء بغـــــدادَ والآخـــــرين

إذا مـــــــا أرادوا الخـــــــلاص

حديد

رصاص

رصاص

رصاص!

(حديد...)

وأصـــــغي إلى التــــاجرِ

وأصـــــغي إلى الصـــــبية الضـــــاحكين

وكالنصـــــل قبـــــل انتبـــــاه الطعــــين

وكـــــالبرق - يـــــنفضُّ في خــــــاطري

ســــتارٌ، وكــــالجرح إذ ينــــزفُ -

أرى الفوَّهــــات الـــــتي تقصـــــف

- تَســـدُّ المـــدى - واللظــــى والــــدماء

وينــــهلُّ كالغيــــث، مــــلء الفضــــاء

رصـــاص ونـــار ... ووجــــه الســــماء

عبوسٌ لما اصطكَّ فيه الحديد..
حديد ونار، حديد ونار
وَثَمَّ ارتطامٌ، وثَمَّ انفجار
ورعد قريب، ورعد بعيد
وأشلاء قتلى، وأنقاض دار!
حديد عتيق لغزوٍ جديد

* * *

حديد ... ليندكَّ هذا الجدار
بما خَطَّ في جانبيه الصغار
وما استودعوا من أمان كبار:
"سلام"

كأن السنا في الحروف
تخطّى إليها ظلامَ الكهوف
بآمال إنسانها الأولِ
وما اختط من صورة في الحجار
تحدّى بها الموت: فهي انتصار
وتَوْقٌ إلى العالم الأفضلِ!
"حديد
رصا..ص

حديد عتيق
رصاص..." ليخلوَ هذا الطريق

من الضحكة الثرَّة الصافيه

وخفْقِ الخطى والهتاف الطروب

فمن يملأ الدار عند الغروب

بدفء الضحى واخضلال السهوب؟

لظى الحقد في مقلة الطاغيه

ورمضاءُ أنفاسه الباقيه

يطوفان بالدار عند الغروب

وأطلالها الباليه!

"حديد عتيق

نحاس عتيق"

وأصداء صفّارة للحريق!

* * *

"حديد، حديد"

وأمٌّ تبيع السرير العتيق

تبيع الحديد الذي أمس كان

مهاداً عليه التقى عاشقان

وشدَّ نداء الحياة العميق

ذراعاً بأخرى، فما تخفقان!

فيا حسرتا حين يمسي غدا

شظايا تدوّي وبعض المُدى

تُنَحَّى بها عن ذراع ذراع

وينهدُّ مهدٌ، ويخبو شعاع!

* * *

أمن حيث كان التقاء الشفاه

على الحب: ينسج خيط الحياه

يحوك الردى غزلَه الأسودا

دماً أو دخاناً؟ يحوك الردى

شباكاً من النار حول البيوت

على صبية أو صبايا تموت؟

وأرباب (وول ستريت) القساه

يحيلون حتى حديد السرير

جناحاً عليه المنايا تغير

وحتى الذي في عيون الدمى

من المعدن الزئبقيِّ الحسير

رصاصاً أبحَّ الصدى، مُرْزِما.

* * *

"حديد عتيق، حديد، حديد"

وأقدامُها العاريه

محارٌ يصلصل في ساقيه

ويعتاد بالي - كرعد بعيد -

ضجيجُ الخطى ونثار الصخور

وخفقُ الفوانيس في المنجمِ

وما نضَّ من عاريات الظهور

وما انسحَّ في سعلةٍ من دمْ!
وملء السنا من غبار الحديد
نواقيسُ فيها يرنُّ السكون...
وأجراس مركبةٍ من بعيد
يخفُّ لها صبية يلعبون:
نواقيس في الفجر، واليوم عيد
وفي الماء أطلال جسر جديد
وهمس النواعير، والزارعون
وفي كل حقل - كنبض الحياه -
تهزُّ المحاريث قلبَ الثرى
وتبنى القرى:
قرى، طينُها من رميم الطغاه
وتخضلُّ حتى الصخور الضنينهْ
ويثمر حتى سراب الفلاه
مدينه
فأخرى، فأخرى، إلى منتهاه!

* * *

"حديد... حديد!"
وأقدامُها العاريه
وخفقُ الفوانيس في المنجم
وأعماقُه الرطبة الداجيه

كظلِّ الردى فاغراتُ الفم

كبئر من الظلمة الطاميه

ستمتاح منها ألوفُ القبور

ويهوي - مع الزعزعِ العاتيه -

عمى من دجاها على كل نور:

على النور من باب كوخ مضاء

ومن كوَّةٍ في خيام الرعاء

ومن شرفة ظلُّها الياسمين

- "دعيني أقل إنه البلبلُ

وإن الذي لاح ليس الصباح" -

على النور من موقد السامرين

ومن مدرج بالسنا يُغسَلُ

على كل نور، تذرّ الرياح

ظلال الطواغيت في المنجمِ

كناعورة لاغتراف الدمِ

تذر الرياح، الرياح، الرياح

أراجيح في الملعب المظلمِ

وخفق الفوانيس والأنجم

وخفق الخطى والأكفّ الصغار

وخفق الفراشات مرَّ النهار

عليها بفانوسه المعتمِ

فمن يملأ الدار عند الغروب
بدفء الضحى واخضلال السهوب؟
رصاص، حديد، رصاص، حديد
وآهاتُ ثكلى، وطفلٌ شريد!

* * *

ومن يُفْهِمُ الأرض أن الصغار
يضيقون بالحفرة البارده[1]؟
إذا استنزلوها وشطَّ المزار
فمن يتبع الغيمةَ الشارده؟
ويلهو بلقط المحار؟
ويعدو على ضفَّة الجدول؟
ويسطو على العش والبلبل؟
ومن يتهجى – طوال النهار –
ومن يلثغ الراء، في المكتبِ؟
ومن يرتمي فوق صدر الأب
إذا عاد من كدِّه المتعبِ؟
ومن يؤنس الأم في كل دار؟
أسىً موجعٌ أن يموت الصغار
أسى ذقتُ منه الدموع، الدموع
أجاجاً ومثل اللظى في الفمِ

---

[1] يحدث سيتويل في قصيدتها أمٌ ترثي طفلها: "إن الأرض عجوز شاخت حتى لا تعلم بأن الصغار جركون كظلال الربيع".

وأحسست فيه اشتعالَ الدمِ

بعينيَّ، من نازفات الضلوع:

عويلٌ من القرية النائيهْ

وشيخ ينادي فتاه الغريقْ

هذا الطريق وذاك الطريق

ويسعى إلى الضفة الخاليهْ

يسائل عنه المياه

ويصرخ بالنهر .. يدعو فتاه

ومصباحُه الشاحبُ

يغَني سدى زيتُه الناضبُ:

"محال تراه!"

ويحنو على الصفحة القاتمه

يحدِّق في لهفة عارمهْ

فما صادفت مقلتاه

سوى وجهه المكفهرِّ الحزين

ترجرجه رعشةٌ في المياه

تغمغم: "لا، لن تراه!"

* * *

"حديد عتيق" ورعب جديد!

"حديد

رصا..ص"

لأن الطغاه

يريدون ألا تُتمَّ الحياه
مداها، وألا يحسَّ العبيد
بأن الرغيف الذي يأكلون
أمرُّ من العلقمِ
وأن الشراب الذي يشربون
أجاجٌ بطعم الدمِ
وأن الحياةَ الحياةَ انعتاق
وأن ينكروا ما تراه العيون:
فلا بيدرٌ في سهول العراق
ولا صبيةٌ في الضحى يلعبون
ولا همسَ طاحونةٍ من بعيد
ولا يطرق الباب ساعي البريد
ببشرى، ولا منزلُ
يضيءُ الدجى منه نور وحيد
سخيٌّ كما استضحك الجدولُ
ولا هدهداتٌ، ولا جلجلُ
يرنُّ بساق الوليد
وبين الربى في رقاب الجداء
ولا وسوسَ الشاي فوق الصِّلاء
ولا قصةٌ في ليالي الشتاء
لأن الطواغيت لا يسمعون

صداحَ العصافير في المغربِ
- كما صلصل الفضةَ القامرون -
ولا زفّةَ السنبل المذْهَبِ
لأن الطواغيت لا يحلمون
بغير المبيعات والأسهمِ
وأن الطواغيت لا يسمعون
سوى رنة الفلس والدرهمِ
لأن الطواغيت لا يبصرون
على الشاطئ الأسيوي البعيد
سوى أن سوقاً يباع الحديد
وتُستهلك الريح والنار فيها
تدرّ العطايا على فاتحيها

* * *

بأقدام أطفالنا العاريه
يميناً، وبالخبز والعافيه:
إذا لم نعفّرْ جباهَ الطغاه
على هذه الأرجل الحافيه
وإن لم نذوّبْ رصاصَ الغزاه
حروفاً هي الأنجم الهاديةْ
(فمنهن في كل دار كتاب
ينادي: قفي واصدأي يا حراب)
وإن لم نضوِّ القرى الداجيه

و لم تخرس الفُوَّهات الغضاب

ونُخْلِ المغيرين عن آسيه

فلا ذكرتنا بغير السِّباب

أو اللعن أجيالُنا الآتيه!

* * *

سلام على العالم الأرحبِ

على الحقل، والدار، والمكتب

على معمل للدمى والنسيج

على العشِّ والطائر الأزغبِ

على التوت وسْنانَ فيه الأريج

ووقع المجاذيف في المغرب

على زهرةٍ في وساد العروس

على صِبيةٍ في انتظار الأبِ

على شاعر تستحمُّ الشموس

بعينيه، يصغي إلى جندبِ

سلام على العالم الأرحب

سلام على (الكنج)[1] فاض النعيم

ورنَّتْ أغاريدُ في ضفتيه:

قرى من سناً عاصرات عليه

عناقيدَ من ضوئهن العظيم

---

[1] وردت كلمة "الدون" في طبعة سابقة، ووردت في طبعة أخرى "الكنج".

سلام على الصين والحاصدين
وصياد أسماكها الأسمرِ
وما أنبتت من دم الثائرين
وما افترَّ في البيرق الأحمر
على صبية في قراها البعاد
وفي ظل تفاحها المزهرِ
وما جرَّرت في ليالي الحصاد
ثياب العذارى على البيدرِ..
سلام لأن الربيع
يمرُّ بودياننا كلَّ عام
وما زال قوس الغمام
وأجدى على الأرض، من أن يبيع
طواغيت (وول ستريت) الحديد
عشيش جديد!
ولولا الذي كدَّسوا من نضار
به يستضيئون دون النهار
تجوع الملايين عن جانبيه
وينحطُّ، في كل يوم، عليه
دمٌ من عروق الورى أو نثار
كذرٍّ الغبار
لما هزت الأمهات المهود
على هوَّة من ظلام اللحود
ولم تذرف الدمع عَبْرَ البحار
وعبر الصحارى، نساءُ الجنود

و لم يرفع المزارع الأشيبُ
إلى مقلتيه، اليدَ الراجفه
يحدِّق في عتمة العاصفهْ
ويصغي وفي روعه "القاصفه"
و لم يبكِ صرعى بنيه الأبُ
جزوعاً بأن يثكل الآخرين
ولا شرّدت نومةَ العاشقين
كوابيس من أعين الهالكين
وأرنان صفّارة تنعبُ:
"وغى..." فاستفاقوا ولا كوكبُ
ولا لمعةٌ من سراج تبين
سوى قعقعات السلاح
وعصف الرياح
ولا ساءل الأمَّ طفلٌ غرير.
"ألا بلدةٌ ليس فيها سماء؟"
- فلا قاذفات المنايا تغير
ولا من شظايا تسد الفضاء -
و لم تحصدِ النارُ حيَّ الزنوج
ولا مجَّ فيه الرصيفُ الدماء
ولا اجتاحه المجرمون العلوج
بما جرروا من غلاظ الحبال

وما صفدوا من رقاب الرجال
ولا أن مرضى بطاء الليال
ولا اختضَّ في الصرصر اللاجئون
ولألاء (يافا) تراه العيون
وقد حال من دونه الغاصبون
بما أشرعوا من عطاش الحراب
وما استأجروا من شهود كذاب
وما صفَّحوا بالردى من حصون
سلام على العالم الأرحب
على مشرق منه أو مغرب
سلام لآفونَ روًّى عروق
شكسبيرَ والزهر والداليه.
أفِقْ شاعر النور، إن الشروق
تمدده غيمة داجيه
سعى (مكبثٌ) تحتها في احتراس
لقتل النعاس ...
لقتل النعاس البريء...
سلام لباريس "روبسبيير"
و"إلوارَ" والغابة الحالمه
وعشاقها في المساء الأخير
تذرِّيهمُ قوة ظالمه

كدوّامة من رياح السعير.

على (تونسٍ) من لظاها ظلال

وحول (الرباط) المدمّى هدير

وفي جيرة الصين حلّ اخذال

بقطعانها الفظّة الضاريه.

لك المجد يا آسيه!

سلام لفينيس والكرنفال

وأضوائه الثرة الزاهيه

وهمس المحبين بين الظلال

وفي دفء قمْرائه الضاحيه

سلام على المسيسي الكبير

وما طاف من أغنيات الزنوج

بشطّيه وانسابَ عبر المروج

هناك استقل الضياء الأسير

إلهُ الوغى، مركباً للدمار

يرشُّ الجرائيم، حيث استدار

بأعجاله القادحات الشرار

ويُدمي الشيوخ، ويصْلي الصغار

شآبيب نار

وما شاء من زعزعٍ عاتيه

تبيـــد الملايـــين في ثانيـــه.

* * *

عصـــافير؟ أم صـبية تمـــرح؟

أم المـــاء مـــن صـــخرة ينضـــح؟

وأقدامهـــا العـــاريه

مصـــابيح مـــلء الـــدجى تُلْمَـــحُ

هتكنـــا بهـــا مكمـــن الطاغيـــه

وظلْمـــاءَ أوجـــارِه الباليـــه

علينـــا لهـــا: أنهـــا الباقيـــه

علينـــا لهـــا: أنهـــا الباقيـــه

وأن الـــدواليب في كـــل عيـــد

ســترقى بهـــا الـــريح.. جـــذلى تـــدور!

وترقـــى بهـــا مـــن ظـــلام العصـــور

إلى عـــالم كـــلُّ مـــا فيـــه نـــور

فقـــد لاح فجـــرُ انطـــلاق العبيـــد

وأنّـــا رفعنـــا لـــواء الســـلام

رفعنـــاه.. فليخســـأنّ الظـــلام!

* * *

(رصاص، رصاص، رصاص،

حديـــد، حديـــد عتيـــق)...

لكونٍ جديـــد!

المَعبدُ الغريق

(١٩٦٢)

شبـاك وفيقـة (١)

شبّاكُ وفيقةَ في القريه
نشوانُ يُطلّ على الساحه
(كجليل تنتظر المشيه
ويسوعَ) وينشر ألواحه –
إيكار يمسّح بالشمس
ريشاتِ النسر وينطلقُ،
إيكار تلقّفه الأفق
ورماه إلى اللجج الرمس –
شبّاك وفيقةَ يا شجره
تتنفّسُ في الغَبَش الصاحي
الأعين عندك منتظره

تترقّب زهرةَ تفاح،
وبُوَيب نشيدْ
والريح تُعيدْ
أنغام الماء على السَّعَفِ
ووفيقةُ تنظر في أسف

من قاع القبر وتنتظرِ :
سيمرّ فيهمسه النّهرُ
ظلاً يتماوج كالجَرَسِ
في ضحوة عيدْ،
ويهفّ كحبات النَّفَسِ.
والريح تُعيد
أنغام الماء (هو المَطَرُ)
والشمس تكركر في السعفِ.
شباك يضحك في الألَقِ؟
أم باب يُفتَح في السورِ
فتفر بأجنحة العَبق
روح تتلهف للنورِ؟

يا صخرةَ معراج القلب
يا "صورَ" الألفة والحبِّ
يا درباً يصعد للربِّ
لولاك لما ضحكتْ للأنسام القريه،
في الريح عبير
من طوق النهر يهدهدنا ويغنّينا
(عوليس[1] مع الأمواج يسير

---

[1] هو أوديسيوس بطل الأوديسة.

والريح تذكّره بجزائر منسيّه:
"شبنا يا ريح فخلّينا")

العالم يفتح شبّاكه
من ذاك الشباك الأزرقْ،
يتوحّد، يجعل أشواكه
أزهاراً في دعة تعبق.

شباكٌ مثلك في لبنان،
شباكٌ مثلك في الهندِ،
وفتاة تحلم في اليابان
كوفيقة تحلم في اللّحدِ
بالبرق الأخضر والرعدِ.

شباك وفيقة في القريه
نشوان يطل على الساحه
(كجليل تحلم بالمشيه
ويسوع).
ويُحرق ألواحه.

شباك وفيقة (٢)

أطلّي فشبّاكك الأزرقُ
سماء تجوع،
تبيّنتُه من خلال الدموع
كأني بيَ ارتجفَ الزورق.
إذا انشقّ عن وجهك الأسمر
كما انشقّ عن عشتروت المحار
وسارت من الرغو في مئزر
ففي الشاطئين اخضرار
وفي المرفأ المغلقِ
تصلّي البحار.
كأنيَ طائر بحرٍ غريب
طوى البحر عند المغيب
وطاف بشبّاكك الأزرق
يريد التجاءً إليه
من الليل يربدّ عن جانبيه
فلم تفتحي.
ولو كان ما بيننا محضَ باب

لألقيتُ نفسي لديكِ
وحدّقت في ناظريكِ.
هو الموت والعالم الأسفلُ
هو المستحيل الذي يُذهل.
تمثّلت عينيكِ يا حفرتينِ
تطلان سخراً على العالمِ
على ضفة الموت بوّابتين
تلوحان للقادم.
وشبّاككِ الأزرقُ
على ظلمةٍ مطبقُ،
تبدّى كحبل يشدّ الحياه
إلى الموت كيلا تموت.
شفاهك عندي ألذّ الشفاه
وبيتُكِ عندي أحبّ البيوت
وماضيكِ من حاضري أجملُ:
هو المستحيل الذي يُذهل:
هو الكامل المنتهي لا يريد
ولا يُشتهى أنه الأكملُ،
ففي خاطري منه ظلّ مديد
وفي حاضري منه مستقبلُ.
* * *

تُرى جاءكِ الطائرُ الزنبقيّ
فحلّقتِ في ذات فجر معَه
وألقى نعاس الصباح النقيّ
على حسِّك المشتكي بُرْقُعَه؟
وفتّحت عينيكِ عند الأصيل
على مدرجٍ أخضر
وكان انكسار الشعاع الدليل
إلى التل والمنـــزل المرمر.
هناك المساء اخضرارٌ نخيل
من التوت والظل والساقيه
وفي الباب مدّ الأمير الجميل
ذراعيه يستقبل الآتيه:
"أميرتيَ الغاليه
لقد طال منذ الشتاء انتظاري
ففيم التأني وفيم الصدود؟"
* * *
وهيهات أن ترجعي من سفار
وهل ميِّتٌ من سفار يعود؟

جيكور ١٩٦١/٤/٢٩

حـدائق وفيقـة*

لوفيقــه

في ظــــلام العـــــالم الســـــفليّ حقـــــل

فيـــــه ممـــــا يـــــزرع المـــــوتى حديقــــــه

يلتقــــــي في جوهـــــا صـــــبح وليـــــل

وخيال وحقيقه

تـــنعس الأنهـــار فيهـــا وهـــي تجـــري

مثقـــلات بالظـــلال

كســـــلال مــــن ثمـــــار، كـــــدوال

سُرِّحــت دون حبـــال

كـــل نهـــر

شـــرفة خضــــراء في دنيـــا ســـحيقه

ووفيقـــه

تتمطـــى في ســـرير مـــن شـــعاع القمـــر

زنبـــقيّ أخضـــر،

في شـــحوب دامـــع، فيـــه ابتســـام

---

* نشرت هذه القصيدة في مجلة "الأديب" البيروتية – عدد أكتوبر ١٩٦١، ثم نشرها الشاعر بعد ذلك في ديوان "المعبد الغريق" – ص ١٧، وهي مؤرخة بتارخي ١٩٦١/٨/١٢ وقد أجرى الشاعر في النص الثاني المنشور في المعبد الغريق عدة تعديلات لغرض فني، ذلك أنه حذف فقرتين في النص الذي كان قد نشر في "الأديب" لأنهما من وزن مختلف عن الوزن الذي استخدمه في بقية فقرات قصيدة. كما سأبين.

مثـــل أفـــق مـــن ضـــياء وظـــلام

وخيـــال وحقيقـــه

أي عطـــر مـــن عطـــور الـــثلج وانِ

صعَّدتــه الشفتـــان

بـــين أفيـــاء الحديقـــه

يا وفيقـــه؟

* * *

نخالهـــا تلـــوح في القـــرار

مـــن جـــدول أحالـــه النـــهار

صـــدى مـــن الميـــاه مقمـــرا.

كـــأن عشـــتروت آخـــى فوقهـــا الحجـــار

صـــفائحاً مـــن الزجـــاج، أصـــبح الثـــرى

ذرّاً مـــن الضـــياء والغبـــار

* * *

والحمـــام الأســـود

يـــا لـــه شـــلالَ نـــور منطفـــي!

يـــا لـــه نهـــر ثمـــار مثْـــها لم يُقطـــف!

يا لـــه نـــافورةً مـــن قـــبر تمـــوز المـــدمّى تصـــعد

والأزاهـــير الطـــوال، الشـــاحبات، الناعســـه

في فتـــور عصـــرت إفريقيـــا فيـــه شـــذاها

ونداهـــا

تعزف النايات في أظلالها السكرى عـذارى لا نراهـا

روحت عنها غصون هامسه

ووفيقه

لم تزل تثقل جيكور رؤاها

آه لو روّى نخيلات الحديقه

من بويب كركرات! لو سقاها

منه ماء المد في صبح الخريف!

لم تزل ترقب باباً عند أطراف الحديقه

ترهف السمع إلى كل حفيف!

ويحها... ترجو ولا ترجو وتبكيها مناها

لو أتاها...!

لو أطال المكث في دنياه عاماً بعد عامِ

دون أن يهبط في سلّم ثلجٍ وظلام!

* * *

هناك حين يهبط الموت في سكون

يسمّر العيون

على شموش تنشر الظلام

هناك يستنيم، في محفّة الغصون

شذى إذا تنشقته روح ميّت غفا

له، ونام

شعوره القديم واستراح للقتام

ووفيقه

تبعث الأشذاء في أعماقها ذكرى طويله

لعشيش بين أوراق الخميله

فيه من بيضاته الزرق اتقاد أخضر

(أي أمواج من الذكرى رفيقه)

كلما رفَّ جناح أسمر

فوقها والتم صدر لامعات فيه ريشات جميله

أشعل الجوَّ الخريفيَّ الحنانُ

واستعاد الضمة الأولى وحوَّاءَ الزمانُ

تسأل الأموات من جيكور عن أخبارها

عن رباها الرُّبد، عن أنهارها

آه والموتى صموت كالظلام

أعرضوا عنها ومروا في سلام

وهي كالبرعم تلتف على أسرارها

والحديقه

سقسق الليل عليها في اكتئاب

مثل نافورة عطر وشراب

وخيال وحقيقه

بين نهديك ارتعاش يا وفيقه

فيه بَرْدُ الموت باك

واشرأبت شفتاكِ

تهمسان العطر في ليل الحديقه

١٩٦١/٨/١٢

(المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها
تطاردها، وراء الليل، أشباح الفوانيسِ
سمعت نشيج باكيها،
وصرخة طفلها، وثغاء صادٍ من مواشيها،
وفي وهج الظهيرة صارخاً "يا حاديَ العيسِ"
وعلى ألمٍ مغنّيها.
ولكن لم أرَ الأموات يطردهنّ حفّارُ
من الحفر العتاق وينـــزع الأكفان عنها أو يغطيها —
ولكن لم أر الأموات، قبل ثراك، يُجليها
مجونُ مدينةٍ، وغناء راقصةٍ، وخمّارُ.
يقول رفيقيَ السكران: "دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر، تحضن الأحياء، تسقينا
شراباً من حدائق برسفون[1]، تعلّنا حتى
تدور جماجمُ الأموات من سُكرٍ مشى فينا!"

[1] ابنة آلهة الخصب اليونانية، اختطفها بلوتو سيد العالم السفلي، عالم الموتى، فصارت تعيش معه هناك.

مدينتنا منازلها رحىً ودروبها نارُ،

لها من لحمنا المعروك خبزٌ، فهو يكفيها...

علام تمدّ للأموات أيديها، وتختارُ،

تلوك ضلوعَها وتقيئها للريح تسفيها!؟

تسلّل ظلّها الناريّ من سِجْن ومستشفى

ومن مبغى ومن خمارةٍ ... من كلِّ ما فيها،

وسار على سلالم نومنا زحفا

ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيبكيها.

وكانت، إذ يُطلّ الفجر، تأتيك العصافيرُ

تساقَطُ، كالثمار على القبور، تنقّر الصمتا

فتحلم أعين الموتى

بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النورُ،

وتسمع ضجةَ الأطفال أُمّ ثلاثةٍ ضاعوا

يتامى في رحاب الأرض: إن عطشوا وإن جاعوا

فلا ساقٍ ولا من مُطعمٍ، في الكوخ ظلوا واعتلى النعشُ

رؤوسَ القوم والأكتاف ... أفئدةٌ وأسماعُ

ولا عينٌ ترى الأمّ التي منها خلا العشّ.

وفي الليلِ

إذا ما ذرذر الأنوارَ في أبدٍ من الظلمه،

ودبّتْ طفلة الكفّين، عارية الخطى، نسمه

تلمٌّ من المدينة، كالمحار وكالحصى من شاطئٍ رملٍ،

نثار غنائها وبكائها — لم تترك العتمه

سوى زَبَدٍ من الأضواء منثور

يذوب على القبور، كأنه اللبنات في سورِ

يباعد عالَمَ الأموات عن دنيا من الذلّ،

من الأغلال، والبوقات، والآهات، والزُّحمه.

وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموتِ

تقلّع أعينَ الأموات ثم تدسُّ في الحفرِ

بذور شقائق النعمان، تزرع حبّة الصمتِ

لتثمر بالرنين من النقود، وضجّة السفر،

وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها.

وعصّرت الدفين من النهود بكلِ أيديها

تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمُرِ

وتركلهنّ كالأكَر

تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها

وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجد

وعاد الحب ملمس دودة وأنين إعصار،

تثاءبت المدينة عن هوىً كتوقّد النارِ

تموت بحرِّها ورمادها ودخانها الهاري،

ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابة

ترددها المقاهي: "ذلك الدلاّل جاء يريد أتعابه"

إذا سمعوك رنّ كأنه الجرس الجديد يرن في الـــسحَرِ

صدى من غمغمات الريف حول مواقد السَمَر:

"إذا ما هزت الأنسام مهد السنبل الغافي

وِسال أنين مجذافِ

كأن الزورق الأسيان منه يسيلُ في حُلُم،

عصرتُ يديَّ من ألَمِ."

فأين زوارق العشاق من سيارة تعلو

ببنت هوىً؟ وأين موائدُ الخمَّار من سهل يمد موائد القَمَر؟

على أمواتك المتناثرين بكلِّ مُنحَدَرِ

سلامٌ جال فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ،

على المتبدّلات لحودُهُمْ والغادِياتِ قبورُهم طُرقا

وطيبُ رقادهم أرَقا

يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلات في الدرب

ويرقب مَوْعدَ الربّ.

١٩٦١/٧/٢١

منطرحاً أمام بابك الكبيرْ

أصرخ، في الظلام، أستجيرْ:

يا راعيَ النمال في الرمالْ

وسامعَ الحصاة في قرارة الغدير.

أصيح كالرعود في مغاور الجبال

كآهة الهجير.

أتسمع النداء؟ يا بوركتَ، تسمعُ.

وهل تجيب إن سمعتَ؟

صائدُ الرجال

وساحِقُ النساء أنتَ، يا مفجّعُ

يا مهلك العباد بالرجوم والزلازلِ

يا موحشَ المنازل

منطرحاً أمام بابك الكبير

أحسّ بانكسارة الظنون في الضمير.

أثور؟ أغضبُ؟

وهل يثور في حماك مذنبُ

* * *

لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ:

الهريُ بالغلال يزحم الظلام في مداه،

وحقليَ الحصيد نام في ضحاه

نفضتُ من ترابه يديّ.

ليأتِ في الغداه

سواي زارعون أو سواي حاصدون!

لتنثرِ القبورَ والسنابلَ السنون!

أريد أن أعيشَ في سلام:

كشمعة تذوب في الظلام

بدمعة أموت وابتسام

تعبتُ من توقُّد الهجير

أصارع العباب فيه والضمير،

ومن لياليّ مع النخيل، والسراج، والظنون

أتابع القوافي

في ظلمة البحار والفيافي

وفي متاهة الشكوك والجنون.

تعبت من صراعيَ الكبير

أشقّ قلبي أطعم الفقير،

أضيء كوخه بشمعة العيون،

أكسوه بالبيارق القديمه

تنثُّ من رائحة الهزيمه.

تعبت من ربيعيَ الأخير

أراه في اللقاح والأقاح والورود،
أراه في كل ربيع يعبر الحدود.
تَعبتُ من تصنّع الحياه
أعيش بالأمس، وأدعو أمسيَ الغدا.
كأنني ممثل من عالم الردى
تصطاده الأقدار من دجاه
وتوقد الشموع في مسرحه الكبير،
يضحك للفجر وملء قلبه الهجير.
تعبت كالطفل إذا أتعبه بكاه!

* * *

أودّ لو أنام في حماك
دثاريَ الآثام والخطايا
ومهديَ اختلاجة البغايا
تأنف أن تمسّني يداك.
أود لو أراك.. من يراك؟
أسعى إلى سدّتك الكبيره
في موكب الخطاة والمعذبين،
صارخة أصواتُنا الكسيره
خناجراً تمزّق الهواء بالأنين:
"وجوهنا اليباب
كأنها ما يرسم الأطفالُ في التراب،

لم تعرف الجمال والوسامه.

تقضّت الطفولة. انطفا سنا الشباب

وذاب كالغمامه،

ونحن نحمل الوجوه ذاتَها،

لا تلفت العيون إذ تلوح للعيون

ولا تشفّ عن نفوسنا، وليس تعكس التفاتَها.

إليك يا مفجّر الجمال، تائهون

نحن، نهيمُ في حدائق الوجوه. آهْ

من عالم يرى زنابق الماء على المياه

ولا يرى المحار في القرار

واللؤلؤ الفريد في المحار!"

* * *

منطرحاً أصيح، أنهش الحجار:

"أريد أن أموت يا إله!"

١٩٦١/٨/٢٦

المومس الأجيرة الحقيره
أكثر من حبيبتي سخاءا
أتيتُها مساءا
معانقاً ... أعانق الهواءا
هبّ من القطب على الظهيره،
مقبّلاً عيونها الخواءا،
كأنني كيشوت في الأصيل
يركض خلف ظله الطويل
ويطعن السنابل الكسيره
يظنها الأعداء.
ضممتُ منها جثةً بيضاءا
تكفنت من داخلٍ، وقبرها
في جوفها تناءى.
حملت منها صخرة صمّاءا
تشدني إلى الثرى،
أرفعها لتلثم الجوزاءا.
الحب أن تبذل، أن تنال ما تريدُ
كالنبع إذ يدفق، لا كالبئرِ،
كالنار تطوي نحوك السماءا

لا شرر الزناد.

أستزيدُ

فألتقي دمي، كغيمة تعيد نفسها للبحر.

أتعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجله

بأن ماءها سيستحيل غيمة إليها مقبله،

تبذله في الفجر

وتلتقي به قبيل العصر؟

أريد أن أضمّ، أن أقبِّلَ

الدم الذي ينبض في الشفاه

كأنما القلب الذي يقبِّلُ.

الجسد الموات لا يحس شهقة الإله

تغور كالمدية حين تقتل

فتبعث الحياة في القتيلِ.

أريد أن أحرق كالحريق من أخيلِ:

في القلب واليدين والكعبينِ

ويأكل النار لظى في عيني.

لو كان ما تحسه الحبيبه

الألم، الدُّوار... لا الخواءا

ما كنتِ مثل غيمة غريبه

ترعد حتى تشعل الهواءا

رعداً

وتأبى الأرض أن تجيبه!

البصرة ١٩٦١/١٢/٢٢

دار جـــدي

مطفأةٌ هي النوافذ الكثار

وباب جدّي موصَدٌ وبيته انتظار

وأطرق الباب، فمن يجيب، يفتحُ؟

تجيبني الطفولةُ، الشباب منذ صار،

تجيبني الجِرار حف ماؤها، فليس تنضح:

"بويب"، غير أنها تذرذر الغبار.

مطفأة هي الشموس فيه والنجوم.

الـــحُقُب الثلاث منذ أن خفقتُ للحياه

في بيت جديَ، ازدحمن فيه — كالغيوم

تُختصر البحار في خدودهن والمياه.

فنحن لا نُلِمُّ بالردى من القبور

فأوجه العجائز

أفصح في الحديث عن مناجل العصور

من القبور فيه والجنائز.

وحين تقفر البيوت من بُناهَا

وساكنيها، من أغانيها ومن شكاها

نحس كيف يسحق الزمان إذ يدور.

* * *

أأشتهيك يا حجارة الجدار، يا بلاط، يا حديد، يا طلاء؟

أأشتهي التقاء كنَّ مثلما انتهى إليّ فيه؟

أم الصِّبا، صباي والطفولة اللعوب والهناء؟

وهل بكيت أن تضعضع البناء

وأقفر الفِناء أم بكيت ساكنيه؟

أم أنني رأيت في خرابك الفناء

محدّقاً إليّ منك، من دمي

مكشّراً من الحجار؟ آه، أيّ برعم

يُربُّ فيك؟ برعم الردى؟! غداً أموت

ولن يظل من قواي ما يظل من خرائب البيوت:

لا أنشق الضياء، لا أعضعض الهواء،

لا أعصر النهار أو يمصّني المساء.

* * *

كأنّ مقلتيّ، بل كأنني انبعثت (اورفيوس)

تمصّه الخرائب الهوى إلى الجحيم

فيلتقي بمقلتيه، يلتقي بها، بيورديس:

"آه يا عروس

يا توأم الشبابْ، يا زنبقةَ النعيم!".

طريقه ابتناه بالحنين والغناء:

براعم الخلود فتّحت له مغالقَ الفناء.

وبالغناء، يا صباي، يا عظام، يا رميم،

كَسوتكَ الرُّواء والضياء

* * *

طفولتي، صباي، أين.. أين كلُّ ذاك؟

أين حياةٌ لا يحدّ من طريقها الطويل سور

كشّر عن بوّابة كأعين الشباك

تُفضي إلى القبور؟

والكون بالحياة ينبض: المياه والصخور

وذرة الغبار والنمال والحديد.

وكل لحن، كل موسمٍ، جديد:

الحرث والبذار والزهور.

وكل ضاحك فمن فؤاده، وكل ناطق فمن فؤاده

وكل نائح فمن فؤاده. والأرض لا تدور

والشمس، إذ تغيب، تستريح كالصغير في رقاده.

والمرء لا يموت ان لم يفترسه في الظلام ذيبْ

أو يختطفه ماردٌ، والمرء لا يشيب

(فهكذا الشيوخ منذ يولدون

الشعَر الأبيض والعصيّ والذقون).

* * *

وفي ليالي الصيف حين ينعس القَمَرْ

وتذبل النجوم في أوائل السَّحَرْ،

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدحٍ ليقتل السعال والهُزال.

وفي المساء كنت أستحمّ بالنجوم،

عيناي تلقطانهنَّ نجمةً فنجمةً، وراكب الهلال

سفينةً .. كأنّ سندباد في ارتحال:

شراعيَ الغيوم

ومرفأي المحال،

وأُبصر الله على هيئة نخلةٍ، كتاج نخلة يبيضُّ في الظلام،

أحسّه يقول: "يا بنيَّ، يا غلام،

وهبتُك الحياة والحنان. والنجوم

وهبتها لمقلتيك، والمطر

للقدمين الغضّتين. فاشربِ الحياه

وعبّها، يحبّك الإله."

* * *

أهكذا السنون تذهبُ

أهكذا الحياة تنضب؟

أحس أنني أذوب، أتعبُ،

أموت كالشجرْ.

حنين في رومــا

يتثاءب جسمك في خلدي

فتُجنَّ عروقْ،

عريان تزلّقَ في أبدِ

تُنهيه الرعشة، فهي شروق

في ليل الشهوة. كل دمي

يتحرق، يلهث، ينفجر،

ويقبّل ثغرك ألفُ فمِ

في جسمي تُنبتُها سَقَرُ

وأحنّ، أتوق.

* * *

وأحس عبيرَك في نَفَسي

ينهدّ، يدندن كالجرسِ.

* * *

ووليمةُ جسمكِ يا واها

ما أشهاها!!

* * *

يا فجر الصيف إذا بردا

يا دفء شتائي، يا قبلاً أتمناها

أحيا منها، وأموت بها وأضم الأمس

أمسّ غدا

* * *

وتعود اللحظةُ لي أبدا.

ما أنأى بيتكِ، ما أنأى عينكِ

بحـــار،

* * *

وجبالُ دم: زَمنٌ جمدا

ليعود مدى. وأحنُّ ، أُثار

* * *

فأحسّ عبيرك في نَفَسي

ينهد، يدندن كالجرِس.

* * *

ما أسعدها، ما أشقاها؟!

أرضي، آسيةُ العريانه

أنا في روما أبكيها وأعيش بذاكرها

ألأنك فيها أهواها؟

* * *

من جوع صغارك يا وطني، أشبعتَ الغرب وغربانه.

صحراء من الدم تعوي، ترجف مقروره

ومرابط خيل مهجوره

ومنازل تلهث أوّاها

ومقابر ينشج موتاها.

وأحسّ عبيركِ في نَفَسي

ينهدّ، يدندنُ كالجرسِ

لو شئتُ لطيفكِ أوربا

وطناً، لحملتُ معي زادي

وعبرتُ مرافئها، وطويتُ شوارعها درباً دربا

أسقيه الشمس وأطعمه قُبلاً وبراعم أورادِ.

لكنك أثبتُ في الشرق...

سأعود فأقطع سلّمنا وثبا

لأضمَّك يا أبدَ الشوقِ

يا نور المرفأ يهدي القلب إذا تاها

يا قصة عنترَ إذ تروى حول التنُّور فأحياها

سأحسّ عبيرك في نفَسي

ينثال ويقرعُ كالجرَسِ

روما ١٩٦١/١٠/١٩

قفي، لا تغربي، يا شمس، ما يأتي مع الليلِ
سوى الموتى. فمن ذا يُرجع الغائب للأهلِ
إذا ما سدّت الظلماء
دروباً أثمرت بالبيت بعد تطاول المحل؟
وان الليل ترجف أكبد الأطفال من أشباحه السوداء
من الشهب اللوامح فيه، مما لاذ بالظلّ
من الهمسات والأصداء.
شعاعك مثل خيط اللابرنث، يشدّه الحب
إلى قلب ابنتي من باب داري، من جراحاتي
وآهاتي.
مضى أزلٌ من الأعوام: آلاف من الأقمار، والقلب
يعد خوافق الأنسام، يحسب أنجم الليل،
يعد حقائب الأطفال، يبكي كلما عادوا
من الكتّاب والحقل.
ويا مصباح قلبي، يا عزائي في الملّمات،
مُنى روحي، ابنتي: عودي إليّ فها هو الزادُ
وهذا الماء. جوعي؟ هاكِ من لحمي

طعاماً. آه!! عطشى أنت يا أمي؟
فعبّي من دمي ماء وعودي.. كلهم عادوا.
كأنك برسفون تخطّفتها قبضة الوحش
وكانت أمها الولهى أقل ضنى وأوهاما
من الأم التي لم تَدْرِ أين مضيتِ
في نعش؟
على جبل؟ بكيت؟ ضحكتِ؟ هبّ الوحش أم ناما؟
وحين تموت نار الليل، حين يعسعس الوسن
على الأجفان، حين يفتش القصّاص في النار
ليلمح من سفينة سندباد ذوائبَ الصاري
ويُخفت صوته الوهَنُ،
يحن دمي إليك، يحن، يعصرني أسىً ضارِ.
مضت عشر من السنوات، عشرة أدهر سود
مضى أزلٌ من السنوات، منذ وقفتُ في الباب
أنادي، لا يردّ عليّ إلا الريحُ في الغاب
تمزق صيحتي وتعيدها... والدرب مسدود
بما تتنفس الظلماءُ من سُمُر وأعنابِ
وأنتِ كما يذوب النور في دوّامة الليل،
كأنك قطرة الطلّ
تشربُها التراب... أكاد من فَرَقٍ وأوصابِ

أسائل كل ما في الليل من شبحٍ ومن ظل،

أسائل كلّ ما طفلِ:

"أأبصرت ابنتي؟ أرأيتها؟ أسمعتَ ممشاها؟"

وحين أسير في الزحمه

أصغّر كل وجه في خيالي: كان جفناها

كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمه،

وكان جبينها... وأراك في أبد من الناسِ

موزّعة فآهٍ لو أراكِ وأنت ملتمّه!

وأنتِ الآن في سَحَر الشباب، عصيره القاسي

يغلغل في عروقك، ينهش النهدين والثغرا

وينشر حولك العطرا،

فيحلم قلبك المسكين بين النور والعتمه

بشيء لو تجسد كان فيه الموت والنشوه!

وأذكر أن هذا العالم المنكود تملأ كأسَه الشقوه

وفيه الجوع والآلام، فيه الفقر والداء.

أأنت فقيرة تتضرع الأجيال في عينيك، فهي فمُ

يُريد الزاد، يبحث عنه والطرقات ظلماءُ؟

أحدّق في وجوه السائلات أحالها السقمُ

ولوّنها الطوى، فأراكِ فيها، أبصر الأيدي

تُمَدّ، أحسّ أن يدي.. يدي معهن تعرض زرقة البرد

على الأبصار وهي كأنمن أدارها صنمُ
تجمَّدَ في مدى عينيه أدعيةٌ وسال دم
فأصرخ "في سبيل الله" تخنق صوتيَ الدمعه
بخيط الملح والماء.
وأنت على فمي لوعه
وفي قلبي، وضوء شع ثم خبا بلا رجعه
وخلّفني أفتش عنه بين دجى وأصداءِ

البصرة ١٩٦١/١٠/٦

وكانت تجمّعُ في خاطري

خيوطٌ ضبابيّةٌ قاتمةْ

نهاياتُها في المدى عائمة

وأعراقها السود في ناظري.

ودارتْ خيوطٌ ولُفَّتْ سواها

فعانقنَ أفْقا

ووسوسْنَ غيماً على الريح مُلقى

تجمّعَ من كل صوب، ورعداً وبرقا:

لقد أغضب الآثمون الإلها

وحقّ العقاب!

يا أفراسَ الله استبقي

يا خيلاً من نارٍ وسحَاب،

من وقْع سنابككِ الرعدُ

والبرق الأزرق في الأُفق

وصهيلك صور لظىً وعذاب،

الوعد!! لقد أزف الوعدُ.

فيا قبضةَ الله، يا عاصفاتُ

يا قاصفات، ويا صاعقهْ

ألا زلزلي ما بناه الطغاةُ

بنيرانك الماحقه!

وتلتمّ في خاطري

خيوطُ السحاب

وتُلقى على الأُفقِ الدائرِ

وراءَ القباب:

وأحسستُ أن الغيوم انتظارْ

وأنّ انتظاراً يشدّ الترابْ

وأصدى... بماذا؟

بصوت انفجار

على الشطّ وادٍ وزمّ الشرار

ورقّعتُ بالنظرة الشامتهْ

ثقوبَ الكوى الصامته:

سيندكّ سورٌ، ستنصبّ نار.

وكان انتظار.

وجمّعتِ الأرضُ أطباقَها:

سيندكّ سورٌ، ستنصبّ نار،

وعصّرت السّحْبُ أعراقها

فبلّ الثرى عاصفٌ ممطر!

جيكور ١٩٦١/١١/٣

عبرتُ أوربا إلى آسيِه
وما انطوى النهارْ
كأنما الجبال والبحار
رُبىً وأطرافٌ من الساقيه
يطفرها الصغار.
بين شروق الشمس والغروبْ
تعانق الشمال والجنوب
ونامت المروج في القفار.
وأنتِ يا ضجيعتي، كأنك الكواكبُ البعيده،
كأنّ بيننا من الكرى جدار.
تضمّك اليدان، تعصران جثة بليدهْ،
كأنني مُعانقٌ دمي على حجار
في منـــزلٍ لصوصُه الرياح والهجير والغيوم،
مساؤه السكون والنجوم
وصُبْحه انتظار.
ترامت السنون بيننا: دماً ونار،
أمدّها جسور

فتستحيل سور،
وأنت في القرار من بحارك العميقه
أغوص لا أمسّها، تصكّني الصخور،
تقطّع العروق في يديّ، أستغيث: "آه يا وفيقه
يا أقربَ الورى إليّ أنت يا رفيقه
للدود والظلام".
عشر سنين سِرتُها إليكِ يا ضجيعةً تنام
معي وراء سورها، تنام في سرير ذاتها،
وما انتهى السّفار
إليك يا مدينة السراب، يا ردى حياتها.
عبرت أوربا إلى آسيه
وما انطوى النهار،
وأنت يا ضجيعتي، مدينة نائيه
مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار.

البصرة ١٩٦١/١١/٢

نبـــوءة ورؤيـــــا

"تنبأ عراف هندي بأن الحياة علـــى الأرض
ستنتهي يـــوم ٢ شـــباط ســـنة ١٩٦٢."

نبوءتُك المريرةُ عذّبتني، مزقت روحي؛
نبوءتك الرهيبةُ، أيها العَراف تبكيني؛
رأيتَ مسالك الأفلاك تُهرع بالملايينِ.
قرأتَ خواطِرَ الريحِ
ووسوسة الظلام كأنّ حقلاً بات ينتحب:
"ستنطفئ الحياة"، ورحتَ ترسم موعدَ القدرِ.
إذا حدجتْنيَ الشهُبُ
هتفت بها: "غداً سنموت. فانهمري على البَشَرِ:
لأهْونُ أن أموت لديك وحدي دون حشرجةٍ ولا أنّهْ
من القدر المروِّع يجرف الأحياء بالآلافْ."
ولكني أصيخ إلى النهار فأسمع العراف
يهدِّد: "سوف يهلك من عليها، سوف تلتهبُ.
وتسرب في دمي جِنّه.
وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظلَموتِ أحلامي
رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثم تنقطع

أفقتُ وما تزال تضيء في خَلَدي وتندلع

كما يتفجّر البركان في ظلمات ليل دون أنسامِ،

بلا قمر وإنْ يك في المحاق أكاد أُقتلع

أكاد أمزق الدم في عروقي بارتعادة روحيَ الحيرى...

أكاد أعانق القبرا.

أرى أفقاً وليلاً يطبقان عليّ من شُرفه

ولي ولزوجتي، في الصمت، عند حدودها وقفه

نحدّق في السماء ونمنع الطفلين من نظر

إلى ما في دجاها الراعب المأخوذ من سقر،

تطفّأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشرر

تطفّأ تحت ذيل الريح وهي تسُفّه سفّا،

كأنّ عصاً تسوق مواكب الأفلاك في صحراء من ظُلَمِ،

ويلهث تحتنا الآجرُّ، يزحف تحتنا زحفا...

تضعضع فهو يُمسِك نفسه ويئن من ألمِ

ليهويَ حين يغفل، حين يعجز ثم ينهارُ:

دجىً نُثرت بها نارُ.

بنيّ إليك صدري، فيه فادفنْ وجهك الطفلا

بنيّ صه أقصّ عليكَ... أيّة قصّة عندي؟

تفجَّرتِ الفقاعة وانتهى أبدٌ إلى حدِّ:

علام أتيتَ للدنيا؟

ليدركَ عُمْرُكَ الليلا؟

لتحيا أربع السنوات ثم لتبصر الساعه
تقوم ولست تُدرك ما تراه؟ تريد أن تحيا
وتجهل أن موتك فيه بعثُك، أن للدنيا
نهاية سلَّمٍ يفضي إلى أبدٍ من الملكوت.

قلبُك؟ آه.... من راعه؟
بكاؤك وارتعابك فيهما لله إحراجُ
وباسمهما اسائله الحساب: أتصرع الأطفال
لتشهد لوعة الآباء؟ تسعد قلبك الآمال
تخيب!!

يكاد يهوي من صراخي عنده التاجُ
ويُهدم عَرْشُهُ ويخرّ، تُطفأ حوله الآباد والآزال
ويقطر لابن آدم قلبه ألماً وينفطر.

بغداد ١٩٦١/١١/٢٦

ذهبت

ذهبتِ فاستحال بعدكِ النهارْ
كأنه الغروبْ،
كأنما سحبت من خيوطه النّضار.
وظلّل المدارج انكسارْ
ومثلَها انكسرتُ، غام في خيالي الجنوبْ
ينوء بالخريفْ
تعرّت الكروم والجداول انطفأنَ، والحفيفْ
يموت في ذرى النخيل، والدروب،
بصمتها، انتظار.
كحّل عينيك سوادُ نار
تشبّ من قلبكِ، من براعم النهود،
يهتف بي إذا نظرتِ: أنتِ في استعار
يا أيّها البركان من ورود.
أوّاه لو أشدّ عينيك إلى النهار،
إلى غدٍ فوق دمي يحومْ.
أيُّ سماء أشعلتها رعشة النجومُ
وأثقل الظلام فيها من ندى المطرْ

نظرتِ من قرارها إليّ، كالغيوم

تكنُّ في اربدادها الزَهَرْ!

يا نظرةً تخطَّفتني ريحها السّموم

إلى الضفاف الخضر من نَهَرْ

غرقتُ فيه، أشعليني! أطفئي اللهيبْ

يا نظرةً يشدّ قلبي بالسما وتر

يعزف مرُّها عليه غنوةَ القمر.

١٩٦٢/١/٢٠

يا نهر

يا نهر عاد إليك من أبد اللحود ومن خواء الهالكين
راعيك في الزمن البعيد، يسرّح البصر الحزين
في ضفتيك ويسأل الأشجار عندك عن هواه
أوراقها سقطت وعادت ثم أذبلها الخريف
وتبدلت عشرين مرَّه.
هيهات يسمع، إذ توسوس في الدجى، أصداءَ آه
بالأمس أطلقها لديك ترنُّ في جرس الحفيف.
كم قبلةٍ عادت دوائر في مياهك مستسرَّه،
دنياه كانت أمس فيك، فهل تعود إلى الحياه؟
ليودَّ من شغفٍ بمائك لو غدا
ظلاً يداعب فيه جنيّاتِه
متعلقاً بشراع كل سفينةٍ
ليجاذب الملاح أغنيّاتِه
وتلوذ أنوار النجوم بصدره
وتراقصُ الأمواج من ضحكاته.
ما أخيب الموتى إذا رجعوا إلى الدنيا القديمه
وتلصصوا يتطلعون كما تطلّع من كُوى دارِ شريدُ

ورأى ثمار الجمر سالَ عصيرها دفئاً وحال عبيرها المهدودُ

ما أخيب الموتى تكاد تحيل مو تهمُ الهزيمه

شيئاً أمرَّ من الحياه.

ما أخيبَ الموتى! تغير كل شيء، كل باقِ

مما أطلّ على الحياة لأنهم كانوا كُواه،

أم مات ما عرفوه إذ ماتوا، فليس سوى رؤاه؟

فتكبَّدوا ألَم الفراقِ،

ألم التغرُّب مرَّتينِ. فيا ضفاف النهر، يا أمواجه ومحاره

ماذا تبقَّى فيكِ من أمس الهوى؟

الدوح أسلم للبلى ورقاتِهِ

وهي التي سمعت لديك حواره

وهي التي أودعتُ فيها، في الضحى،

قبلاتِنا وطويت فيها ناره،

إني ذويتُ مع الظلام كما ذوى

يا ليت لي شفة فتلثم أو يداً فتمسَّ ماءَكْ.

إني لأكثر من غريب غربةً وأشد حيْره؛

لم يبق فيك سوى الزمان، وليس مما فيك قطره

من ماء أمس. كأن فجرَك عادَ قبل غدِ مساءَكْ

وكأن ضفتك الحبيبة ضفّة الأبد البعيدِ.

يا نهر إن وردتْك "هالةُ" والربيع الطلق في نيسانِه

ولّى صباها فهي ترتجف الكهولةَ، وهي تحلم بالورود

في حين أثقلها الجليدُ، كأن نبعاً في اللحود

تمتص منه عروقها دمها، فقل: لم ينس عهدك

وهو في أكفانِه.

أبو الخصيب ١٩٦٢/٢/٢

وذرّى سكونَ الصباحِ الطويلْ
هُتافٌ من الدّيك لا يصدأُ
وهزّ الصدى سَعَفاتِ النخيلْ
وأشرقَ شبّاكُنا المطفأُ.
هتافٌ سمعناه منذ الصِّغَرْ
سمعناه حتى نموتْ
يمرّ على عَتَبَاتِ البيوت
فيرسمُ أبوابَهَا والحُجَرْ
ولا يهدأ
إلى أنْ تسيرَ الحقولْ
إلينا فنقطفَ منها الثمرْ

* * *

وعند الضحى وانسكاب السماء
على الطّين والعُشْبةِ اليابسه،
يشقّ إلينا غصونَ الهواء
صياحٌ، بكاءٌ، غناءٌ، نداء
يُبشّر شطآننا اليائسه
بأنّ المَطَرْ

على مَهْمهِ الرِّيح مدَّ القلوغ،
هو البطّ... فَلْتَهنأي يا شموغْ
بموتٍ به تعرفين الحياةَ
به تعرفين ابتسامَ الدموعْ:
نذوراً تذوبين، للأوْلياءْ.

* * *

صياحٌ... كأنّ الصِّياحْ
ينشُرُّ، مما انطوى من رياح،
سهولاً وراءَ السهولْ
أزاهيرُها في الدجى من نباح
وعند النهار خُزامى، أقاحْ
وختميّةٌ ما لها من ذيول...
ينشُرُّ في شاطئٍ مُشمسٍ
من القَصَبِ الكثِّ غاباً له عَذَبات تطولْ.
صياحٌ كأجراس ماءٍ... كأجراس حقْلٍ من النرجسِ
يُدنْدِنُ والشمسُ تُصغي، يقولْ
بأنّ المطرْ
سيهطلُ قبل انطواء الجناح
وقبل انتهاء السَّفَرْ....

١٩٦٢/٣/١٨

خيولُ الريح تصهلُ، والمرافئُ يَلْمسُ الغرْبُ
صواريَها بشمس من دمٍ، ونوافذُ الحانَه
تراقَصُ من وراءِ خِصاصها سُرُجٌ، وجمّع نَفْسَه
الشَّـــرْبُ
بخيْط من خيوط الخوْف مشدوداً إلى قنّينةٍ، ويمدّ آذانه
إلى المتلاطم الهدّار عند نوافذ الحانهْ.
وحدّث — وهو يهمس جاحظَ العيْنيْن، مرتعدا،
يعبّ الخَمْرَ — شيخٌ عن دجىً ضافٍ وأدغال
تلامحَ وَسْطَها قَمَرُ البحيْرةِ يلثم العَمَدا...
يمسّ البابَ من جنبات ذاك المَعْبدِ الخالي
طواهُ الماءُ في غَلَسِ البحيرةِ بيْن أحراش مبعثَرةٍ
وأدغالِ.

* * *

هنالك قَبْلَ ألْفٍ، حينَ مجّ لظاه من سَقَرِ
فمٌ يتفتّح البُرْكان عنه فتنفضُ الحُمّى
قرارةَ كلّ ما في الوادِ من حَجَرٍ على حَجرٍ،
تفجّر باللظى رَحِمُ البحيرة ينثر الأسماكَ والدمَ،
مُرْغياً سُمّا

وقرٌّ عليه كلكلُ معبدٍ عصفتْ به الحمّى.
تطفأ في المباخر جَمْرُها وتوهّجَ الذّهَبُ
ولاح الدُرّ والياقوت أثماراً من النورِ،
نجوماً في سماء الماء تزحفُ دونها السّحبُ
تمرّغَ فوقَها التمساحُ ثم طفا على السّورِ
ليحرس كنـــزَه الأبديَّ حتى عن يد الظلماء والنور
* * *
وأرسى الأخْطبُوطُ فنارَ مَوْتٍ يرصد البابا،
سجا في عينهِ الصّوْراء صُبْحٌ كان في الأزَلِ....
تمزّأ بالزمان، يمرّ ليْلٍ بعد ليلٍ وهو ما غابا
ففيمَ غرورُ هذا الهالكِ الإنسان، هذا الحاضرِ المشدود
بالأجَلِ؟
أعُمِّرَ ألْفَ عامٍ؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شُرْفةَ الأزَلِ؟
* * *
ألا يا لَيْته شهِدَ السلاحِفَ: تسحقُ الدّنيا
قياصرَها، ويمنع دِرْعُها ما صوّبَ الزَمنُ
إليها من سهام الموت!
لكنّ الذي يحيا
بقلْبٍ يعبر الآبادَ، يكسر حدّه الوَهَنُ
فيصمتُ، عُمْرُه أزَلٌ يمسُّ حدودَه أبَدٌ من الأكوان
في دنيـــا
هنالك ألْفُ كنـــزٍ من كنوزِ العالَم الغرْقى

ستُشبعُ ألْفَ طفْلٍ جائعٍ وتُقيل آلافاً من الداءِ
وتُنقذُ ألف شعْبٍ من يد الجلاّد، لو تَرْقى
إلى فَلَكِ الضمير!

أكلّ هذا المال في دنيا الأرقّاءِ
ولا يتحرّرون؟ وكيف وهو يُصفّدُ الأعناقَ،
يربطها إلى الداءِ؟

كأنّ الماء في ثَبج البحيرة يمنع الزمنا
فلا يتقحّم الأغوارَ، لا يخطو إلى الغرفِ
كأنّ على رتاج الباب طلسمَه، فلا وسنا
ولكنْ يقظةٌ أبَدٌ، ولا مَوْت يحدّ حدودَ ذاك الحاضر
الترفِ
كأنّ لَمجُدَ الكُهّان نبْعٌ في ضمير الماء يدفق منه
للغُرَفِ.

إذنْ ما عاد من سَفَرٍ إلى أهليه عوليسُ...
إذنْ فشراعه الخفّاقُ يزرع فائرَ الأمواجْ
بما حَسَب الشهورَ وعدّ حتّى هدّهُ البؤسُ.
فيا عوليس... شابَ فتاك، مَبْسم زَوْجكَ الوهّاج
غدا حَطَباً. ففيم تعود، تفري نحو أهلك أضلعَ الأمواجْ
هلُمّ فماء شيني[1] في انتظاركَ يحبس الأنفاسْ
فما جرحتْه نَقْرةُ طائرٍ أو عكرته أناملُ النّسمِ.

* * *

[1] بحيرة في الملايو غرق المعبد إلى قرارتها.

هلُم فإنّ وحْشاً فيه يحلم فيكَ دونَ الناسْ
ويخشى أن تفجِّرَ عيْنه الحمراءَ بالظلمِ
وأنَّ كنوزَهُ العذراء تسأل عن شراعكَ خافقَ النَّسَمِ.
أما فجعتْك في طروادةَ الآهاتُ من جَرْحى
ومحتضرين؟
يا لدمٍ أريقَ فلطّخ الجدْرانْ
وردّ ترابَها الظمآن طيناً، ردّه جُرْحا
كبيراً واحداً، جرْحاً تفتح في حشا الإنسان
ليصرخَ بالسماء.
فيا لصوتٍ ردّدته نوافذُ الحجُرات والجدران:
* * *
"لأجْلِ فُجورِ أُنثى وانْقيادِ مُتوِّجٍ بالنارْ
تخضبُ من دمِ المُهجات حتى سُلّمِ الأفقِ؛
وحلَّ بلا أوانٍ يوْمنا، وتساوت الأعمار
كزرعٍ منه ساوى منجلٌ...
وهناك في الشّفَقِ
تنوحُ نساؤنا المترمّلات، يُوَلوِل الأطفال عند مدارج الأفق".
* * *
هلمَّ فقد شهدتُ، كما شهدتَ، دماً وأشلاءا:
تفجَّر في بلادي قُمْقُمٌ ملأته بالنارِ
دهورُ الجوع والحرمان.
أيَّ خليقةٍ قاءا؟

رأيْنا أنّ أفئدةَ التّتار، وأذْؤبَ الغارِ

أرقّ من الرّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنار

شفاهَ الحَلْمةِ العذراء.

يا نَهْراً من الحِقْدِ

تدفّقَ بالخناجر والعِصيِّ، بأعْينٍ غضبى:

نجوماً في سماء شدّها قابيلُ بالزّنْدِ.

فليْتك حين هزّ الموْصِلَ الأعصارُ (لا دَرْبا

ولا بيتاً، ولا قبْراً نجا فيها) شهدتَ الأعْيُنَ الغَضبى

ولَيْتَك في قطارٍ مرّ حين تنفّس السّحَرُ

فقصّ، على سرير السكّةِ الممدود، أمراسا[1]

تعلّقَ في نهايتهنّ جسْمٌ يحصدُ النّظَرُ

عليه الجُرْحَ بعد الجُرْح بعد الجرح أكْداسا

ليهويَ جسم "حفصة"[2] لابساً فوق النجيع دماً

وأمراسا.

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيْرة أو حفافيها

كواسجَ[3] ضارياتٍ أو تماسيحَ التظتْ لهَبا

نواجذُها الحديدة؟ فيم نخشى كلّ ما فيها؟

فإنّ عقارب الرّقّاع[4] يُضمر سمّها العَطَبا

---

[1] الأمراس: الحبال.

[2] إحدى شهيدات الموصل (العراق).

[3] سمك القرش، كلاب البحر.

[4] أحد أبطال المد الفوضوي في العراق... ينزل السجن الآن محكوما عن سبع جرائم.

وتزرع في الجسوم أزاهرَ الدم والجراحَ بلا دمٍ لهَبا

* * *

هلُمّ نشقّ في الباهَنْج[1] حقلَ الماء بالمجذافْ
وننثر أنجُمَ الظلماء، نُسقطُها إلى القاعِ
حصىً ما ميّزتْه العيْنُ عن فَيْروزه الرفّاف
ولؤلؤهِ المنقّطِ بالظلام.

سنُرعب الراعي
فيُهرع بالخرافِ إلى الحظيرةِ خَوْفَ أن يغرقْنَ في القاعِ.

* * *

هلُمّ فَلَيْلُ آسيةَ البعيد مداه، يدعونا
بصوتٍ من نُعاس، من ردىً، من سجْع كُهّانِ.
هلُمّ... فما يزال الدهرُ يُطوى بين أيدينا.
لنطْوِ دُجاه قبل طلوع شمسٍ دونَ ألوانِ
تبدِّد عالَمَ الأحلام، تُخفِتُ – إذْ يرنُّ التّبرُ فيها –
سَجَعَ كُهّانِ!

* * *

يجول التّبرُ فيها مثل وَحْشٍ يأكلُ الموْتى
ويشرب من دم الأحياء، يسرق زادَ أطفالِ
ليتّقدَ اللظى في عَيْنه، ليُعيره صَوْتا
يحطّمُ صوتَ كلّ الأنبياء هناك.

[1] النهر المؤدي إلى بحيرة شيفي.

يا لرنين أغلالِ

ويا لصدىً من الساعات، بالأكفان مسَّ رؤوسَ أطفالِ

وفلَّ عناقَ كلِّ العاشقين، ودسَّ في القُبْله

مُدىً من حَشْرجات الموت، ردّ أصابعَ الأيْدي

أشاجعَ غابَ عنها لحمها، وستائرُ الكُلّه

يحوّلها صفائح تحتها جُثثٌ بلا جلْدِ

هلُمَّ فبَعْدَ ما لمح المجوسُ الكوكبَ الوهّاج تُبْسَطُ

نحوه الأيدي

ولا ملأت حِرَاءَ[1] وصُبْحَه الآياتُ والسّوَرُ.

هلُمَّ فما يزال زيوس يصبغ قمَّة الجَبَلِ

بخمرتِه، ويُرسل ألف نسْرٍ نزّ من أحداقِها الشَّرَرُ

لتخطف من يُدير الخمر[2] يحمل أكؤسَ الصهباء

والعَسَل

هلُمَّ نزور آلهةَ البحيرة،

ثم نرفعُها لتسكن قمَّةَ الجبل!

البصرة ١٩٦٢/٢/١٧

---

[1] الغار الذي نزل الوحي فيه على محمد.

[2] غانيميد الشاب اليوناني الذي أرسل إليه زيوس (كبير الآلهة) نسرا فاختطفه وأصبح ساقيا للآلهة.

أفيـــاء جيكــور

نافورة من ظلالٍ، من أزاهيرِ

ومن عصافيرِ...

جيكورُ، جيكورُ، يا حَقلاً من النور

يا جدولاً من فراشاتٍ نُطاردها

في الليل، في عالم الأحلام والقَمَرِ

ينشرْنَ أجنحة أندى من المطرِ

في أوْل الصيف.

يا بابَ الأساطيرِ

يا بابَ ميلادنا الموصولَ بالرحِمِ

من أين جئناكِ، من أيّ المقاديرِ؟

من أيّما ظُلَمِ؟

وأيّ أزمنةٍ في الليل سرناها

حتى أتيناك أقبلنا من العَدَمِ؟

أم من حياة نسيناها؟

جيكورُ مسّي جبيني فهو ملتهبُ

مسّيه بالسّعَفِ

والسنْبل الترِفِ.

مُدّي عليَّ الظلالَ السمْرَ، تنسحبُ
ليلاً، فتخفي هجيري في حناياها.

* * *

ظلٌّ من النخْل، أفياءٌ من الشَّجَرِ
أندى من السَّحَرِ
في شاطئ نام فيه الماء والسُّحبُ...
ظلٌّ كأهداب طِفلٍ هدّه اللعِبُ،
نافورةَ ماؤها ضوء من القَمَر
أودّ لو كان في عينيّ ينسربُ
حتى أحسّ ارتعاش الحُلم ينبع من روحي وينسكب
نافورةَ من ظلالٍ، من أزاهيرِ
ومن عصافير....

* * *

جيْكورُ... ماذا؟ أنمشي نحن في الزّمَنِ
أم أنه الماشي
ونحن فيه وقوفٌ؟
أين أوَّله
وأين آخرُه؟
هل مرّ أطوَله
أم مرّ أقصره الممتدّ في الشَجَنِ
أم نحن سيَّانِ، نمشي بين أحراشِ
كانت حياةَ سوانا في الدياجيرِ؟

هل أنّ جيكور كانت قبل جيكورِ

في خاطر الله.. في نبْعٍ من النور؟

جيكور مدُّي غِشاءَ الظلّ والزهَرِ،

سُدّي به باب أفكاري لأنساها.

وأثقلي من غصونِ النوْم بالثمَرِ

بالخوْخ والتين والأعناب عاريةً من قِشرها الخِصرِ.

رُدّي إليَّ الذي ضيّعْت من عُمُري

أيّام لهْوي... وركضي خَلفَ أفراسِ

تعدو من القَصَص الريفيّ والسّمَرِ؛

ردّي أبا زَيْدَ، لم يصحب من الناسِ

خلاّ على السفرِ

إلاّ وما عاد.

ردّي السندباد وقد ألقته في جُزُرِ

يرتادها الرخُّ ريحٌ ذات أمراسِ

* * *

جيكورُ لُمّي عظامي، وانفضي كفَني

من طينِه، واغسلي بالجدْوَل الجاري

قلبي الذي كان شبّاكاً على النارِ.

لوْلاك يا وطني،

لولاك يا جنّتي الخضراء، يا داري

لم تَلقَ أوتاري

ريحاً فتنقل آهاتي وأشعاري،

لولاك ما كان وَجْهُ الله من قدري

أفياءُ جيكورَ نبْع سال في بالي

أبلّ منها صدى روحي...

في ظلّها أشتهي اللقيا، وأحلم بالأسفار والرّيحِ

والبحر تقدح أحداق الكواسج في صخابه العالي

كأنها كِسَرٌ من أنجمٍ سقطتْ

كأنها سُرُجُ الموْتى تقلبُها أيدي العرائس من حالٍ

إلى حالِ.

أفياءُ جيكور أهواها

كأنها انسرحتْ من قبرها البالي،

من قبر أمي التي صارت أضالعها التعبى وعيناها

من أرض جيكور... ترعاني وأرعاها.

جيكور ١٩٦٢/٣/١٧

الشاعر الرجيم

"إلى شارل بودلير"

حملتَ للنـــزالِ سيفكَ الصديءْ
يهتـــز في يدٍ تكاد تُحرق السماءْ
من دمها المتقد المضيء،
تريدُ أن تمزّق الهواء.
وتجمعُ النساء
في امرأةٍ شفاهُها دمٌ على جليدْ
وجسمها المخاتل البليد
أفعى إذا مشت، وسادة على الفراش...
لا تُريدْ
أن تفتح الكوى ليدخل الضّياء
كيْ لا تُحسّ أنها خُواء.
ويرفع الشّرْقُ أمام عينك الستورْ،
توشك أن تعانقَ الجمَال عند سُدَّةَ الإله،
تكاد أن تراه
يهفُّ وسْطَ غيْمةٍ من عَبَقٍ ونور.
تراه في حَلمة نَهْدٍ توقد النجومْ

بجمرةٍ لها...

أريتَه يقوم

من قبره، تحمله سحابةُ الدّخانْ

ينام تحت ظلّها الفقير والشريد:

فهو أميرٌ حوله الكؤوسُ والقيان،

وبيْته العتيد

جزيرةٌ من جُزر المرْجان

كأنّ بحراً غاسلاً لسبوسَ[1] بالأجاج

تشربه روحك من صدىً إلى القرارْ

كأن سافو أورثتك من دم العروق نار،

وأنت لا تضمّ غير حُلْمك الأبيدْ

كمن يضمّ طيْفَه المُطلّ من زجاجْ:

حُرْقةُ نرسيس، وتنتلوسُ[2] والثمارْ!

كأنّ أفريقيةَ الفاترة الكسولْ

(أنهارُها العراضُ والطبول

وغابُها الثقيلُ بالظلال والمطرْ،

وقيْظُها النديّ.. والقَمَر)

تكورتْ في امرأةٍ خليعة العذار

رضعتَ منها السُمّ واللهيبْ،

---

[1] الجزيرة التي اتخذت الشاعرة الأغريقية سافو هيكلا لها فيها.

[2] عشق نرسيس ظله. وتنتلوس جائع أبدا يقترب من فمه غصن مثقل بالثمار، حتى إذا كاد يأكل أبعدت الريح الغصن عن فمه.

قطرْتَ فيها سُمّكَ الغريب...
كأنّها سحابةُ الدخانِ والخَدَرْ
أقمْتَ منها، بين عالم تَشدّه نوابضُ النّضار
وبين عالمٍ من الخيالِ والفِكَرْ،
من نشوةٍ جدار
تقبع خلف ظلّه فلا ينالُكَ البَشَر.
دخلتُ، من كتابك الأثيم،
حديقةَ الدم التي تؤجّ بالزّهَرْ،
شربتُ من حروفه سلافةَ الجحيم
كأنّها أثداء ذئبةٍ على القفار
حليبُها سُعار
وفيئُها نعيم.
غرقتُ فيه، صكّني العُبابْ
يقذفني من شاطئٍ لشاطئٍ قديم،
حملتُ من قراره محارةَ العذاب
حملتُها إليْكْ
فمُدّ لي يديْك
وزحزحِ الصخورَ والتراب

البصرة ١٩٦٢/٣/٢٤

لأنـي غـريب

لأنّي غريبْ
لأنّ العراقَ الحبيب
بعيد، وأنّي هنا في اشتياقْ
إليْه، إليْها... أنادي: عراق
فيرجع لي من ندائي نحيب
تفجّر عنه الصدى
أحسّ بأني عبرتُ المدى
إلى عالمٍ من ردى لا يجيب
ندائي؛
وإمّا هززْتُ الغصونْ
فما يتساقطُ غيْرُ الردى:
حجارْ
حجارٌ وما من ثمار،
وحتّى العيون
حجارٌ، وحتى الهواء الرطيب
حجارٌ يندّيه بعضُ الدمِ.
حجارٌ ندائي، وصَخْرٌ فمي
ورجْلاي ريحٌ تجوب القفار.

بيروت ١٩٦٢/٤/١٥

وتراجع الطوفان، لملمَ كل أذيال المياه
وتكشّفت قمم التلال، سفوحها، وقرى السهول،
أكواخها وبيوتها خِرب تناثر في فلاه.
عركت نيوب الماء كل سقوفها ومشى الذبول
فيما يحيط بهنَّ من شجر... فآه
آهِ على بلدي، عراقي: أثمر الدم في الحقول
حسكاً، وخلّف جرحه التتريَّ ندباً في ثراه.
يا للقبور كأن عاليها غدا سفلاً وغار إلى الظلام
مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق.
يتنفس الأحياء فيها كل وسوسة الرغام،
حتى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق.
جثث هنا، ودمٌ هناك...

وفي بيوت النمل مدٌّ من الجفون

سقف يقرمده النجيع، وفي الزوايا
صفر العظام من الحنايا.
ماذا تخلّف في العراق سوى الكآبة والجنون؟
أرأيت أرملة الشهيد؟

الزوج مد عليه من ترْبٍ لحافاً ثم نام

متمدداً بأشد ما تَجد العظام

من فسحة: سكنت يداه على الأضالع،

والعيون

تغفو إلى أبد الإله، إلى القيامة: في سلام.

رمت الرداء العسكريَّ ونشّرته على الوصيد...

لثمته، فانتفض القماش يرد برد الموت،

برد المظلمات من القبور.

يا فكرها عجباً.. ثقبت بنارك الأبد البعيد،

يا فكر شاعرة يفتش عن قوافٍ للقصيد

ماذا وجدت وراء أمسي وعبّرَ يومك من دهور؟

"الثأر" يصرخ كل عرق، كل باب

في الدار. يا لفم تفتّح كالجحيم... من الصخور،

من كل ردن في الرداء، من النوافذ والستور،

من عيني ابنك، يا شهيد، تسائلان، بلا جواب،

عنك الأسرة والدروب، وتسألان عن المصير،

مذ ألبسته الأم ثوبك في معاركك، الأثير

ويداه في الردنين ضائعتان، والصدر الصغير

في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب

ورنا إلى المرآة

أبصرَ فيه شخصك في الثياب.

- "آبني كان أبوك نبعا من لهيب، من حديد،
سوراً من الدم والرعود،
ورماه بالأجل العميل فخرَّ – واهاً – كالشهاب،
لكن لمحاً منه شع وفض أختام الحدود
وأضاء وجه الفوضوي ينــز بالدم والصديد
وكأن في أفق العروبة منه خيطاً من رغاب".
وتنفس الغد في اليتيم ومد في عينيه شمسهْ
فرأى القبور يهب موتاهن فوجاً بعد فوج
أكفانها هرئت...
ولكن الذي فيها يضم إليه أمسهْ
ويصيح "يا للثار ... يا للثار..."
يصدي كل فج
وترنّ أقبية المساجد والمآذن بالنداء.
وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء.

البصرة ١٩٦٣/٣/٩

فـــرار عام ١٩٥٣

في ليلةٍ كانت شرايينها
فحماً، وكانت أرضُها من لحود
يأكل من أقدامنا طينُها،
تسعى إلى الماءِ،
إلى شراعٍ مزقته الرعود
فوق سفينٍ دون أضواءِ،
في الضفة الأخرى... يكاد العراق
يومئ؟ يا أهلاً بأبنائي
لكنّنا، واحسرتا، لن نعود
أواهُ لو سيكارةٌ في فمي
لو غُنْوَةٌ... لو ضمَّةٌ، لو عناق
لسَعْفةٍ خضراءَ أو بُرعم
في أرضيَ السكرى برؤيا غدِ.
إنّا مع الصبح على موعدِ
رغم الدجى ... يا عراق!
ريفٌ وراء الشطِّ بين النخيلْ
يغفو على حُلمٍ طويل طويل،

تثاءبتْ فيه ظلالٌ تسيل

كالماء بين الماء والعُشبِ.

يا ليتَ لي فيهِ

قبراً على إحدى روابيهِ،

يا لَيتني ما زلت في لعبي

في ريف جيكورَ الذي لا يميل

عنه الربيعُ الأبيضُ الأخضرُ:

السّهْل يندى والرّبى تُزهرُ.

ويطفئ الأحلام في مقلتيّ

- كأنها منفضةٌ للرمادْ -

هَمسٌ كشَوكٍ مسّ من جبهتي

يُنذر بالسارين فوقَ الجياد

سنابكُ الخيْل مساميرُ نارْ

تدقّ تابوت الدجى والنهار:

ناعورةٌ تحرس كرْمَ الحدود

أثقلَ طينَ الخوف ما للفرار

من قدم تدمى... ومدّ السّدود.

أمن بلادي هاربٌ؟ أيّ عار!!

وارتعشَ الماءُ وسار السّفينْ

وهبّتِ الريحُ من الغرْبِ

تحمل لي دَرْبي...

تحمل لي من قبرها ذرّ طينْ،

تحمل جيْكورَ إلى قلبي.

يا ريحُ يا ريحُ

توهَّجتْ فيكِ مصابيحُ

من ليل جيكور، أضاءت ظُلمةَ السفينْ

لأبصرَ الأعينَ كالشُّهْبِ

تلتمّ حَوْلي، لأراها تلين!

وأنجُمُ الشطّ زهورٌ كبارْ

أوشكْتُ أن أُبصرَ سيقانَها

تمتدّ في الماء، تمسّ القرار،

لَمْلَمَ فجرُ الصيف ألوانَها

كأنّها أوجُهُ حورٍ تحار

فيها تباريحُ الهوى والحياءْ...

كأنّها زنبقُ نارٍ وماء.

البصرة ١٩٦٢/٣/٢١

جيكـور شـابت

ما نفضْتُ الندى عن ذرى العُشْب فيها،

ما لثمتُ الضبابَ الذي يحتويها،

جئتُها والضّحى يزرع الشمس في كلّ حَقل وسطْحِ

مثلَ أعواد قَمْحِ.

فرّ قلبي إليها كطَيرٍ إلى عُشّه في الغروب.

هل تُراهُ استعاد الذي مرّ من عُمْرِهِ، كل جُرْحِ / وابتسامٍ؟

أبعد انطفاءِ اللهيبِ

يستطيع الرماد اتّقاداً؟ ومن أين؟ من أيّ جَمْرَه؟

يا صباي الذي كان للكون عطراً وزهْواً وتيها...

كان يومي كعامٍ، تعدُّ المسرّه

فيه نبْضاً لقلبي تفجّر منها على كلّ زهره.

كانت الأرض تلقى صباها لأوّل مرّه...

كان قابيلُها بذرةً مُسْتسِرّه...

كان للأرض قلبٌ، أُحسُّ به في الدروب،

في البساتينِ، في كل نهْرٍ يُروّي بنيها.

آه جيكور، جيكور...

ما للضّحى كالأصيلِ

يسحب النُّور مثلَ الجناحِ الكليل؟
ما لأكواخكِ المقفرات الكئيبه
يُحبس الظلُّ فيها نَحيبَه؟
أين أيْنَ الصبايا يوسْوسْنَ بين النخيل
عن هوىً كالتماع النجوم الغريبه
أو يُجرّرْنَ أذيالهن التي لوَّنتْهنَّ أقمار صَيْف
أو شموسٌ خريفيَّةٌ، عند شطٍّ ظليلِ
الشِّفاهُ ابتساماتُ حبٍّ وخَوْف؟؟؟
عجائزُ أو في القبور - ...
عجائزُ يغزلْنَ حول الصّلاء
ويروينَ، عبْرَ الكرى والفتور،
أقاصيصَ عن جنّةٍ في بيوتٍ خُواءْ،
لأحفادهنَّ اليتامى.
وجيكور شابتْ وولى صباها
وأمسى هواها
رماداً، إذا ما
تأوَّهْنَ هزّته ريحُ..
أثارته حتى ارتمى في صداها
هباءً وذرّاً تضيقُ الصدور
به عن مداها.
أين جَيْكورُ؟

جيكور ديوانُ شعري،

موعدٌ بين ألواح نعشي وقبري

كرْكرات المياه التي كسّر الشمس منها ارتجافُ،

والأنينُ الذي منه كنا نخافُ

صاعداً مثل مدّ تنـــزّ القبور

عنه، والشمس تمتصّ من كلّ هر.

ودرابك في الأرض تنقرهنّ البذور

وهي تنشقّ في كلّ فجْرِ —

ذكرياتٌ ... كما يترك الصوت من ميِّت

في خيال رنينه

مثلُ ناي تشظّى وأبقى أنينه.

ايه جيكور، عندي سؤالٌ، أما تسمعينه؟

هل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه

أم تُرى أنتِ قبر لها؟ فابعثيها

وابعثيني

وهيهات! ما للصّبى من رجوعِ.

إن ماضيَّ قبري وإني قَبْرُ ماضيَّ:

موتٌ يمدّ الحياةَ الحزينَه؟

أم حياةٌ تمدّ الرَّدى بالدموعِ؟

* * *

ما نفضتُ الندى عن ذرى العشب فيها.

جيكور ١٩٦٢/٤/٢

وحتىَ حين أصهرُ جسمَكِ الحجريّ في ناري
وأنزع من يديكِ الثلج، تبقى بينَ عينينا
صحارى من ثلوج تُنهك الساري،
كأنك تنظرين إليّ من سُدُمٍ وأقمارِ،
كأنّا، منذ كنّا، في انتظارٍ ما تلاقيْنا.
ولكنّ انتظار الحبّ لُقيا... أين لقيانا؟
تمزّقَ جسمُك العاري...
تمزقَ، تحتَ سقْفِ الليل، نَهْدُكِ بين أظفاري...
تمزقَ كل شيءٍ من لهيبي، غيرَ أستارِ
تحجِّبُ فيك ما أهواهْ.
كأنّي أشرب الدمَ منك مِلْحاً ظلّ عطشاناً
مَن استسْقاه. أين هواكِ؟ أين فؤادكِ العاري؟
أسدّ عليك بابَ الليل ثم أُعانقُ البابا
فألثمُ فيه ظلّي، ذكرياتي، بعض أسراري...
وأبحثُ عنك في ناري
فلا ألقاكِ، لا ألقى رمادكِ في اللّظى الواري.
سأقذف كل نفسي في لظاها، كلَّ ما غابا
وما حضرا.

أريدُك فاقتليني كيْ أُحِسّكِ.

واقتلي الحجرا

بفيض دمٍ، بنارٍ منك... واحترقي بلا نارِ؟

بيروت ٢٦/١٠/١٩٦١

سهرتُ فكل شيءٍ ساهرٌ: قدماي والمصباحْ
وأوراقي.
أنا الماضي الذي سدّوا عليه البابَ، فالألواح
غدي والحاضر الباقي.
أنا الغد في ضمير الليل، مدّ الليل ألفَ جناح
عليه، فطار، لما طار، بالظلماء والشّهْبِ.
أصخْتُ السّمعَ والظلماءُ حولي بوقُ سياره
يبثّ إلى البغيِّ رسالةَ الحبِّ
ويومئ للسكارى: أن تعالوا، ألفُ خمّاره
تكشر، تفرج الساقين، تقطع نَومةَ الدرب
بوَهوَهةِ النيون.
أصختُ والظلماء «صفارة
وخطوةُ حارسٍ...
فذكرتُ نهر القرية المكسالْ
يسيل لكي يعيش، لكي يموت، يمصّه الجزْرُ
فيعرى جَرْفُهُ الطينيُّ حتى يُقبلَ الفجرُ
فيحمل في سناه المدّ، يحمل زورقاً يختال

بصيادٍ يُعدُّ شباكه ويرود في الماء
مسارِبَ كلِّ ناعسةٍ من الأسماكِ خضراءِ.
ذكرتُ مقابرَ الأطفال
تلوذ بكلِّ سفحٍ، نام فيها دون أثداءِ
ولا قُمُطٍ، صغارٌ من حصاد الجوع والداءِ
لقد رضعوا من الثدي الذي لم تُبله الأجيالْ
وناموا في حمى الأمِّ التي لا يستوي الأطفال
ولا الأشياء إلا في حماها، في حمى تَرَبٍ وظلماءِ.
سهرت الليل في بيروت، لا بين المواخيرِ
(كهوف العالم المتحضِّر المغسول بالنور)
هنا يتوكأون على العظام ليصعدوا أفقاً من النشوه،
لينحدروا إلى فجوه
تثاءبَ ظلُّها وأصيلها بين الدياجير
وبين منابع الأضواءْ،
تثاءب ظلّها وأصيلُها بين العقارب والسنانير
وبين المُسرِج الظلماءَ
والممتدِّ حتى اللهِ في القدْس وفي سيناء.
سهرت يرنّ صورُ الموت في أذنيّ كالزلزالْ:
"تهدَّم حائط الأجيال
وكاد يغور إذ لمسته كفيّ، ألفُ نوحٍ زالْ
وألفُ زليخةٍ صيَّرتُ كحلَ عيونها ظُلْمه.

أنا الباقي بقاء الله أكتب باسمه الآجال

وما لسواه عند مطارق الآجال من حُرمه."

هنا في كلّ موتٍ ألفُ موتٍ: كان في الضمّه

وفي القبلات، في الأقداح،

تدور الأسطوانةُ وهو فيها لمعةُ الضَّوْءِ

يوَسوِسُ في تهدّجِ صوتِها فيُخادع الأرواح،

ويلمس جبهةَ الملاّح في النّوءِ.

سهرتُ لأنني أدري

بأني لن أقبِّل ذاتَ يوم وجنةَ الفجْرِ

سيُقبل مطلقاً في كل عشٍّ نغمةً وجناح

وسوف أكون في قبري.

بيروت ١٩٦٢/٤/١٥

الوصيـــة

من مرضي،

من السرير الأبيضِ

من جاريَ انهار على فراشه وحشرجا

يمصّ من زجاجةٍ أنفاسَه المصفّره،

من حُلمي الذي يمدّ لي طريقه للمقبره

والقمرَ المريضَ والدجى...

أكتبها وصيّةً لزوجتي المنتظره

وطفليَ الصارخ في رقاده: "أبي، أبي"،

تلمُّ في حروفها من عُمْريَ المعذَّبِ.

لو أنَّ عوليسَ وقد عاد إلى ديارِهِ

صاحتْ به الآلهةُ الحاقدةُ المدمِّره

أن ينشرَ الشراعَ، أن يضلَّ في بحاره

دون يقينٍ أن يعود في غدٍ لداره،

ما خضَّه النذيرُ والهواجسُ

كما تخضُّ نفسيَ الهواجسُ المبعثره،

اليوم ما على الضمير من حياءٍ حارسْ:

أخافُ من ضبابةٍ صفراء

تنبع من دمائي
تلفّني فما أرى على المدى سواها
أكاد من ذلك لا أراها،
يقصُّ جسميَ الذليلَ مِبْضَعُ
كأنه يقصُّ طينةً بدون ماءِ
ولا أُحسّ غير هبَّةٍ من النسيم ترفعُ
من طرَف الستائر الضِّباب
ليقطرَ الظلامُ، لستُ أسمع
سوى رعودٍ رنَّ في اليباب
منها صدىً وذاب في الهواءِ...
أخاف من ضبابةٍ صفراءِ!
أخاف أنْ أزلقَ من غيبوبة التخديرِ
إلى بحارٍ ما لها من مرسى
وما استطاع سندبادُ حين أمسى
فيهنَّ أن يعودَ للعودِ وللشراب والزهور،
صباحها ظلامْ
وليْلُها من صخرةٍ سوداء.
من ظلِّ غيْبوبتيَ المسجور
إلى دجى الحِمامْ
ليس سوى انتقالةِ الهواءِ،
من رئةٍ تغفو، إلى الفضاءِ.

أخاف أن أُحس بالمبضع حين يجرحُ
فأستغيث صامتَ النِّداءِ
أصيح لا يردّ لي عوائي
سوى دمٍ من الوريد ينضَح.
وكيف لو أفقتُ من رقاديَ المخدَّرِ
على صدى الصور، على القيامة الصغيره:
يحمل كلُّ ميِّتٍ ضميرَه
يشعُّ خلف الكفن المدثَّرِ،
يسوق عزرائيلُ من جموعنا الصّفر إلى جزيره
قاحلةٍ يقهقه الجليدُ فيها،
يصفر الهواء في عظامنا ويبكي.
ماذا لو انَّ الموْتَ ليس بعده من صَحْوَه،
فهو ظلامٌ عَدَمٌ، ما فيه من حسٍّ ولا شعورا
أكلُّ ذاك الأُنسِ، تلك الشقْوه
والطمعِ الحافرِ في الضمير
والأملِ الخالقِ من توثُّبِ الصغيرِ
ألفَ أبي زيدٍ تفور الرغْوَه
من خيله الحمراء كالهجير...
أكلُّها لهذه النهايه؟
تُرى الحِمامُ للحياة غايه؟

* * *

إقبالُ يا زوجتيَ الحبيبة

لا تعذليني ما المنايا بيدي

ولستُ، لو نجوْتُ، بالمخلَّدِ.

كوني لغيلان رضىً وطِيبه

كوني له أباً وأماً وارحمي نحيبه

وعلّميه أن يُذيلَ القلب لليتيم والفقير

وعلميه...

ظُلْمةُ النعاس

أهدابُها تمس من عيونيَ الغريبه

في البلد الغريب، في سريري

فترفع اللهيب عن ضميري...

لا تحزني إن متُّ أيُّ باس

أن يُحطَمَ الناي ويبقى لحنه حتى غدي؟

لا تبعدي

لا تبعدي

لا...

بيروت ١٩٦٢/٤/١٩

مَنزِل الأقنَان

(١٩٦٣)

رحـــل النهـــار

رحل النهار

ها إنه انطفأت ذبالتُه على أفقٍ توهَّج دون نار

وجلستِ تنتظرين عودة سندبادَ من السِّفار

والبحرُ يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود.

هو لن يعود،

أوَ ما علمتِ بأنه أسرتْه آلهةُ البحار

في قلعةٍ سوداء في جزرٍ من الدمِ والمحار.

هو لن يعود،

رحل النهار

فلترحلي، هو لن يعود.

الأفقُ غابات من السحب الثقيلة والرعود،

الموتُ من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار

الموتُ من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار

رحل النهار

رحل النهار.

وكأنّ معصمكِ اليسار
وكأنّ ساعدكِ اليسار، وراء ساعته، فنار
في شاطئٍ للموت يحلم بالسفين على انتظار.
رحل النهار
هيهات أن يقف الزمان، تمر حتى باللحودِ
خطى الزمان وبالحجار.
رحل النهار ولن يعود.

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود
الموت من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار
الموت من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار
الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار
رحل النهار
رحل النهار.
خصلات شعرك لم يَصُنْها سندبادُ من الدمار،
شربتْ أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار
ورسائل الحب الكثار
مبتلــــّةٌ بالماء منطمسٌ بها ألَق الوعود
وجلستِ تنتظرين هائمة الخواطر في دوار:
"سيعود. لا. غرق السفين من المحيط إلى القرار
سيعود. لا. حجزته صارخة العواصف في إسار

يا سندباد، أما تعود؟

كاد الشباب يزول، تنطفئ الزنابقُ في الخدود

فمتى تعود؟

أوّاه، مدَّ يديك بين القلب عالمه الجديد

بهما ويَحْطم عالم الدم والأظافر والسعار،

يبني ولو لهنيهةٍ دنياه.

آه متـــى تعـــود؟

أترى ستعرف ما سيعرف، كلّما انطفأ النهار،

صمتُ الأصابع من بروق الغيب في ظلم الوجود؟

دعني لآخذ قبضتَيْك، كماء ثلج في انهمار

من حيثما وجّهت طرْفي... ماء ثلج في انهمار

في راحتيّ يسيل، في قلبي يصبّ إلى القرار.

يا طالما بهما حلمتُ كزهرتين على غدير

تتفتّحان على متاهة عزلتي."

رحـــل النهـــار

والبحر متّسع وخاوٍ. لا غناء سوى الهدير

وما يبين سوى شراعٍ رنّحته العاصفات، وما يطير

إلا فؤادك فوق سطح الماء يخفق في انتظار.

رحل النهار

فلترحلي، رحل النهار

بيروت ١٩٦٢/٦/٢٧

هـدير البحـر والأشـواق

هدير البحر يفتل من دمائي، من شراييني
حبال سفينة بيضاء ينعس فوقها القمرُ
ويُرعش ظلّها السحَرُ.
ومن شبّاكيَ المفتوح همس بي وتأتيني
سماء الصيف خلّف طيفَه في صحوها المطرُ.
ونحن نسير، والدنيا تسير وتقرع الأبواب
فتوقظ من رؤاه القلب: ذاك عدوك الزمنُ
تدور رحاه.. كم ستظلّ تخفق؟ ها هم الأصحاب
تراب منه تمتلئ الدروب وتشرب الدمنُ!

يودُّ القلبُ لو حطّمته، لو حطّمتْ خفقاته شفتيكِ
والكتفين والصدرا،
ولو ذرّتك من زفراتيَ الحرّى
رياحُ الوجد والحرمان. والهفي على عينيكِ
ليتهما تمرّانِ
بدمع أو بإشفاقٍ على صحراء حرماني
لينبت في مداها الزهر. ليتهما تمرّانِ،

بما نسج التأمل من غيوم فيهما حيرى
بما نسج التفرد من نجومٍ فيهما سكرى،
على عمري الذي عرّاه من زهراته الداءُ.
يود القلب لو حطّمته لو حطّمتْ خفقاته شفتيك
والكتفين والصدرا
ولو عرّاكِ، لو ذرّاكِ، لو أكلتكِ أشواقي
ولو أصبحتِ خفقاً أو دماءً فيه أو سرّا
فإن أحببتك الحب الذي أقسى من الموتِ
وأعنف من لظى البركان والحب الذي يأتي
إليّ كأنّ نفخ الصور فيه، فكل ذرٍّ الميتين دمٌ وأحياء
فذاك لأنك النور الذي عرّى دجى الأعمى
وأنت صباي عاد إليّ، أختاً عاد أو أمّا.
وأنت حبيبتي، أفديك، أفدي خفق جفنيك
وما نفضا من السحب
وأفدي خفق نهديك
على قلبي!

بيروت ١٩٦٢/٧/١

نـداء المـوت

يمدّون أعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي:

أن تعـــال،

نداء يشقُّ العروق، يهزّ المشاشَ، يبعثر قلبي رمادا

"أصيل هنا مُشْعَل في الظلال

تعال اشتعل فيه حتى الزوال".

جدودي وآبائيَ الأوَّلون سراب على حدِّ جفني تهادى.

وبي جذوة من حريق الحياة تريد المحال.

وغيلانُ يدعو "أبي سرْ، فإني على الدرب ماشٍ أريد

الصباح."

وتدعو من القبر أمّي "بنيَّ احتضنّي فبردُ الردى في عروقي

فدفّئْ عظامي بما قد كسوتُ ذراعيك والصدر، واحمِ

الجـــراح

جراحي بقلبك أو مقلتيك ولا تحرفنّ الخطى عن طريقي"

ولا شيء إلا إلى الموت يدعو ويصرخ، فيما يزولْ،

خريف، شتاء، أصيلٌ، أفولْ.

وباقٍ هو الليلُ بعد انطفاء البروقِ

وباقٍ هو الموت، أبقى وأخلد من كل ما في الحياه.

فيا قبرها افتح ذراعيك...

إني لآتٍ بلا ضجّةٍ، دون آه!

بيروت ١٩٦٢/٥/٣

سلاماً بلاد اللظى والخراب
ومأوى اليتامى وأرض القبور،
أتى الغيث وانحلّ عقد السحاب
فروّى ثرى جائعاً للبذور.
وذاب الجناح الحديد
على حمرة الفجر تغسل في كل ركن بقايا شهيد
وتبحث عن ظامئات الجذور.
وما عاد صبحك ناراً تُقعقع غضبى وتزرع ليلا
وأشلاء قتلى
وتنفث قابيل في كلّ نارٍ يسفّ الصديد
وأصبحتِ في هدأةٍ تسمعين نافورةً من هتاف
لديكِ يبشّر أن الدجى قد تولّى
وأصبحتِ تستقبلين الصباح المطلاّ
بتكبيرةٍ من ألوف المآذن كانت تخاف
فتأوي إلى عاريات الجبالِ
تبرقع أصداءها بالرمالِ.

* * *

بماذا ستستقبلين الربيع؟

ببقيا من الأعظم الباليهْ
لها شعلة رشّت الداليهْ،
تعير العناقيدَ لونَ النجيعْ.
وفي جانبيْ كل درب حزين
عيون تحدّق، تحت الثرى
تحدّق في عورة العاجزين.
لو تستطيع الكلام
لصبّت على الظالمين
حميماً من اللعنات، من العار، من كل غيظ دفين
ربيعك يمضغ قَيْحَ السلام.

* * *

بيوتك تبقى طوال المساء
مفتّحةً فيك أبوابها
لعل المجاهد بعد انطفاء اللهيب وبعد النوى والعناء
يعود إلى الدار يدفن تحت الغطاء
جراحاً، يفرّ إليه الصغار ترفرف أثوابها
يصيحون "بابا" فيُفطر قلب السماء
– "وماذا حملتَ لنا من هديّه؟"
– "غداً ضاحكاً أطلعتْه الدماء."
وكم دارةٍ في أقاصي الدروب القصيّه
مفتّحةِ الباب، تقرعه الريح في آخر الليل قرعا

فتخرج أمُّ الصغار
ومصباحها في يدٍ أرعش الوجد منها،
يرود الدجى، ما أنار
سوى الدرب قفر المدى، وهي تصغي وترهف سمعا
وما تحمل الريح إلا نباح الكلاب البعيد،
فتُخفت مصباحها من جديد

* * *

"ولمّا استرحنا بكيْنا الرفاق!"
هماس لأنييس[1] عبر القرون
وها أنتِ تدمع فيك العيون
وتبكين قتلاك.
نامت وغنّى فاستفاق
بكِ الحزنُ: عاد اليتامى يتامى،
ردىً عاد ما ظُنّ يوماً فراق.
سلاماً بلاد الثكالى، بلاد الأيامى
سلاما
سلاما...

بيروت ١٩٦٢/٦/٧

---

[1] بطل "انياذة" فرجيل.

خذينـــــي

خذيني أطرْ في أعالي السماء
صدى غنوةٍ، كركراتٍ، سحابهْ!
خذيني فإن صخورِ الكآبهْ
تشدّ بروحي إلى قاع بحرٍ بعيد القرارِ
خذيني أكن في دجاك الضياء
ولا تتركيني لليلِ القفارِ.
إذا شئتِ ألاّ تكوني لناري
وقوداً، فكوني حريقا.
إذا شئتِ أن تَخلُصي من إساري،
فلا تتركيني طليقا.
خذيني إلى صدرك المثقل
همِّ السنين.
خذيني فإني حزين
ولا تتركيني على الدرب وحدي أسير إلى المجهَل.
وكانت دروبي خيوط اشتياق
ووجدٍ وحبٍّ
إلى منـــزلٍ في العراق

تضيء نوافذه ليل قلبي،

إلى زوجةٍ كان فيها هنائي

وكانت سمائي

كواكبها ترسم الدرب، دربي.

وهبّت عليها رياح سموم

تبعثر خيطان تلك الدروب البعيده،

فعادت جذىً كل تلك النجوم

صُلبتُ عليها، وعادت مساميرَ نعشي

وعادت دروبيَ درباً إذا جئت أمشي

رماني إليك، كوزنٍ يقود القصيده.

فوا لهْفَ قلبي عليكِ!

ودربٍ رماني إليكِ!

أما تعلمين بأني تشهيّتك البارحه

أشمُّ رداءكِ حتى كأني

سجين يعود إلى داره يتنشّق جدرانها:

هنا صدرها، قلبها كان يخفق — كان التمني

يدغدغه، يُشعل الشوق فيه إلى غيمةٍ رائحهْ

لأرض الحبيب: ستنضح أركانها

بذوْب نداها.

تشهّيتك البارحه

فقبّلت ردن الرداء: هنا ساعداها،

هنا إبطها، يا لكهف الخيالْ

ومرفأ ثغري إذا جرفتْه رياح ابتهال

ودحرجه مدُّ شوقٍ ملحٍّ، وقد حار فيه السؤال:

"تحبينني أنتِ؟ هل تخجلين؟

أم استنـــزفتْ شوقَك الكبرياء

فلم يبقَ إلا ابتسام الرثاء؟

أترثين لي أم ترى تشفقين

على قلبك المهدّ تحت الصليب المعلّق في صخرة الكبرياء؟"

نباح الكلاب المبعثر في وشوشات النخيل

ينبّه في قلبيَ الذكريات العتاق

ويربط دقات قلبي بأرض العراق

لأسمع "بابا" فيُطفأ حبي وتبرد نار الغليل

وأعدو على الدرب سدّت خطاي عليه

نوافذ بيتي تجمَّد فيها الضياء:

تغربتُ عنه وعدتُ إليهِ.

بيروت ١٩٦٢/٧/٣

ماذا حملتَ لها سوى الخرز الملوّنِ والضباب؟
ما خضتَ في ظلمات بحر أو فتحت كوى الصخور
والريح ما خطفت قلوعك، والسحاب
ما بلّ ثوبك. ما حملتَ لها سوى الدم والعذاب.
في سجنها هي، خلف سور.
في سجنها هي، وهو من ألمٍ وفقر واغتراب.
عشر من السنوات مرّت وهي تجلس في ارتقاب:
أطفالها المتوثبون مع الصباح
صمتوا وكفّوا عن مراح،
زجرتهمُ لتُحسّ وقع خطاك. برعمت الزهور
وأتى الربيع وما أتيت، وجاء صيفٌ ثم راح.
ماذا يعيقك في سواحل نائيات؟ في قصور
قفْرٍ يعيش الغول فيها، كلما رمَت الرياح
بحطام صاريةٍ تحفّز؟ ما يعيقك عن رجوع؟
لم تبق للغد من دموع
في مقلتيها، لا ولم يبق ابتسامٌ للّقاء!
ستعود، حين تعود، بالخرز الملوّن والهباء،
ستضم منها طيف أمسِ، فلا يُجيبك في الضلوع
منها سوى دمك المفجّع والخواء!

بيروت ١٩٦٢/٥/٩

سفـر أيوب (١)

لكَ الحمد مهما استطال البلاءْ

ومهما استبدّ الألم،

لك الحمد، إنّ الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعضُ الكَرَمْ.

ألم تُعطني أنت هذا الظلامْ

وأعطيتني أنت هذا السّحَرْ؟

فهل تشكر الأرض قَطْرَ المطر

وتغضبُ إن لم يَجُدْها الغمام؟

شهورٌ طوالٌ وهذي الجراحْ

تمزّق جنبيَّ مثلَ المُدى

ولا يهدأ الداءُ عند الصباح

ولا يمسح اللّيْلُ أوجاعه بالردى.

ولكنَّ أيُّوبَ إن صاح صاح:

"لك الحمدُ، إن الرزايا ندى،

وإن الجراحَ هدايا الحبيبْ

أضمُّ إلى الصَّدْر باقاتها،

هداياكَ في خافقي لا تغيب،

هداياكَ مقبولةٌ. هاتِها!"

أشدّ جراحي وأهتف بالعائدينْ:

"ألا فانظروا واحسدوني، فهذي هدايا حبيبي.

وإن مسَّت النارُ حَرَّ الجبين

توهَّمْتُها قُبلةً منكَ مجبولةً من لهيبِ.

جميلٌ هو السُّهدُ أرعى سَماكَ

بعينيَّ حتى تغيبَ النجومْ

ويلمسَ شبَّاكَ داري سناكْ.

جميلٌ هو الليل: أصداء بوم

وأبواقُ سيارةٍ من بعيد

وآهاتُ مرضى، وأمّ تُعيد

أساطيرَ آبائها للوليد.

وغاباتُ ليل السُّهادِ، الغيوم

تحجّبُ وَجْهَ السماءْ

وتجلوه تحت القمر.

وإن صاح أيُّوبُ كان النداءْ:

"لك الحمد يا رامياً بالقَدَرْ

ويا كاتباً، بَعْدَ ذاكَ، الشّفاء!"

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٦

سفـر أيوب (٢)

من خَلَلِ الثلج الذي تنثُّه السماءْ
من خَلَلِ الضباب والمطَرْ
ألمح عينيْك تشعَّان بلا انتهاء
شعاعَ كوكبٍ يغيب ساعةَ السَّحَرْ
وتقطران الدمعَ في سكونْ
كأنَّ أهداهما غصون
تنطف بالندى مع الصباح في شتاء.
من خلل الدّخان والمداخن الضخامْ
تمجّ من مغارِ قابيلَ على الدروب والشَّجَرْ
ذرّاً من النجيع والضّرام
أسمع غيْلانَ يناديكِ من الظلام
من نوْمه اليتيم في خرائب الضجرْ.
سمعتِ كيف دقّ بابَنا القَدَر؟
فارتعَشتْ على ارتجاف قرْعهِ ضلوعْ؟
ورقْرقتْ دموعْ؟
فاختلس المسافرُ الوداعَ وانحدر؟

* * *

وقبلةٍ بين فمي وخافقي تُحار
كأنها التائه في القفار
كأنها الطائرُ إذْ خرَّب عشَّه الرياح والمطرْ،
لم يحوها خدّ لغيْلانَ ولا جبينْ
ووجْه غيلانَ الذي غابَ عن المطار!!
وأنتِ إذْ وقفتِ في المدى تُلوِّحين!!
إقبالُ... إنَّ في دمي لوجهكِ انتظار،
وفي يدي دمٌ، إليكِ شدّهُ الحنينْ.
ليتكِ تُقْبلين
من خَلَلِ الثلج الذي تنثّه السماء،
من خَلَلِ الضباب والمطر!

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٧

سفـر أيوب (٣)

بعيداً عنك، في جيكور، عن بيتي وأطفالي
تشدُّ مخالبُ الصَّوان والأسْفلتِ والضَّجَرِ
على قلبي، تُمزِّق ما تبقَّى فيه من وترِ
يدَندنُ: "يا سكونَ الليل، يا أنشودَةَ المطَر"،
تشدُّ مخالبُ المال
على بطني الذي ما مرَّ فيه الزادُ من دَهَرِ.
عيون الجوع والوحدهْ
نجومي في دجىً صارعتُ بين وحوشه بَرْدَه،
وإن البرد أفظعُ، لا.. كأنَّ الجوعَ أفظع، لا.. فإنَّ الداءْ
يشلُّ خطاي، يربطُها إلى دوَّامةِ القَدَرِ.
ولولا الداء صارعتُ الطوى والبرد والظلماء.
بعيداً عنكِ أشعر أنني قد ضعت في الزحمه
وبين نواجذ الفولاذ تمضغ أضلعي لُقْمه.
يمرُّ بيَ الورى متراكضين كأنْ على سَفَرِ،
فهل أستوقف الخطوات؟ أصرخُ: "أيها الإنسان
أخي، يا أنتَ، يا قابيلُ.. خُذْ بيدي على الغُمَّه!
أعنِّي، خفِّف الآلامَ عني واطرد الأحزان"؟
وأين سواكِ من أدعوه بين مقابر الحَجَرِ؟

* * *

ولولا الداء ما فارقتُ داري، يا سنا داري
وأحلى ما لقيتُ على خريف العُمْر من ثَمَر.
هنا لا طيرَ في الأغصان تشدو غيرَ أطيارِ
من الفولاذ تهدر أو تُحمحِمُ دونما خوفٍ من المطرِ
ولا أزهارَ إلا خَلْفَ واجهةٍ زجاجيَّه
يُراح إلى المقابر والسجون بهنَّ والمستشفياتِ.

ألا.. ألا يا بائعَ الزهَرِ

أعندك زهرةٌ حيَّه؟
أعندك زهرةٌ مما يربـّـي القلبُ من حُبٍّ وأهواءِ؟
أعندكَ وردةٌ حمراء سقَّتها شموسٌ إستوائيّه؟

* * *

أأصرخُ في شوارع لندنَ الصَّماءِ: "هاتوا لي أحبائي"؟
ولو أني صرختُ فمن يُجيب صراخَ منتحِرِ
تمرّ عليه طولَ الليلِ آلافٌ من القُطُرِ؟

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٨

سفـر أيوب (٤)

يا ربَّ أيُّوبَ قد أعيا به الداءُ
في غربةٍ دونما مالٍ ولا سَكَنِ.
يدعوكَ في الدُّجَنِ
يدعوك في ظَلَموت الموت: أعباءُ
ناءَ الفؤاد بها، فارحمْهُ إن هتفا.
يا منجياً فُلْكَ نوحٍ مزِّق السُّدَفا
عني. أعدْني إلى داري، إلى وطني!
* * *
أطفالُ أيوب من يرعاهمُ الآنا؟
ضاعوا ضياع اليتامى في دجىً شات.
يا ربِّ أرجعْ على أيُّوبَ ما كانا:
جيكورَ والشمسَ والأطفال راكضةً بين النُّخَيْلات
وزوجَه تتمرَّى وهي تبتسمُ
أو ترقبُ البابَ، تعدو كلَّما قُرِعا:
لعلّه رجعا
مشّاءةً دون عُكّازٍ به القَدَمُ!
* * *
في لندنَ الليلُ مَوتٌ نزْعُهُ السَّهَرُ

والبرْدُ والضَّجرُ

وغُرْبةٌ في سواد القلب سوداءُ.

يا ربّ يا ليتَ أنّي لي إلى وطني

عوْدٌ لتلثمني بالشمس أجواءْ

منها تنفّستُ روحي: طينها بَدَني

وماؤها الدمُ في الأعراق ينحدرُ.

يا ليتني بَيْن مَن في تُربها قُبروا.

لأنه منك، حُلوٌ عنديَ المرَضُ،

حاشا، فلستُ على ما شئتَ أعترضُ.

والمال؟ رزقٌ سيأتي منه موْفور،

هيهات أن يذكر الموتى وقد نهضوا

من رقدةِ الموت كم مصّ الدماءَ بها دودٌ ومدَّ بساطَ

الثلج ديْجورُ!

إني سأشفى، سأنسى كلَّ ما جرَحا

قلبي، وعرّى عظامي فهي راعشةٌ ، والليل مقرور.

وسوف أمشي إلى جيكورَ ذات ضُحى!

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٩

سفـر أيوب (٥)

نازلاً نازلاً من صحارى السماءْ،

من عصور جليديّة، من قبورْ

نام فيها الهواء.

أيُّها الثلج، يا حشرجات الدهور

وانتحابَ المساكين في كل كهفٍ يغور

في جبال السنينْ،

كن لهيباً على أوجه العابرين،

قنِّعِ الخوفَ فيها بلون الرجاء.

* * *

أيّها الثلج رحماكَ، إني غريب

في بلادٍ من البرد والجوع سكرى،

إنَّ لي منــــزلاً في العراق الحبيب

صبيَتي فيه تعلك صخرا.

آهِ، لولاك يا داءُ ما عفتُ داري،

ما تركت الزهورَ التي فتَّحتْ في جداري

والعصافيرَ في ركن بيتي لهنَّ اختصامُ.

مرّ يومٌ، فشهرٌ، فشهر، فعامُ

* * *

والزمان ارتماءٌ بدون انتهاءْ

تزفر الأرض عنه وتبكي السماء.

ربِّ، هل لي إلى منـــزلي من رجوع؟

كم أمدّ الذراع وأهدم سقفَ الضلوع

لا أمسّ المدى أو أصيبُ الزمانا،

فهو شيء على الروح يسعى: هباءٌ وظلْمهْ.

ليت عَصرَ النبوّات لم يطوِ حُلمه...

وشّتِ المعجزاتُ الحواشي فكانت وكنّا.

* * *

ليتني العازرُ انْفضّ عنه الحِمامْ،

يسلك الدربَ عند الغروبْ،

يتمهَّلُ لا يقرع الباب: من ذا يؤوب

من سراديبَ للموتِ عبر الظلام؟

لن تصدِّق أنّي... ستهوي يداها

عن رتاجٍ، وتصفرُّ لي وجنتاها

ثم تركض مذعورةً، تشدّ بخيْط الدروب

نحو قبري، وتطويه حتى تمسّ الضريحَ الحُطام.

* * *

إيه إقبالُ، لا تيأسي من رجوعي

هاتفاً قبل أن أقرع الباب: عادا

عازرٌ من بلاد الدجى والدموعِ،

قبّليني على جبهةٍ صكّها الموْتُ صكّاً أليما،

حدّقي في عيونٍ شهدن الردى والمعادا.

عدتُ. لن أبرح الدارَ حتى لو انّ النجوما

دحْرجت سُلّماً من ضياءٍ وقالت:

تَخَطَّ السديما.

لندن ١٩٦٢/١٢/٣١

خيالُ الجَسد العاري

يُطلّ عليّ محمولاً على موْجٍ من النارِ

من المدفأة الحمراءِ، ذاك الرّحِمِ الضاري.

* * *

لكلّ تقلّبٍ من موْجها خفْقٌ من القلب.

تدحرجَ: عُرْيَ النهدان، بانَ الجيدُ والساقُ،

تدحرجَ لي على الجنبِ،

تدحرجَ ثمّ صكّ أضالعي، وتُثار أعراقُ

ويطفر للجبين دمٌ، ويعروني

دُوارٌ منه تصطكُّ النواجذُ: خوْف بحّار

يُطلّ فيُبصر التيّار يزفر مثل تنّينِ.

ويصرخ آدمُ المدفونُ فيّ: رضيتُ بالعارِ،

بطرْدي من جنان الخُلْدِ أركض إثْرَ حرّاءا.

أريدكِ، يا سراباً في خيالي ليس يسقيني،

أريدكِ. ثمّ تُطوى موْجةٌ وتطير أشلاءا

فقاعاتٌ من النيران، من شوْقٍ وتذكارِ.

* * *

وجاء الجسدُ العاري،

خيالاً جاء محمولاً على موْجٍ من النارِ
من المدفأةِ الحمراءِ، ذاك الرّحِمِ الضاري.

* * *

يميل عليّ كيف أشاءُ، أعصره كما أهوى،
ولا يقوى
على رفضي، على هدمِ عَرْشٍ من لظىً وارِ
أتوِّج فوقه الآمالَ راعشةَ القوى شهوى.
بحارٌ بيننا: ليْلان من مُدُنٍ وأمطارِ،
وإنّك منكِ أقربُ، أنتِ بعضُ دمي،
خيالي أنتِ، أمنيّات عمري... كل أمنيّه
بعاطفتي تُحرِّكُ لا عواطفك الأنانيَّه.
علام مددتِ بحْراً بيننا، دنيا جليديَّه
أعانقُ في دجاها جسمَكِ العاري
يطلُّ عليَّ محمولاً على مَوجٍ من النارِ
من المدفأة الحمراءِ، من وهمي وأفكاري.

لندن ١٩٦٢/١٢/٣١

البرْدُ وهَسْهَسَةُ النارِ
ورماد المدفأة الرّمْلُ
تطويه قوافلُ أفكاري.
أنا وحدي يأكلني اللّيْلُ.

* * *

ويخبّ المركب في داري:
برقٌ يتلامح في الآفاق، يعرٌيها
ويُذرّيها
كرماد المبخرة الثكلى
في مقبرةٍ تهبُ اللّيلا
ألوان الموت وآهات الموتى

* * *

يا ليل، لكم طال الدّربُ.
تعب الركبُ،
وعراقي شطٌّ، وسمّاري
ناموا. وبقيتُ ولا زادٌ
عندي، وظمئتُ ولا ماءٌ. ظمئ القلبُ:
لا سقيا غير شظيّات البرق الواري.

يا أغصانَ الليل الهمري ثمراً إذ يؤكل يزدادُ
السلّةُ منه سأملأها حتّى إن عدتُ إلى داري
فرحَ الأطفالُ به، هتفوا: "بابا..."

يا برقُ، أما تخبو

فيغيبَ الدربُ، ولا يبدو
كم منه على الساري بَعْدُ!

* * *

البرد وهسهسةُ النار
ورماد المدفأةِ الرملُ
تطويه قوافلُ أفكاري.
أنا وحدي يأكلني الليلُ!

لندن ١٩٦٣/٢/١

سفر أيوب (٨)

ذكرتُك يا لميعةُ والدجى ثلجٌ وأمطارُ،
ولندنُ مات فيها الليل، مات تنفُّسُ النورِ.
رأيتُ شبيهةً لك شعرها ظُلَمٌ وأنهارُ،
وعيناها كينبوعين في غابٍ من الحورِ.
مريضاً كنت تثقل كاهلي والظّهر أحجارُ،
أحِنُّ لريفِ جيكورِ
وأحلم بالعراق: وراء بابٍ سدّت الظلماءُ
باباً منه والبحر المزمجرُ قام كالسورِ
على دربي.
وفي قلبي
وساوسُ مظلمات غابت الأشياء
وراء حجابهنّ وجفّ فيها منبع النورِ.
ذكرتُ الطلعةَ السمراءْ،
ذكرتُ يديْك ترتجفان من فَرَقٍ ومن بردِ
تنـزُّ به صحارى للفراق تسوطُها الأنواء.
ذكرتُ شحوب وجهك حين زمَّرَ بوقُ سيَّارهْ
ليؤذنَ بالوداع. ذكرتُ لذْع الدمع في خدّي

ورعشةَ خافقي وأنينَ روحي يملأ الحاره
بأصداء المقابر. والدجى ثلجٌ وأمطار.

لندن ١٩٦٣/١/٢

سفـر أيوب (٩)

بالعضل المفتول والسواعد المجدولهْ
هِرَقْلُ صارع الردى في غارهِ المحجّبِ
بظلمة من طحلبِ.
وقام تمّوزُ بجرح فاغرٍ مخضّبِ
يصكُّ (مَوْتَ) صكّةً، محجِّباً ذيولَهُ
وخطْوَهُ الجليدَ بالشقيق والزنابق.
* * *
وانخطف الموتُ عليّ كانخطاف الباشقِ
على العصافير، أحال ظهري
عمود ملْحٍ أو عمود جمرٍ،
أحرّك الأطراف لا تطيعني، مشلوله،
مات الدم الفوّار فيها، أُطفئ الشبابُ،
وامتدّ نحو القبْر دَرْبٌ، بابُ
من خشب الصليب: فالمسيحُ
ماتَ، وفي الطوفان ضلّ نوحُ.
وأُغضيتْ نواظري الذليله...
لعلّها تعتاد من دجاها
على دُجىً غطاؤها الضريحُ.
* * *

أيّ سلاحٍ؟ آه، أيّ ساعدِ؟
أيَـــةُ أزهارٍ تمدُّ فاها
لتأكل الموت؟ وأيّ ناصرٍ مساعدِ؟
سللتُ من قصائدي
سيْفاً كأنَّ البرقَ حدّادٌ رمى أصوله
وصبَّ مقبضاً له وشفره.
بالشّعر، بالمبرق، بالمُجلْجلِ المدوّي
رميتُ وجهاً كان يهوي نحوي
كأنه الستار في روايةٍ هزيله،
رميت وجهَ الموت ألف مرّه
إذا أطلّ وجهه البغيضُ
كأنه السيرين[1]، يسعى جسميَ المريضُ
نحو ذراعيْه بلا تردُّدِ
فأنتضي من سيفيَ المجرّدِ،
ويقطر الشّعْرُ ولا يغيضُ،
لأنني مريضُ
أودّع الحياةَ أو أشُدّ بالحياةِ
بخيْطه الموروثِ عن أمواتِ
لم يدفع الشّعْرُ مناياهم وقد
جاءت إليهم غيلهْ!

١٩٦٣/١/٢

---

[1] السيرين، كما في الأوديسة، حورية بحر تغني فتجذب إليها من يسمعها.

سفر أيوب (١٠)

يا غيمةً في أوّل الصباحْ

تعربد الرياح

من حولها، تنتفُ من خيوطها، تطير

بها إلى سماوةٍ تجوع للحرير،

سينطوي الجناح،

ستَنْتِفُ الرياح ريشَهُ مع الغروب،

يا غَيْمةً ما أمطرتْ، تذوب.

* * *

فأبرقي وأرعدي وأرسلي المطرْ

ومزِّقي ذوائبَ الشجرْ

وأغرقي السهوبْ

وأحرقي الثمرْ.

ستَرْجَحِنُّ بعدك السنابلُ الثقالُ بالحبوب،

وتَقطف الورودَ والأقاحْ

صبيَّةٌ يؤجّ في وجنتها الجنوب،

وأنتِ ذرّةٌ من الدماء والجراحْ.

* * *

وأنتَ يا شاعرَ واديك، أما تؤوب

من سَفَرٍ يطول في البطاحْ،
تُراقص النَّهَرْ
وتلثم المَطَرْ؟
أما سمعتَ هاتف الرواح؟:
"خاتمٌ وزنبيلٌ من الترابْ
وآخر العُمْر ردىً". ويطلع القَمَرْ.
فأبرقِ، ارعِدْ، أرسلِ المطرْ
قصائدَ احتوى مداها دارةَ العُمُرْ،
يا غيمةً في أول الصباح،
يا شاعراً يهمّ بالرواح،
وودِّعِ القمرْ!

لندن ١٩٦٣/١/٢

منـزل الأقنان (في جيكور)

خرائبُ فانزعِ الأبواب عنها تغْدُ أطلالا،
خوالٍ قد تصكُّ الريحُ نافذةً فتُشْرعها إلى الصبّحِ
تُطلُّ عليكَ منها عينُ بومٍ دائبِ النوْحِ.
وسلّمُها المحطّمُ، مثل برجٍ داثرٍ، مالا
يئنّ إذا أتتْه الريح تصعده إلى السَّطْحِ،
سفينٌ تعركُ الأمواجُ ألواحهْ

* * *

وتملأُ رُحْبَةَ الباحهْ
ذوائبُ سدرةٍ غبراءَ تزحمها العصافيرُ
تعدّ خطى الزمان بسقْسقات، والمناقيرُ
كأفواهٍ من الديدان تأكل جثّةَ الصمتِ
وتملأ عالم الموْتِ
همْسهسَةِ الرثاء، فتفزع الأشباح تحسب أنه النورُ
سيُشرق، فهي تُمسك بالظلال وتهجر الساحهْ
إلى الغرف الدجيّةِ وهي توقظ ربّةِ البيْتِ:
"لقد طلع الصباح". وحين يبكي طفلها الشَّبَحُ
تهدهدُه وتنشد: "يا خيول الموت في الواحهْ

تعالي واحمليني، هذه الصحراء لا فرحُ

يرفّ بها ولا أمنٌ ولا حبّ ولا راحة".

ألا يا منـــزلَ الأقنان، كم من ساعدٍ مفتولْ

رأيتَ ومن خطىً يهتـــزّ منها صخركَ الهاري!

وكم أغنيَّةٍ خضراءَ طارت في الضحى المغسولِ

بالشمس الخريفيّه،

تحدِّث عن هوىً عاري

كماء الجدول الرقراق! كم شوقٍ وأمنيّهْ!!

وكم ألم طويْتَ وكم سُقيتَ بمدمعٍ جاري!؟

وكم مهد لهزهز فيك: كم موْت وميلادِ

ونارٍ أوقدتْ في ليلة القرّ الشتائيه!!

يدنْدنُ حولها القصّاص: "يُحكى أنّ جنّيه..."

فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دَهَشٍ وإخلاد

كأنّ زئير آلاف الأسودِ يرنّ في وادِ

وقد ضلّوا حيارى فيه، ثمّ ترنّ أغنيّه:

"أتى قمرُ الزمان..." ودندن القصّاص! "جنيّه"

وبؤسهمُ المرير: الجوع والأحزان والسّقَمُ

وطفلٌ مات لما جفّ دَرٌّ ـــ ماتت المعزى

وجاعت أمّه فالثّديُ لا لبنٌ ولا لَحمُ.

سمعتُ صراخها والليل ينظر نجمُه غمْزا،

ووَلْوَلةَ الأب المفجوع يخنق صوته الألَمُ

* * *

ولو خُيِّرْتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا،

ممضّ ما أعاني: شُلَّ ظهرٌ وانحنتْ ساقُ.

على العكّاز أسعى حين أسعى، عاثر الخطوات مرتجفا

غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحَدِ

بلا مالٍ، بلا أملٍ، يقطِّعُ قلبَه أسفا.

ألستُ الراكضَ العدّاء في الأمس الذي سلفا؟

أأمكث أم أعود إلى بلادي؟ آه يا بلدي

وما أمل العليل لديْك شحّ المال ثم رَمَتْهُ بالداءِ

سهامٌ في يد الأقدار ترمي كلّ من عطفا

على المرضى وشدّ على ضلوع الجائعين بصدره الواهي

وكفْكَفَ أدمع الباكين يغسلُها بما وكفا

من العبرات في عينيْه – إلا رحمةُ اللّهِ؟؟

* * *

ألا يا منـــزل الأقنان، سقَتْك الحيا سُحُبُ

تروّي قبريَ الظمآن،

تلثمه وتنتحبُ!

لندن ١٩٦٣/١/٣

وصية من محتضر

يا صمتُ، يا صمتَ المقابر في شوارعها الحزينهْ،
أعوي، أصيح، أصيح في لَهَفٍ فأسمع في السكينهْ
ما تنثر الظلماءُ من ثلجٍ وقارِ
تُصدي عليه خطىً وحيداتٌ، وتبتلع المدينهْ
أصداءَهنّ، كأنّ وحشاً من حديدٍ، من حجارِ،
سفَّ الحياة فلا حياةَ من المساء إلى النهارِ.
أين العراق؟ وأين شمس ضُحاه تحملها سفينهْ
في ماء دجلةَ أو بُوَيْبَ؟ وأين أصداء الغناءِ
خفقتْ كأجنحة الحمام على السنابل والنخيلِ
من كلّ بيتٍ في العراء؟
من كلّ رابيةٍ تدثرُها أزاهيرُ السهول؟
إنْ متّ يا وطني: فقبرٌ في مقابرك الكئيبه
أقصى مناي. وإنْ سلمتُ فإن كوخاً في الحقولِ
هو ما أريد من الحياة. فدى صحاراك الرحيبه
أرباضُ لندن والدروب، ولا أصابتْكَ المصيبهْ!

* * *

أنا قد أموت غداً، فإنّ الداء يقرض، غَيْرَ وانِ،

حبلاً يشدّ إلى الحياة حطام جسمٍ مثلِ دارِ
نخرتْ جوانبَها الرياحُ وسقْفَها سيلُ القطارِ،
يا إخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمالِ
بين المعابر والسهول ، وبين عالية الجبالِ
أبناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبه..
لا تكفروا نِعَمَ العراقِ...
خير البلاد سكنتموها بين خضراءٍ وماءِ،
الشمس، نور الله، تغمرها بصيْفٍ أو شتاء،
لا تبتغوا عنها سواها.
هي جنّةٌ فحذارِ من أفعى تدبّ على ثراها.
أنا ميّتٌ، لا يكذب الموتى. وأكفر بالمعاني
ان كان غير القلب منبعها.
فيا ألقَ النهارِ
أغمر بعسجدك العراق، فإنّ من طينِ العراقِ
جسدي ومن ماءِ العراق...

١٩٦٣/١/٢

الشـــاهدة[1]

"يا قارئاً كتابي

ابكِ على شبابي."

شاهدةٌ بين القبور تبكي

تستوقف العابرَ. يا صحابي

غُضُّوا الخطى ولْتصمتوا: إن القرون تحكي

في جملةٍ خُطت على الترابِ.

من نام في القبر ودودَ القبرِ؟

يُسأل لا ينطق بالجواب؟!

سيّان عنده ائتلاقُ الفجرِ

وظلمة الليل، بلا ثيابِ

بلا طعام، لا هوىً، لا حقدُ.

أفْقر أهل الفقر

فيه وأغنى الأغنياء. تعدو

في قبره الجرذان، وهو غافِ

نام من الديدان في لحافِ؟!

* * *

[1] لوحة توضع عند القبر يكتب عليها اسم الميت أو حكمة أو أبيات من الشعر.

لي نومةٌ مع التراب في غدِ

صباحُها أوّلُ ليل الأبد،

يمر بي الشيوخ والشبّانُ

يثرثرون: يدها فوق يدي

وعينها..." ويُنفث الدخانُ!

رُبّ فتى مُورَّدِ

يقرأ من شِعري على الصحابِ،

يقرأ في كتابي

قصيدةً خضراء عن جيكورِ

غافيةً تحت غصونِ النورِ

تحلم بالسحابِ.

مرّ على قبري فقال: قَبْرُ!

وأين من هذا الرميم الشِّعرُ

يدفق بالعواطفِ

كهبّةِ العواصف القواصفِ؟"

مَرّ على قبري فكاد الصّخرُ

يصرخ: "تحتي نام هذا الشاعرُ

صاحبُ هذه القوافي، يسمعُ

ما قلتموه فالعيونُ تدمعُ

في عالمٍ لا يرجعُ المسافرُ

منه ولا للنوم فيه آخرُ.

رفقاً به، دعوه في رقدته

يؤنسه الديوانُ في وحدته

كان له قلبٌ وكان أمسُ،

حتى إذا استنــــزف من مُدَّتِه

توسَّد الترابا.

لا تقرأوا الكتابا"

* * *

ثمّ تغيبُ الشمسُ!

درم ١٩٦٣/١/٦

أسمعه يبكي

أسمعُهُ يبكي، يناديني
في ليليَ المستوحد القارسِ،
يدعو: "أبي كيف تخلّيني
وحدي بلا حارسِ؟".
غيلان، لم أهجرْكَ عن قصْدِ...
الداء، يا غيلان، أقصاني.
إني لأبكي، مثلما أنت تبكي، في الدجى وحدي
ويستثير الليلُ أحزاني.
فكلّما مرّ نهارٌ وجاءْ
ليلٌ من البرْدِ،
ألفيتُني أحسب ما ظلّ في جيْبي من النقد:
أيشتري هذا القليلُ الشفاء؟
سأطرقُ البابَ على الموت في دهليز مستشفى
في البرد والظلماءِ والصمتِ،
سأطرق البابَ على الموتِ
في بُرْهة طال انتظاري بها في معبر من دماء،
وأرسلُ إلاّ الدجى والخُواء.

يا ويلتي إنْ يُفتح البابُ
فأبصرُ الأمواتَ من فُرْجتِهْ
يدعونني: "ما لكَ ترتابُ
بالموت؟ في هجعته
ما يعْدل الدنيا وما فيها:
دفءٌ، نُعاسٌ، خَدَرٌ وارتخاء!"
أوشكُ أن أعبر في برْزخٍ من جامدات الدماء
تمتدُّ نحوي كفُّها، كفَّ أمي بين أهليها:
"لا مالَ في الموت، ولا فيه داء!"
ثم تسدّ البابَ كفُّ الطبيب
تجرح في جسمي،
وهاتفاً باسمي
أسمع صوْتاً ناعساً، قد أجيبْ
فيُهزمُ الموتُ على صوتي،
وربما استسلمتُ للموت!

درم ١٩٦٣/١/٩

دَرَمْ

دَرَمْ...

بنفسيَ مما عراني بَرَمْ

فمدّي ذراعيكِ ولْتحضنيني

إلى هوةٍ من ظلام العدم،

فما قيمة العمر أقضيه أمشي

بعكّازة في دروب الهَرَم؟

أهذا شبابي؟ وأين الشباب؟

ألا حُبّ، لا زهوَ، لا عنفوان؟

أهذا مشيبي؟ حصدتُ السراب

إذا كان معنى المشيب الهوان؟

أعُقْبى المشيب الأسى والندم؟

أما من شبابي الذي مرّ ذكرى؟

أما منه مالٌ وبُقيا شمم؟

أكان الذي منه خلّفتُ شِعرا

وبيتاً وراء الرياح انهدم؟

درم...

تمنّيتُ لو متُّ بين الثلوج

على جدولٍ جمّدتْه النّسَمْ،

فروحي تجوب المروج

وتأوي إلى رُمّةٍ في الظُّلَم.

ومن أين للروح هذا البقاء؟

فناءٌ، فناء

سوى قصّةٍ قد تثير السّأم

يُردِّدها سامرٌ في الشتاء:

"لقد خطّ شِعْراً له من هباء،

وكانت له زوجةٌ وابنُ عمْ

وطفلانِ... لا، لا، نسيتُ... ابنتانْ

وطفلٌ." ويخبو لديه الضّرَم،

فيغفو على المسند السامرُ

وتُفتحُ بوّابةٌ من دخانْ

عليها الدجى حائرُ

يُبعثر أنجمَهُ من خلال الضباب.

أهذا هو الشاعرُ؟

حديثٌ يُنيم الصحاب

إذا مات، أو عاش فهو الألم.

دَرَمْ

بنفسي مما عراني بَرَمْ!

بيروت ١٩٦٣/١/٥

قصيدة من درم

مِن دَرَم أكتُبها قصيدهْ
كالنجم في آفاقِه البعيده
لا يبعث الدفْءَ ولا يُنيرُ،
يلمحه الصغيرُ
فيبسط الكفَّ له، يُشير
يقْطر في أحلامه السعيده
يَعْلق بالضبابِ
كنُغفةِ السراب
تضلّل القوافلَ الشريده.

* * *

اليأسُ يوحيها أو الملالُ
كأنّها في الظلمةِ الظّلالُ
تعمّقُ الظلْمةَ حين تُنشَرُ.
أظلُّ ما يُقالُ
في نفس شاعرٍ يموتُ عُمرهُ، يُبعثَرُ
ويُقبَرُ؟
يمشي على عكّازةٍ ويعثرُ،

أيّامه إلى رَداه سَفَرُ،

وعيْشُهُ انسلالُ

عَبْرَ جدار الموتِ ما يزالُ؟

شاء الرَّدى، حاول أن يُريدهْ،

لكنّ وحشاً ضارياً يُزمجرُ

في كهفه، وحيّةً من بابلَ التليده —

يطير نحو الموت منه شرَرُ،

تفحُّ في وجه الردى وتصفرُ،

فيكتب القصيده

يريد أن يجدِّد البقاء، أن يُعيده،

أن يهديَ القوافلَ الشريده

فلا تتيهَ في صحارى العَدَمِ.

بقبره في دَرَمِ.

* * *

من درمٍ أكتبها قصيده

كالنجم ضلّ في سديم العَدمِ.

درم ١٩٦٣/١/٥

قــالوا لأيــوب

قالوا لأيوبَ: "جفاك الآلهْ!"

فقال: "لا يجفو

من شدّ بالإيمان، لا قبضتَاه

تُرخى ولا أجفانُه تغفو".

قالوا له: "والداء من ذا رماه

في جسمك الواهي ومن ثبّـتهْ ؟ .

قال: "هو التكفيرُ عمّا جناه

قابيلُ والشاري سُدىً جنّته.

سيُهزَم الداء: غداً أغفو

ثمّ تفيقُ العينُ من غَفوَهْ

فأسحبُ الساقَ إلى خَلْوهْ

أسأل فيها الله أن يعفو.

عكّازتي في الماء أرميها

وأطرقُ الباب على أهلي.

إنْ فتحوا البابَ فيا وَيْلي

من صرخةٍ، من فرحةٍ مسّتْ حوافيها

دوّامةَ الحُزْنِ... وأأيّوبُ ذاكْ؟

أم أن أمنيّه

يقذفُها قلبي، فألفيها

ماثلةً في ناظري حيّه؟

غيلان، يا غيلان، عانقْ أباك!"

* * *

يا ربِّ لا شكوى ولا من عتاب،

ألستَ أنت الصانعَ الجِسْما؟

فمن يلوم الزارع التَمّا

من حوله الزرعُ، فشاء الخراب

لزهرةٍ والماءَ للثانيهْ؟

هيهات تشكو نفسيَ الراضيه.

إني لأدري أنّ يومَ الشفاء

يلمحُ في الغيْبِ،

سينـــزع الأحزانَ من قلبي

وينـــزع الداءَ، فأرمي الدواء،

أرمي العصا، أعدو إلى دارنا وأقطف الأزهار في دَرْبي

ألمّ منها باقةً ناضره

أرفعُها للزوجةِ الصابره

وبيّنها. ما ظلَّ من قلبي!

درم٦/١/١٩٦٣

وفي الصباح يا مدينةَ الضبابْ

والشمس أمنيّةُ مصدورٍ تُدير رأسَها الثقيلْ

من خَلَلِ السحاب،

سيحملُ المسافرُ العليلْ

ما تركَ الداءُ له من جسمِه المذاب

ويهجرُ الدخانَ والحديدْ

ويهجر الأسفَلْتَ والحَجَرْ.

لعله يلمح في درامَ من نَهَرْ،

يلمح وجه الله فيها، وجهه الجديد

في عالم النقود والخمور والسّهَرْ.

* * *

رُبَّ صباحٍ، بعد شهرٍ... بعد ما الطبيبْ

يراه — من يعلم ماذا خبّأ القَدَر؟ —

بألف ألفِ رائعٍ عجيبْ،

بالحَلي والحجر،

باللّعَب الخبيئه

يفجأ غيلانَ بها — يا طول ما انتظر!

يا طولَ ما بكى ونام تملأ الدموعْ
برنّةِ الأجراس أو بصيحةِ الذئاب
عوالِمَ الحُلم له، وتنشر القلوع
يجوب فيها سندبادُ عالم الخطَرْ:
هناكَ فارس النحاس يرقبُ العُباب
ويُشْرِع السهْمَ ليرمي كلَّ من عَبَرْ!
إنْ يكتب اللهُ ليَ العَوْدَ إلى العراق
فسوف ألثم الثرى، أعانق الشجر،
أصيحُ بالبَشَرْ:
"يا أُرَجَ الجنّةِ، يا إخوةُ ، يا رفاقْ،
الحَسنُ البصْريّ جابَ أرض واقِ واق
ولندنَ الحديدِ والصّخرْ،
فما رأى أحسنَ عيْشاً منه في العراق.."
ما أطولَ الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ
صديئةً تحزّ عينيَّ إلى السّحَرْ!

* * *

وزوجتي لا تطفئ السراجَ: "قد يعودْ
في ظُلمة الليل من السّفَرْ."
وتُشعل النيرانَ في مَوْقدنا: "برودْ
هو المساء، وهو يهوى الدفءَ والسّمَرْ."

* * *

وتنطفي مدفأتي، فأضرمُ اللهيبْ

وأذكر العراقَ: ليْت القمر الحبيب

من أفق العراق يرتمي عليّ: آهِ يا قمر

أما لثمتَ وَجْه غيْلانَ؟ أنا الغريب

يكفيه، لو لثمتَ غيْلان؟ أن انتثر

منك ضياءٌ عَبْرَ شبّاك الأبِ الكئيب

ومسّ منه الثّغْرَ والشَعَرْ:

أحسُّ منه أنّ غيلان (شذىً وطيب

من كفّه اللّينةِ انتشر)

عابثَ شَعْري، صاحَ: "آهِ جاء

أبي، وعاد من مدينة الحَجَرْ"

وشدّ بالرداء.

ما أطول الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ

ومديةَ النوم بلا قمر!

لندن ١٩٦٣/١/٤

جنازتي في الغرفةِ الجديدهْ
هتفُ بي أن أكتب القصيدهْ،
فأكتبُ
ما في دمي وأشطبُ
حتى تلينَ الفكرةُ العنيدهْ.
وغرفتي الجديده
واسعةٌ، أوسعُ لي من قَبْري.
إذا اعتراني تَعَبُ
من يقظةٍ فالنوم منها أعذبُ،
ينبع حتى من عيون الصّخْرِ،
حتّى من المدفأةِ الوحيده
تقوم في الزاوية البعيده.

* * *

وترفع الجنازةُ اليابسةُ المهدَّمه
من رأسها، ترنو إلى الجدرانِ
والسقْف والمرآةِ والقناني.
ما للزوايا مظلمه
كأنهنّ الأرضُ للإنسانِ

تريد أن تحطّمه

بالمال والخمور والغواني.

والكذْب في القلب وفي اللسانِ،

تُريدُ أن تُعيده

للغابة البليده؟

وصفحةُ المرآةِ ما لها تُطلّ خاويه

ما أثمرَتْ بغانيه،

بالشَّفَةِ المرجان

تُنيرها، كالشَفَقِ، العَينان

وبالنهود العاريه،

كهذه المرآةِ

ستُصبح الأرضُ بلا حياةِ.

وفي الليالي الداجيه،

في ذلك السكون ليس فيهِ

إلاّ الرياحُ العاويه،

سيفزع الله من الأمواتِ

ويسحبُ الموتَ ويغفو فيه

مثلَ دثارٍ في الليالي الشاتيه

* * *

وهكذا الشاعرُ حينَ يكتب القصيده

فلا يراها بالخلود تنبضُ،

سيهدمُ الذي بنى، يقوّضُ
أحجارَها ثم يملُّ الصمتَ والسُّكونا.
وحين تأتي فكرةٌ جديده،
يسحبُها مثلَ دثارٍ يحجب العيونا
فلا ترى. إنْ شاء أن يكونا
فليهدم الماضيَ، فالأشياء ليس تنهضُ
إلا على رمادها المحترقِ
منتثراً في الأُفقِ..
وتولد القصيده..

درم ١٩٦٣/١/١٠

هرم المغني

بالأمسِ كنتُ إذا كتبتُ قصيدةً فرحَ الدمُ
فأغمغمُ
وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيلْ
أشدو بها، أترنَّمُ:
زادٌ لروحي منذ سَقْسقةِ الصباح إلى الأصيل.
زادٌ.. ولكنْ عنه قد صدفت، تجوع ولا تريدْ
ما يُنعش الآمالَ فيها،
هي حشرجاتُ الروح أكتبها قصائد لا أفيد
منها سوى الهُزْء المرير على ملامحِ قارئيها.

هَرِمَ المغنّي، هدّ منه الداءُ فارتبكَ الغناءْ.
بالأمس كان إذا ترنّم يُمسك اللّيْلُ الغروبْ
بنجومه المترنّحات فلا تخرّ على الدروب،
واليوم يهتف ألفَ آهٍ لا يهزُّ مع المساء
سَعَفَ النخيل ولا يُرجِّحُ زورقَ العرس المحلّى
بعيون آرامٍ ودفْلى
ودرابكَ ارتعدت حناجرُها فأرعدتِ الهواء.

هرِمَ المغنّي فاسمعوه، برغم ذلك، تسعدوه،
ولتُوهموه بأنّ من أبَدٍ شباباً من لحونْ
وهوى ترقرقُ مقلتاه له وينفح منه فوه.
هو مائتٌ، أفتبخلونَ
عليه حتى بالحُطام من الأزاهر والغصون؟
أصغوا إليه لتسمعوه
يرثي الشبابَ ولا كلامَ سوى نشيجٍ: "بالعيون
سلِّمْ عليّ إذا مررتَ."،
أتى وسلّمَ.. صَدِّقوه!
هرم المغنّي فارحموه.

درم ٥/ /١٩٦٣

عملاءُ "قاسمَ" يُطلقون النارَ، آهِ، على الربيعْ
سيذوب ما جمعوه من مالٍ حرامٍ كالجليدْ
ليعود ماءً منه تَطْفحُ كلُّ ساقيةٍ، يُعيد
ألقَ الحياةِ إلى الغُصون اليابساتِ فتستعيد
ما لُصّ منها في الشتاء القاسميّ.. فلا يضيع
يا للعراقْ!
يا للعراقِ! أكاد ألمحُ، عَبْرَ زاخرةِ البحارْ،
في كلِّ مُنْعَطَفٍ، ودربٍ، أو طريق، أو زقاق
عَبْرَ الموانئ والدروبْ،
فيه الوجوه الضاحكات تقولُ: "قد هربَ التتارْ
والله عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النهار،
طلع النهار فلا غروب!"
يا حفصةُ[1] ابتسمي فثغرُكِ زهرة بين السهوب،
أخذتْ من العملاء ثأرَكِ كفُّ شعبيَ حين ثار
فهوى إلى سَقَرٍ عدوّ الشّعْب، فانطلقتْ قلوب
كانت تخاف فلا تحنّ إلى أخٍ عَبْرَ الحدودْ،

---

[1] عذراء عربية من الموصل، صلبها عملاء قاسم ومثلوا بها.

كانت على مَهَلٍ تذوب،

كانت إذا مال الغروب

رفعتْ إلى الله الدّعاء: "ألا أغثْنا من ثمود،

من ذلك المجنون يعشق كلّ أحمرَ، فالدماءْ

تجري وألْسنةُ اللهيب تُمدُّ، يُعجبه الدمار.

أحرقْه بالنيران تهبط، كالجحيم، من السماء،

واصرعْه صرعاً بالرّصاص! فإنّه شبحُ الوباء".

* * *

هُرِع الطبيبُ إليّ – آهِ، لعلّه عرف الدواء

للدّاء في جسدي فجاء؟ –

هرع الطبيب إليّ وهو يقول: "ماذا في العراق؟

الجيْشُ ثارَ ومات "قاسم".." – أيّ بُشرى بالشّفاء!

ولكِدتُ من فَرَحي أقوم، أسيرُ، أعدو دون داء.

مرحى له.. أي انطلاقْ!؟

مرحى لجيْش الأمّةِ العربيةِ انتــزع الوثاق!

يا إخوتي بالله، بالدم، بالعروبة، بالرجاء،

هُبّوا فقد صُرِعَ الطغاةُ وبدّد اللّيْلَ الضياء!

فلتحرسوها ثورةً عربيّةً صُعِق "الرِّفاق"

منها وخرّ الظالمون،

لأنّ "تمُّوزَ" استفاقْ

من بعدِ ما سرق العميل سناه، فانبعثَ العراقْ

لندن – مستشفى سان ماري ١٩٦٣/٢/٨



شناشيل ابنة الجلبي

و

إقبال

شناشيل ابنة الجلبي [1]

وأذكرُ من شتاء القريةِ النضّاحِ فيه النورُ
من خَلَل السّحاب كأنّه النّغَمُ
تسرّبَ من ثقوب المعزف – ارتعشتْ له الظلَمُ
وقد غنّى – صباحاً قبْلَ ... فيم أعدُّ ؟ طفلاً كنت أبتسمُ
لليْلي أو نهاري أثقلتْ أغصانَه النشوى عيونُ الحوْر .
وكنا – جدّنا الهدّار يضحك أو يغنّي في ظلال الجوسق القَصَبِ

(١) الشناشيل : شرفة مغلقة ، مزينة بكثير من الخشب المزخرف والزجاج الملون ، كان شائعاً في البصرة وبغداد قبل مائة سنة . والجلبي لقب هو عند المصريين « شلبي » وعند الأوروبيين « ماركيز ».

وفلاّحيه ينتظرون : « غيثَك يا إلهُ » وإخوَتي في
غابة اللّعِبِ
يصيدون الأرانبَ والفَراش ، و (أحمدَ) الناطور —
نحدّقُ في ظلال الجوْسق السمراء في النّهْرِ
ونرفع للسحاب عيوننا : سيسيل بالقطْرِ .
وأرعدتِ السماءُ فرنّ قاعُ النهر وارتعشتْ ذُرى السّعَفِ
وأشعلهنّ ومْضُ البرْق أزرقَ ثمّ اخضر ثم تنطفىءُ
وفتحت السماءُ لغيْثِها المدرار باباً بعد بابِ
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىءُ
تكلّلُه الفقائعُ ، عاد أخضرَ ، عاد أسمرَ ، غصّ
بالأنغام واللّهَفِ
وتحت النخْل حيثُ تظلُّ تمطِرُ كلُّ ما سعْفَه
تراقصتِ الفقائعُ وهي تُفجَرُ — إنّه الرُّطَبُ
تساقطَ في يد العذراء [1] وهي تهزُّ في لهفه
بجذع النخلةِ الفرعاء (تاجُ وليدكِ الأنوارُ لا الذّهَبُ ،

(١) « وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » (سورة مريم – القرآن الكريم) .

سيصلب منه ُحبٌّ الآخرين ، سيُبرىءٌ الأعمى
ويبعث من قرار القبْر ميْتاً هدّه التعَبٌ
من السفَرِ الطويل إلى ظلام الموْت ، يكسو عظمَه اللحما
ويُوقد قلبَه الثلجي فهو بحبّه يثبُ !) .

* * *

وأبرقتِ السماءُ ... فلاح ، حيث تعرّجَ النهرُ ،
وطاف معلّقاً من دون أُسٍّ يلثمُ الماءَ
شناشيلُ ابنة الجلبيِّ نوّر حوله الزّهَرُ
(عقود ندىً من اللبْلاب تسطع منه بيضاءا)
وآسيةُ الجميلة كحّل الأحداقَ منها الوجد والسّهَرُ .

* * *

يا مطراً يا حلبي
عبّرْ بنات الجلبي
يا مطراً يا شاشا
عبّر بنات الباشا [1]
يا مطراً من ذهبِ .

* * *

---

(١) هكذا يغني الأطفال في قرى البصرة حين تمطر السماء : « مطر ، مطر ، حلبي . عبر بنات الجلبي » الخ ..

تقطّعتِ الدروب ؛ مقص هذا الهاطلِ المدرارِ
قطّعها ووراها ،
وطوّقتِ المعابرُ من جذوع النخل في الأمطارْ
كغرقى من سفينةِ سندبادَ ، كقصّةٍ خضراء أرجأها وخلاها
إلى الغدِ (أحمدُ) الناطورُ وهو يديرُ في الغرفهْ
كؤوسَ الشاي ، يلمس بندقيّتَه ويسعل ثم يعبر طرْفُه
الشُّرْفه
ويخترق الظلامَ .
وصاح « يا جدّي » أخي الثرثارْ :
« أنمكث في ظلام الجوْسق المبتلّ ننتظرُ ؟
متى يتوقفُ المطرُ ؟ »

* * *

وأرعدتِ السماءُ ، فطار منها ثمّةَ انفجرا
شناشيلُ ابنة الجلبيّ ..
ثمّ تلوحُ في الأفُقِ
ذُرى قوس السّحاب . وحيث كان يُسارق النّظرا
شناشيلُ الجميلةِ لا تصيبُ العينُ إلا حمرةَ الشّفَقِ .

* * *

ثلاثون انقضتْ ، وكبرْتُ : كم حبٍ وكم وجْدِ
توهّج في فؤادي !
غيرَ أني كلّما صَفقَتْ يدا الرّعْدِ
مددتُ الطّرف أرقبُ : ربما ائتلقَ الشناشيلُ
فأبصرتُ ابنةَ الجلبي مقبلةً إلى وعدي !
ولم أرها . هواءٌ كلُّ أشواقي ، أباطيل
ونبْتٌ دونما ثمرٌ ولا وَرْدِ !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٤

إرم ذات العماد

(عند المسلمين أن « شداد بن عاد » بنى جنة
لينافس بها جنة الله ، هي « إرم » . وحين أهلك
الله قوم عاد ، اختفت « إرم » وظلت تطوف ،
وهي مستورة ، في الأرض لا يراها إنسان إلا مرة
في كل أربعين عاماً . وسعيد من انفتح له بابها) .

من خَلَلِ الدُّخان من سيكاره ،
من خلل الدخانْ
من قَدَحِ الشاي وقد نشَّر ، وهو يلتوي ، إزارَه
ليحجبَ الزمان والمكانْ ،
حدثنا جدُّ أبي فقال : « يا صغارْ ،
مقامراً كنتُ مع الزمانْ ؛

نقودي الأسماكُ ، لا الفضةُ والنضارْ ،
والورَق الشبّاك والوِهار [1] .
وكنتُ ذات ليْله
كأنما السماء فيها َصدَأٌ وقار ،
أصيدُ في الرُّميْله
في خوْرها العميق ، أسمعُ المحارْ
موسْوساً كأنما يبوح للحصى وللقِفار
بموطن اللؤلؤةِ الفريده ،
فأرهفُ السَّمعَ لعلّي أسمع الحوارْ .
وكان من ندى الخريف في الدجى بُروده
تدبُّ منها رعشةٌ في جسدي فأسحبُ الدّثارْ .
وانفرجَ الغيمُ فلاحتْ نجمةٌ وحيده
ذكرتُ منها نجمتي البعيده
تنام فوق سطْحها وتسمعُ الجِرارْ
تنضحُ (يا وقْعَ حوافرٍ على الدروبْ

(١) الوهار : أداة لصيد السمك تصنع من أغصان الشجر .

في عالمَ النـُّعاس ؛ ذاك عنـْترٌ يجوب
دجى الصّحارى . إن حيٌّ عبْلةَ المزارْ) .
فسرتُ والسَّماءُ وجهتي ، ولا دليلْ ،
أرقب نجمها الوحيد ، والشُّعاعْ
يخفتُ أو يؤُجُّ مانعاً ومانحاً ، وكالشِّراع
ترفع أو تحطُّه الرِّياحُ في الصِّراع .
أسرتُ ألف خطوة ؟ أسرتُ ألفَ ميلْ ؟
لم أدرِ إلا أنـَّني أمالني السَّحَرْ
إلى جدار قلعةٍ بيْضاءَ من َحجَرْ ،
كأنما الأقمارُ منذ ألـْفِ ألف عامْ
كانت له الطـِّلاءْ ،
كأنما النجومُ في المساءْ
سلـْنَ عليْه ثمّ فاض حوله الظـَّلامْ .
وسرتُ حول سورها الطويلْ
أعدُّ بالخطى مداه (مثلَ سندُبادْ
يسيرُ حول بيْضة الرُّخّ ولا يكاد

يعود حيث ابتدأ

حتى تغيب الشمس ، غشى نورَها سوادْ ،

حتى إذا ما رفع الطرْفَ رأى ... وما رأى ؟)

حتى بلغتُ في الجدار موْضعَ العمادْ

تقوم فيه ، كالدُّجى ، بوّابةٌ رهيبه

غلّفها الحديدُ ، مدَّ حوْلَها نحيبه

أراه بالعيون لا تحسُّه المسامعُ .

وقفتُ عندها أدقُّ ..

يا صدىً أراجعُ

أنت من المقابر الغريبه ؟

أحسُّ في الصدى

برودةَ الرّدى ،

أشمُّ فيه عفَنَ الزّمان والعوالِمِ العجيبه

من إرَمٍ وعادْ .

وحين كلَّ ساعدي

وملّني الوقوفُ في الظلامْ

(كناسكٍ ، كعابدٍ
يرفضُه الإلهُ في معبده ، يظل لا ينام
ولا يريد الماء والطعامْ ،
يصيحُ : « كن على الهوى مساعدي
يا رافعَ السّماء ، يا موزّعَ الغمام ») .
جلستُ عند بابها كسائلٍ ذليلْ
جلستُ أسمع الصدى ، كأنه العويلْ ،
يلهثُ خلْفَ حائطٍ من حَجَر ثقيلْ .
كأنّ بين دَقّةٍ ودقة يمرُّ ألف عامْ
وما أجاب العَدمُ الخواءْ .
وحين أوشك الصباحُ يهمس الضياءْ
نعستُ ، نمتُ ... واستفقتُ : مر ألفُ جيلْ !!
الشمسُ والفلاه
والغيْمُ والسماءْ
وكل ما أراه
هناك حيث كان سورُها ، المياه

تشعُّ في الخليجْ » .
وقال جدُّنا ولجَّ في النشيج :
« ولن أراها بعدُ ، إنّ عمريَ انقضى
وليس يُرجع الزمان ما مضى .
سوف أراها فيكُم ، فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتي . فإن رأى إرم
واحدُكم فليطرقِ البابَ ولا ينمْ .
إرَمْ ...
في خاطري من ذكرها ألَمْ ،
حُلمُ صباي ضاعَ ... آهِ ضاع حين تمّ
وعمري انقضى » .

لندن ١٩٦٣/٢/٢١

في الليل

الغُرْفةُ موصَدَةَ البابِ
والصمتُ عميقْ
وستائرُ شبّاكي مرخاةٌ ..
رُبَّ طريق
يتنصّتُ لي ، يترصّدُ بي خلفَ الشبّاك ، وأثوابي
كمفزّعِ بُستان ، سودُ
أعطاها البابُ المرصودُ
نفَساً ، ذرَّ بها حسّاً ، فتكادُ تفيقْ
من ذاك الموت ، وتهمس بي ، والصَّمْتُ عميق :
« لم يبقَ صديق

ليزورك في الليل الكابي
والغرفةُ موصدةُ البابِ » .
ولبسْت ثيابيَ في الوهْمِ
وسريتُ : ستلقاني أُمّي
في تلك المقبرةِ الثكلى ،
ستقول : « أتقتحمُ الليْلا
من دون رفيق ؟
جوعانُ ؟ أتأكل من زادي :
خرّوبِ المقبرة الصادي ؟
والماءُ ستنهله نهْلا
من صدر الأرض :
ألا ترمي
أثوابك ؟ والبسْ من كَفَني ،
لم يبْلَ على مرّ الزّمَنِ ؛
عزريلُ الحائكُ ، إذْ يبلى ،
يرفوه . تعال ونَمْ عندي :

أعددْتُ فراشاً في لَحْدي
لكَ يا أغلى من أشواقي
للشمس ، لأمواهِ النَّهْرِ
كسلى تجري ،
لهُتاف الدّيكِ إذا دوّى في الآفاقِ
في يوم الحشْرِ » .
سآخذُ دربي في الوَهْمِ
وأسير فتلقاني أمّي .

لندن - ٢٧ / ٢ / ١٩٦٣

في انتظار رسالة

وذكرتُها ، فبكيتُ من ألـمي :
كالماء يصعدُ من قرار الأرض ، نزَّ إلى العيون دمي
وتحرّقت قطراتـه المتلاحقات لتستحيلَ إلى دموعْ
يخنقـنَني فأصكُّ أسناني ، لتنقذفَ الضلوع
موْجاً تحطّم فوقهنَّ وذابَ في العَدَمِ .

دخانٌ من القلب يصعدْ
ضبابٌ من الروح يصعد
دخانٌ . . ضبابْ
وأنتِ انخطافٌ وراء البحار ، وأنت انتحابْ

ونوحٌ من القلب كالمدّ يصعد
ودمعٌ تجمّدْ
وغصّت به الآهُ في الحنْجُره .
ذكرتُك ياكلّ روحي ويا دفءَ قلبي إذْ الليل يبرد
ويا روضةً تحت ضوء النجوم بقدّاحها مُزْهره .

وذكرتُ كلّتنا يهف بها ويسبحُ في مداها
قَمَرٌ تحيرَ كالفراشةِ ، والنجومُ على النجوم
دندنّ كالأجراس فيها ، كالزنابق إذْ تعومُ
على المياهِ ... وفضّضَ القَمَرُ المياها .
وكأنّ جسمك زورقُ الحبّ المحمّلُ بالطيوبْ
والدّفْء ، والمجدافُ همْسٌ في المياه يرن آها
فآهاً والنّعاس يسيل منكِ على الجنوب
فينامُ فيه النّخْلُ تلتمعُ السطوحُ بنوْمهنّ إلى الصباحْ .
أواه ، ما أحلاكِ ! نام النورُ فيكِ ونمتِ فيهِ ،
والليْلُ ماءٌ ، والنّباح
مثل الحصى ينداح فيه ، وأنتِ أوّلُ وارديهِ .

هو الصَّيْفُ يلثمُ شطَّ العراقْ
بغيماته ِ ذاب فيها القَمَرْ ،
وتوشِكُ تسبح بيضُ النجوم لولا برودة ماء النـَّهَرْ
وهفَّ شراعٌ لأضلاعه في الهواء اصطفاقْ ،
وغنـَّى مغنٍّ وراء النـَّخيل
يغمغمُ : « يا ليلُ ، طال السَّهَرْ
وطال الفراق ! »
كأنَّ جميعَ قلوبِ العراق
تُنادي ، تريد انهمارَ المَطَرْ .

وصعدتُ نحوكِ والنـُّعاس رياحٌ فاترات تحملُ الوَرَقا
لتمسَّ شَعركِ والنـّهودَ به ، تموتْ
حيناً وتلهثُ في النوافذِ من بيوت
ألقاكِ في غُرُفاتها ، وأشدُّ جسمكِ فارَ واحترقا .
إنـّي أريدكِ ، أشتهيكِ أمسُّ ثغركِ في رساله
طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترقُ الزوارقُ والتخوت

في ضفـّة العشـّار تنفضُ ، وهي لاهثة ٌ ، ظِلاله
علّ الرِّياحَ حملنَ منكِ لها رساله .
لمَ تبخلين عليَّ بالورقات ، بالحبر القليل وسحبة القلم الصَّموت ؟
إني أذوب هوىً ، أموتْ
وأحنُّ منك إلى رساله .

لندن ١٩٦٣/٣/٩

الباب تقرعه الرياح

البابُ ما قرعتْه غيرُ الرِّيحِ في اللّيْل العميقْ ،
البابُ ما قرعته كفُّكِ .
أين كفُّك والطَّريقْ
ناءٍ ؟ بحارٌ بيننا ، مُدُنٌ ، صحارَى من ظَلامْ
الرِّيحُ تحمل لي صدى القُبُلات منها كالحريق
من نخلةٍ يعدو إلى أُخرى ويزهو في الغمامْ

* * *

البابُ ما قرعتْه غير الرِّيح ...
آهِ لعلّ روحاً في الرِّياح
هامت تمرّ على المرافىء أو محطاتِ القطار

لتُسائل الغرباء عني ، عن غريبٍ أمسِ راح
يمشي على قدمين ، وهو اليوم يزحفُ في انكسارِ .
هِي روحُ أمي هزها الحب العميق ،
حب الأمومة فهي تبكي :
« آه يا ولدي البعيدَ عن الديار !
ويلاه ! كيف تعودُ وحدكَ ، لا دليلَ ولا رفيقْ ؟ »
أُماه .. ليتك لم تغيبي خلف سورٍ من حجارِ
لا بابَ فيه لكي أدق ولا نوافذَ في الجدارِ !
كيف انطلقتِ على طريقٍ لا يعود السّائرونْ
من ظلمةٍ صفراء فيه كأنها غَسَقُ البحارِ ؟
كيف انطلقْتِ بلا وداع فالصّغار يولولون ،
يتراكضون على الطريق ويفزعون فيرجعون
ويُسائلونَ الليل عنكِ وهم لِعودكِ في انتظارِ ؟
الباب تقرعه الرياح لعلّ روحاً منكِ زارْ
هذا الغريب !! هو ابنكِ السهران يُحرقه الحنين .
أماه ليتك ترجعينْ

شبحاً . وكيف أخافُ منه وما امّحتْ رغم السنينْ
قسماتُ وجهِك من خيالي ؟
أين أنتِ ؟ أتسمعينْ
صَرخاتِ قلبي وهو يذبحه الحنينُ إلى العراقِ ؟

* * *

الباب تقرعه الرياحُ تهبّ من أبدِ الفراقِ .

لندن ١٩٦٣/٣/١٣

من ليالي السهاد

١ — ليلة في لندن

كما ينسلُّ نورٌ خائفٌ من فُرْجةِ البابِ
إلى الظلماء في غُرْفه
سمعتُ هُتافَه المجروحَ يَعبر نحويَ الشُّرْفه
ليرفعَ من سماوة لندنَ اللَّيْلَ المُطِلَّ بلوْنه الكابي
على الطُّرُقاتِ ترقدُ في دثار الثلج ملتفّه .
وأمسِ سمعتُ في ايرانَ صوت الدِّيكِ في الفجْرِ ،
ومن أُفُقِ المنائر في الكويتِ وزُرْقة البحْرِ
أهابَ ، فرشَّ جفني بالنُّعاس (رنينُ أكوابِ
بماء البصرةِ الرّقراق تُملأ ثم تسقيني) ،
نداءٌ راح ينثره المؤذّنُ . . : أطفىءَ الفانوسُ ، رفّ ضياؤه رفّه

وبعثره الظلام .

وليلي الأوّاهُ في بيروت يُحييني

لأبصرَ فيه وجْهَ الموت ، راح يُذيبُه نبْعٌ من اللّهْفه
تدفّقَ من فؤاد البُلبُل المسكوب بين غصون لبْلابِ
ليالٍ مس عذابٍ ، من سقامٍ ، لستُ أنساها :
غريباً كنتُ حتى حين أحلمُ ، لستُ في جيكور
ولا بغداد ، أمشي في صحارى قلبي المسعور
يُريد الماءَ فيها: « ماءُ ... أين الماء ؟» وهي تُريه أفواها
على آفاقها الرّبداء ظمأى تشرب الدّيجور
فلا تروى. أأقضي العمر في صحراءَ،في ليلٍ من العَطَشِ؟
أُفتّشُ عن عيون الماء ، عن إشراقة الغَبَشِ ؟
كأعمى نال منه السُّكرُ صاح،ورفرفت كفاه بين مساند الماخور
ليبحثَ عن رفيقٍ : «أين جاري؟أين داري؟ أين —أوّاها—
أميرتي التي كانت تناولني كؤوسَ النُّورْ ؟
فيُبصرُ قلبي الدنيا ويلقاها ؟ »
كأنّ الصُّبْحَ أشرقَ في العراق ، وتعبر الرُّؤيا

بحاراً بي وتطوي ألف درب ٍ في الدجى تاها :
تراجعَ عالمٌ وأطلّ ثان ٍ : عالمٌ يحيا
على الأقمار تولدُ ثم تكملُ ثم تندثرُ ،
وما لبس الجديدَ بغيرِ يوم العيد ، يدّخرُ
ويجمع ثم ينفق ثم يضحك وهو يفتخر
بأن الله يرزق حين يرزق ... هكذا الدنيا
شتاءٌ ثمّ صيفٌ . ليس في جيكورَ محتكِرُ
ولا فيها مصارفُ أو جرائدُ : « ليلُ كوريّا
يُرى شفقاً من النيران » .
فالنيران فيها حين تستعر
تضيء لحى الشيوخ يحدّثونَ ، وأعينَ النّسوه
تحدق في الطعام وترقب الأطفالَ في نشوه .
أعدْني يا إله الشّرْق والصحراء والنخل ِ
إلى أيامي الحلوه ،
إلى داري ، إلى غيلانَ ألثمُه ، إلى أهلي !

لندن ٣ / ٢ / ١٩٦٣

٢ – ليلة في باريس

وذهبتِ فانْسحب الضياء ،
أحسستُ باللـَّيْلِ الشتائيّ الحزين ، وبالبكاءْ
ينثالُ كالشلاّل من أفقٍ تحطـّمه الغيومْ .
أحسستُ وخْزَ اللـَّيْل في باريسَ ، واختنقَ الهواء
بالقـَهْقهات من البغايا ... آه ! ترتعش النجوم
منها كبّلور الثريّات الملطـّخ بالدماء
في حانةٍ ُلمدى السكارى في جوانبها انتضاء .
لم يبقَ منك سوى عبيرْ
يبكي وغـيْرُ صدى الوداع : « إلى اللـّقاء ! » .
وتركتِ لي َشفـَقاً من الزّهرات جمّعها إناء

كالأنجم الزرقاء والحمراء في أُفقٍ به حلم الصغيرْ ،
أرجعن لي عُمُرَ الطفولة : يا محاراً في غدير
تتقارعُ الأقداحُ فيه ، ترن أجراسٌ كثارْ :
خوْخٌ وأعنابٌ ورمّانٌ ... وتمتلىءُ الجرار
عند الغروب ؛ هو الخريف ونحن نسْمر حول نار .
وكمستفيقٍ في العراءْ
من حلْمه : هو شَهْرَيار وتلمس الكفُّ الخَوْاء
ذهبَ التّرابِ ... ورنّ في الليل النُّباحُ أو العواء ،
عانقتُ كفّكِ باليدينِ : « إلى اللّقاء »
– « إلى اللقاء » !

وذهبتِ فانسحبَ الضياء .
لو صحّ وعْدُكِ يا صديقه ،
لو صحّ وعدك . آه لانبعثتْ وفيقه
من قبرها ، ولعاد عمري في السنين إلى الوراء .
تأتين أنتِ إلى العراقِ ؟
أمدُّ من قلبي طريقه

فامشي عليه . كأنما هبطتْ عليه من السماء
عشتار فانفجر الربيعُ لها وبرعمتِ الغُصون :
توتٌ ودفلى والنخيل بطلْعه عبقَ الهواء ،
وهو الأصيل وتلك دجلةُ
والنواتيُّ الخفاف يردّدون :
« يا ليْتني نجْمُ الصباحْ
آهٍ لأسقطَ يا حبيبي ، إذْ تنام ، على الغطاء ،
أعتل بالبرد : ارتجفتُ فلفّني ، بَرَد الهواء ! »
وهو الأصيل وأنتِ في جيكورَ تجتذب الرياحْ
منك العباءة ، فاخلعيها ...
ليس يدّثر الضياء !
يتماوج البَلَمُ [1] النحيلُ بنا ، فتَنتَثرُ النجومْ
من رفّة المجداف كالأسماك تغطس أو تعوم ،
ويحار بين الضفّتين بنا كأنا منه في أبَد الزمانْ :
زمن ولا ماضٍ يعود له ، ولا غدَ كي يسيرَ

١ – البلم: زورق البصرة ذو الشكل الشبيه، إلى حد ما. بجندول (البندقية).

إليه . تنطفىءُ النجومُ ونحن نحن العاشقان .

وذهبتِ فانسحب الضياء ،
لم يبق منك سوى عبير
يبكي وغير صدى الوداع : « إلى اللقاء ! »
وتركتِ لي شفقاً من الزهرات جمّعها إناء ...

باريس ١٨/٣/١٩٦٣

٣ – ليلة في العراق

وألهبَ كل ألواح الزجاج الزُّرق في الظلماءْ
فنوَّر غرفتي ، إيماضُ برقٍ ثم رشَّ مدارجَ الأفقِ
نُثارٌ من حُطام الرعْد فارتعشتْ له الأصداء
وحفَّ ،على الدجى، غابٌ من الأمطار والأزهار والورقِ ،
وكنتُ أصيح من أرقي
ومن مرضي : « أريد الماء ! »
وتخنق صوتي الظمآن وهوَهةُ الدجى والماء .
ويعول من بعيدٍ بوقُ سيّاره
يجيءُ إليَّ عبرَ الماء في الحاره ،
يجيءُ إليَّ من أعماق بحرٍ شمسه الخضراء

تنثُّ على شراع السندباد أزاهرَ الشَّفَقِ .
وكنتُ أصيحُ من أرقي
ومن مرضي : « أريد الماء ! » .
كأني وسط هذا الكون حيث يسوطني العطشُ
نواةٌ حولها ارتجفَ العصيرُ الحلوُ في ثمره
ويُحرقها صداها .
وانتظرتُ : سيغسل الغبَشُ
صداي ، يُحيلني شجَره
تمصُّ الماءَ ، يقرع في مداها النُّسغُ !

* * *

وألقى البرْقُ ، أرقصَ ، ظلَّ نافذتي على الغرفه
فذكّرني بماضٍ من حياتي كلُّه ألمُ :
طفولتي الشقيّةِ ، والصبى ، وشبابي المفجوع تضطرمُ
مشاعري البريئة فيه : كيف يجوع آلافٌ من الأطفال ملتفّه
بآلاف الخُروق تعربد الريح الشتائيّه
بها وأظلُّ أحلمُ بالهوى ، والشطّ والقمَرِ ؟

وتزحم كل دربٍ من دروبي هذه الخُوَذُ الحديديه
وتتبعني عيون الموت من زُمَر البنادق نزَّ بالشررِ
كواها ... في دروب الجوع ألهث زائغَ النظر .
وإذ يتمرّد الإنسانُ فيَّ على العبوديه
أثور على الشيوعيَّه .
ولكنَّ البنادقَ ما تزال عيونُها الغضبى
تطاردني لأني غَيرَ ربّي وحده ، لم أتَّخذ ربا .

* * *

وحين تنفست عند انحسار اللّيل عُشتار
تنفّض جُرح تمُّوزَ المدمَّى ، تغسل التربا
عن الجنبات منه ، وحين هدَّ البغْيَ ثوّارُ ،
أرحتُ جبينيَ المحمومُ
على شبّاك داري أرقب الدّربا
تدفّق بالحبال وبالعصيِّ يشدُّها العار
لتسحبَ أو تمزّقَ جسْم طفلٍ ثغره المحروم
من القبلات والغنوات والزادِ

ينادي دون صوتٍ :

« آه يا أمّي ! عرفتُ الجوع والآلام والرُّعْبا

ولم أعرف من الدنيا سوى أيّام أعياد

فتحت العين فيها من رقادي لم أجد ثوْبا

جديداً أو نقوداً لامعاتٍ تملأ الجيْبا

لأن أبي فقيراً كان » .

يا لكِ ثورةً تتأكّلُ القلبا

فأصرخ : « أيها الجبناء كفّوا ! »

ثم تزحم دربي الخوذ الحديديه

وتخنق من فم التنور في داري

فألهث في دروب الجوع أطحن من حصاها ثم أعجنه

وأقذفه إلى النارِ

لأطعم منه زُغباً يطلبون الزاد في قر العشيات الشتائيه .

* * *

ويمضي بالأسى عامان ، ثمّ يهدُّني الداءُ ...

تلاقفني الأسرّة بين مستشفى ومستشفى

ويعلكني الحديـد .

ومن دمي ملأ الأطباء

قناني َ وزعوني في القناني : تصبغ الصّيفا
دمائي والشتاء .
وذات صُبْحٍ قيل إن الشرّ قد دُحرا
ودكّ معاقلَ الطاغوت في بغداد أبطالُ
فقلتُ : سأوقدُ القمرا
سراجاً عند بابي : إنّه ظَفري ، أما قالوا
بأن الشرّ قد دُحرا ؟

* * *

وعدتُ إلى بلادي . يا لنقالات إسعافِ
حملن جنازتي !! متمدّداً فيها أئنّ رأيتُ (غيْلانا)
يحدّق ، بانتظاري ، في السّماء وغيمها السّافي .
وما هو غير أسبوعين ممتلئين أحزانا
ويفجأني النّذير بأنّ أعواماً من الحرمان والفاقه
ترصدُ بي هنا ، في غابة الخُوَذِ الحديديه

* * *

غريقٌ في عباب الموج تنحبُ عنده الغاقه [1]
تئنّ الريح في سَعَف النخيل ، عليه .. ترثيه .
قصائده الحزينة بين أوراقٍ من الدفلى أو الصفصاف تبكيه !

البصره ١٩٦٣/٤/٨

---

١ — الغاقة : النورس ، طائر بحري

خلا البيت

خلا البيتُ ، لا خفقةٌ من نعالْ
ولا كركراتٌ على السُّلَّمِ ،
وأنَّتْ على الباب ريحُ الشمال
وماتت على كرمه المظلم :
تلاشت خُطى موكب الدّافنينْ
ومن مسجد القريةِ المعْتم
تلوّى ، كما رفّ فوق السفين
شراعٌ حزين ،
أذانٌ (هو الله باقٍ ، وزال
عن الأرض إلاّه) : الله أكبرْ ؛

وفي قبره اهتزّ ، كالبرعم
إذا الصُّبْح نوّر ،
دفينٌ ... وأصغى : أنين الرمال
وتهويدةُ النّخل ينعّس واللّيلُ أقمر .
وفي بيْته الآن – خلّ العويلْ
ونوحَ اليتامى وندْبَ النّساءْ –
لقد فتّح الآن زهرُ الشتاء
ليملأ تنوره بالشذى والضياء ،
أنار وجوهاً وأخفى وجوهاً ، فسال الأصيل
ينثُّ سنابله الدافئه ،
وسمراء تُصغي إلى الشاي فوق الصّلاء
يوسوس عن خيمةٍ في العراء
وعن عيشةٍ هانئة .

* * *

خلا البيت وانسلّ لونُ المغيب
إلى المخدع المقفرِ ؛
هنا كان يطوي خيوط الدروب

صغيران تطفىءُ شمس الغروب
بشعريهما نار فانوسها الأحمر ؛
إذا ما ارتخت تحت ظلّ الهجير
جفونٌ يرنّقُ فيها النعاس
أفاءا إلى قصّةٍ عن أمير
تخطّفه الجنُّ حتى أتى منزلاً من نُحاس
تلامحَ شبّاكه عن أميره
تُدلّي إليه الضفيره
ليرقى إليها .
خلا البيْت إلا أنينٌ يابقا
يصعّدها شاطىءٌ من حنين .

البصرة ١٩٦٤/٧/٢٦

جيكور واشجار المدينة

أشجارُها دائمةُ الخُضره
كأنّها أعمدةٌ من رخامْ
لا عُري يعروها ولا صفره ،
وليْلُها لا ينام
يُطلع من أقداحه فجره .
لكنّ في جيكور
للصّيف ألواناً كما للشتاءْ ،
وتغرب الشمسُ كأنّ السماء
حقلٌ يمصّ الماء ،
أزهاره السكرى غناء الطيور .

ناحلةٌ كالصدى
أنغامه البلور ،
كأن فيها مدى
يجرْحنَ قلبي فيستنزفنَ منه النور .
وتغرب الشمسُ وهذا المساء
أمطر في جيكور ...
أمطر ظلاً ، نثّ صمتاً – مساء
غافٍ على جيكور .
واللـَّيْلُ في جيكور
تهمس فيه النجوم
أنغامها ، تولد فيه الزهور
وتخفقُ الأجنحه
في أعين الأطفال ، في عالمٍ للنـَّوم – مرّت غيوم
بالدرب مبيضـّاً بنور القمر ،
تـكاد أن تمسحه ،
تسرق منه الزّهـَرْ ...

البصرة ٢٢/٤/١٩٦٣

ها .. ها .. هوه

تنامين أنت الآن والليلُ مُقمرُ
غانيه أنسام وراعيه مِزهر ،
وفي عالم الأحلام ، من كلِّ دَوْحةٍ
تلقّاكِ مَعْبَر
وبابٌ غفا بين الشجيرات أخضرُ .
لقد أثمر الصمتُ (الذي كان يُثمر
مع الصُّبح بالبوقات أو نوح بائعٍ) ،
بتينٍ من الذكرى وكرْمٍ يقطَّرُ
على كلِّ شارع
فيحسو ويسكر

برفقٍ فلا يهذي ولا يتنمَّرُ .

* * *

رأيتُ الذي لو صدق الحلْم َنفْسَهُ
لمدَّ لك الفما
وطوّق خصراً منك واحتاز معصما ؟
لقد كنتِ شمسَهُ
وشاء احتراقاً فيك ، فالقلب يُصهر
فيبدو ، على خدَّيكِ والثّغْرِ ، أحمر
وفي لَهَفٍ يحسو ويحسو فيسكرُ .

* * *

لقد سئم الشّعرَ الذي كان يكتبُ
كما ملَّ أعماقَ السماء المذنّبُ
فأدمى وأدمعا :
حروب وطوفان ، بيوتٌ تُدمَّرُ
وما كان فيها من حياةٍ تصدّعا .
لقد سئم الشّعرَ الذي ليس يذكرُ

فأغلقَ للأوزان باباً وراءه
ولاح له بابٌ من الآسِ أخضر
أراد دخولاً منه في عالم الكرى
ليصطاد حلماً بين عينيك يخطر
وهيهات يقدر !

* * *

من النّفس ، من ظلمائها ، راح ينبع
وينثال نَهْرٌ سال فانحلّ مئزر
من النّور عن وضّاءَ تخبو وتظهر .
وفي الضفّة الأخرى تحسّين صوته
(فما كان يُسمَعُ)
كما يشعر الأعمى إذِ النور يظهر ،
يناديكِ :
« ها .. ها .. هوه »
ماءٌ ويقطر
من السّعفة النّشوى
بما شربتْ من غيمةٍ نثّها نجوى

وأصداء أقدامٍ إلى الله تعبرُ .

* * *

وناديتِ : « ها .. ها .. هوه » لم ينشرِ الصدى
جناحيّه أو يبكِ الهواء المُثرثرُ .
ونادى وردّدا :
« ها .. ها .. هوه ! »
وفتّحتِ جفناً وهو ما زال ينظر ،
ينادي ويجأر .

لندن ٢٩ / ٢ / ١٩٦٣

احبيني ..!

وما من عادتي نكرانُ ماضيّ الذي كانا ،
ولكنْ .. كلُّ من أحببْتُ قبلك ما أحبّوني
ولا عطفوا عليّ ؛ عشقتُ سبعاً كنّ أحيانا
ترف شعورهن عليّ ، تحملني إلى الصينِ
سفائنُ منعطور نهودهنّ، أغوص في بحْرٍ من الأوهام والوجدَ
فالتقط المحار أظنُّ فيه الدُرّ ، ثم تظلـُّني وحدي
جدائلُ نخلةٍ فرعاءْ
فابحث بين أكوام المحار ، لعلّ لؤلؤة ستبزغ منه كالنـَّجمه ،
وإذ تدمى يداي وُتنزع الأظفار عنها ، لا ينزُّ هناك غيرُ الماء
وغير الطين من َصدَفِ المحار ، فتقطر البسمه

على ثغري دموعاً من قرار القلب تنبثقُ ،
لأن جميع من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأجلسهنّ في شُرَف الخيال .. وتكشف الحُرَق
ظلالاً عن ملامحهنّ : آهِ فتلك باعتني بأفونِ
لأجل المال ، ثم صحا فطلّقها وخلاّها .
وتلك .. لأنها في العمر أكبرُ أم لأنّ الحُسنَ أغراها
بأني غير كفْءٍ ، خلّفتني كلما شرب الندى ورَقُ
وفتّح برعمٌ مشْلَتُها وشممتُ ريّاها ؟
وأمسِ رأيتُها في موقف للباص تنتظرُ
فباعدتُ الخُطى ونأيتُ عنها ؛ لا أريد القربَ منها ،

هذه الشمطاء

لها الويلات ؟ ثم عرفتُها : أحسبْتِ أن الحسْنَ ينتصرُ
على زمن تحطّم سور بابلَ منه ، والعنقاء
رمادٌ منه لا يُذكيه بعث فهو يستعر ؟
وتلك كأنّ في غمّازتيْها يفتّح السّحَرُ
عيونَ الفُلِّ واللّبلاب ، عافتْني إلى قصر وسيّاره ،

إلى زوج تغيَّر منه حالٌ ، فهو في الحاره
فقير يقرأ الصحفَ القديمةَ عند باب الدار في استحياء ،
يحدّثُها عن الأمس الذي ولّى فيأكل قلبَها الضَّجَرُ .
وتلك وزوْجها عبْداً مظاهرَ ليْلُها سَهَرُ
وخمرٌ أو قمارٌ ثم يوصدُ صُبُحَها الإغفاء
عن النَّهر المكركر للشراع يرفّ تحت الشمس والأنداء .
وتلك ؟ وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها ،
شربتُ الشِّعر من أحداقها ونعستُ في أفياء
تنشّرُها قصائدُها عليّ : فكل ماضيها
وكل شبابها كان انتظاراً لي على شطٍّ يهوِّم فوقه القَّمَرُ
وتنعس في حِماه الطيرُ رشّ نُعاسَها المطرُ
فنبهها فطارت تملأ الآفاقَ بالأصداءِ ناعسةً
تؤج النور مرتعشاً قوادمُها ، وتخفقُ في خوافيها
ظلالُ الليل . أين أصيلُنا الصيفيُّ في جيكورْ ؟
وسار بنا يوسوس زورقٌ في مائه البلّور ؟
وأقرأ وهي تُصغي والربى والنَّخل والأعناب تحلم فيدواليها؟

تفرّقت الدروب بنا نسير لغير ما رجعَه ،
وغيَّبها ظلامُ السجن تؤنسُ ليلَـها شمعه
فتذكرني وتبكي . غير أني لستُ أبكيها
كفرت بأمَّة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكـَّةٍ أو عند واديها .
وآخرهنّ ؟؟

آهِ .. زوجتي ، قـَدَري . أكان الداء
ليقعدني كأني ميِّتٌ سكران لولاها ؟
وهأنا ... كلُّ من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأنتِ ؟ لعلّه الإشفاق !!

لستُ لأعذرَ اللهَ
إذا ما كان عطفٌ منه ، لا الحب ، الذي خلاّه يسقيني
كؤوساً من نعيمٍ .

آهِ ، هاتي الحبَّ ، روِّيني
به ، نامي على صدري ، أنيميني
على نهديك ، أوّاها

من الحُرَق التي رضعتْ فؤادي ثَمّةَ افترستْ شراييني .

أحبّيني

لأني كلُّ من أحببتُ قبلك لم يحبّوني .

باريس ١٩ / ٣ / ١٩٦٣

يقولون تحيا ...

لاحببْتُ لو أن في القلب بُقيا
– وقد لفّه اللّيْلُ – للمشرقِ ،
يقولون « ما زلت تحيا » .. أيحيا
كسيح إذا قام أعيا
به الداءُ فانهار ، لم تخفقِ
على الدرْب منه الخطى ؟ يا أساه
ويا بؤس عينيْه ممّا يراه ؟

* * *

يقولون : « تحيا » فيبكي الفؤادْ
فلو لم يكن خافقاً لاستراح ؛

كطيرٍ رميٍ يجرُّ الجناح
وقد مد ، عبر الربى والوهاد ،
بعينيه : في دوحةٍ خلف تلك الظـّلال
سجا عشـّه ، فيه زُغبٌ جياع
إذا حجـّب الغيمُ ضوءَ الهلال
يقولون « هذا جناح أبينا وقد عاد بعد الصراع
بزهره ،
بقطره
من الطلّ » .. حتى يُطلّ الصباح .
كطيرٍ رميٍّ يجرُّ الجناح ،
أقضّي نهاري بغير الأحاديث ، غير المنى ،
وإن عسْعَسَ الليْلُ نادى صدىً في الرياح :
« أبي .. يا أبي » طاف بي وانثنى ،
« أبي .. يا أبي »
ويُجهش في قاع قلبي نُواح :
« أبي .. يا أبي » .

« أبي .. يا أبي » في صفير القطارْ
« أبي .. يا أبي » في صياح الصّغار
(خفاف الخُطى يعبرون الدروبْ
بلا غايةٍ ، يقطفون الثّمار
ولا يُطعمون ابنةً جائعه .
ولي منزل في سهول الجنوب
إذا كنتُ أسعى ، من السابعه
إلى أوْبة الطير عند الغروب ،
فكي أُطعمَ الجائعينْ
وراء نوافذه شاخصين
إلى الدرب : « أين الأبُ المُطعمُ »)
« أبي .. يا أبي » والدُّجى مظلمُ
وجيكور خلف الدجى والدروب وخلف البحار .

لندن ٢٣ / ٢ / ١٩٦٣

وغدا سألقاها

وغداً سألقاها ،
سأشدُّها شداً فتهمس بي
« رحماك » ثم تقول عيناها :
« مزّق نهوديَ ، ضمَّ – أوّاها –
ردفيَّ ... واطوِ برعشة اللَّهَبِ
ظهري ، كأنّ جزيرةَ العربِ
تسري عليه بطيب ريّاها » .
ويموج تحت يدي ويرتجفُ
بين التمنُّع والرضا ردِفُ ،
وتشب عند مفارق الشَّعرِ

نارٌ تدغدغها : هو السَّعَفُ
من قريتي رعشتْ لدى النَّهْر
خوصاته ؛ وتلين لا تدري
أيّان تنقذف .
ويهيم ثغري وهو منخطفُ ،
أعمى تلمَّس دربه ، يقفُ
ويجسُّ : نهداها
يتراعشان ، جوانب الظَّهْرِ
تصطكُّ ، سوف تبلُّ بالقطْرِ ؛
سأذوب فيها حين ألقاها !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٧

ليلة وداع

(إلى زوجتي الوفيّة)

أوْصدي الباب ، فدنيا لستِ فيها
ليس تستأهل من عينيّ نظره .
سوف تمضين وأبقى .. أي حسره ؟
أتمنّى لك ألاّ تعرفيها ؟
آهِ لو تدرين ما معنى ثوائي في سرير من دمِ
ميّتَ الساقين محموم الجبينْ
تأكل الظلماءَ عيناي ويحسوها فمي
تائهاً في واحةٍ خلف جدارٍ من سنين
وأنين

مستطار اللبِّ بين الأنجم .

* * *

في غدٍ تمضين صفراء اليدِ

لا هوىً أو مغنمٌ ، نحو العراقِ

وتحسّين بأسلاك الفراقِ

شائكات حول سهلٍ أجرد

مدّها ذاك المدى ، ذاك الخليج

والصحارى والروابي والحدود

أيُّ ريشٍ من دموع أو نشيج

سوف يُعطينا جناحين نرود

بهما أفق الدجى أو قبّة الصبح البهيج

للتلاقي ؟

كلُّ ما يربط فيما بيننا محْضُ حنينٍ واشتياقِ

ربما خالطه بعضُ النفاق !

آهِ لو كنتِ ، كما كنتُ ، صريحه

لنفضنا من قرار القلب ما يحشو جروحه

ربما أبصرت بعض الحقد ، بعض السأم
خصلةً من شعر أخرى أو بقايا نَغَمِ
زرعتْها في حياتي شاعره
لست أهواها كما أهواك يا أغلى دمٍ ساقى دمي .
انها ذكرى ولكنّك غيرَى ثائره
من حياةٍ عشتها قبل لقانا
وهوىً قَبل هوانا .
أوصدي الباب . غداً تطويك عني طائرة
غير حبٍّ سوف يبقى في دمانا .

الكويت ٢١/٨/١٩٦٤

اغنية بنات الجن

شعورنا بلّلها المطَرْ
وأشعلَ القمرْ
فيها فوانيسَ ، فيا قوافلَ الفَجَرْ
بشعرنا اهتدي ،
سيري إلى السَّحَرْ ،
سيري إلى الغدِ ؟
نحن بنات الجنّ لا ننامْ ،
نهيم في الظلام
على ذرى التلال أو نركضُ في المقابرِ ،
نعشق كلّ عابر ،

نسمعه أغانيَ الشباب والغرامْ .

إن نزلتْ صبيَّةٌ فيها من البشرْ

وأوحشتْها وحدةُ القبور أو دجنّة الحُفر

سرتْ أغانينا إليها تعبر الترابْ

تقول : « إنْ عريتِ فالثياب

تنسجها عناكبُ الشَّجَرْ

وكلُّ خيْطٍ من خيوطها يرنّ كالوتر .

نامي إلى أن يؤذنَ القَدَر

ويُحشر الموْتى إلى الحساب .

حبيبك الوفيُّ مسَّ ثغرَه ابتسام ،

فقد رأى سواكِ .

بل رآكِ في قوامها النديِّ كالزَّهرْ

وهُدبها ومقلتيْها . أشعل الهُيام

في عيْنه السَّهَرْ ،

رآكِ فيها فاشتهاكِ . ليته انتظر ؟ »

* * *

نلوح للطّفْل فراشاتٍ من الشُّعاعْ
تخفقُ في ذوائب الشجَرْ ،
ويلمحُ العاشقُ في عيوننا الوداع
إذْ يصفر القطار أو يصفّقُ الشراع .
ونحن للشاعر إن شعر
نلوح في الدُّخان والعقارْ ،
ُننشد : « ُفلْكُ سندبادَ ضلّ في البَحَرْ
حتى أتى جزيرةً يهمس في شطآنها المحار ،
يهمس عن مليكة يحبها القمر
فلا يغيب عن سماء دارها النضار » .
فيهتف الشاعر : « ُخذْني إلى حماها
لأنني أهواها
لأنني القمر ! »
وُجنّ وانتحر .

* * *

شعورنا بلّلها المطرْ ،

ويرشف القمر
منها إلى أن يُقبل السَّحَرْ .
نركض في المقابرِ
نُضلُّ كلَّ شاعر
وكلَّ من عبر ؟

لندن ١٩٦٣/٢/٢٦

جيكور أمّي [1]

تلك أمّي ، وإنْ أجئْها كسيحا
لاثماً أزهارها والماء فيها ، والترابا
ونافضاً ، بمقلتي ، أعشاشها والغابا :
تلك أطيار الغد الزرقاء والغبراء يعبرن السطوحا
أو ينشّرْن في بويْبَ [2] الجناحيْن: كزهْرٍ يفتّح الأفوافا.
ها هنا ، عند الضحى ، كان اللّقاءْ
وكانت الشمس على شفاهها تكسّر الأطيافا
وتسفح الضياء .
كيف أمشي ، أجوب تلك الدروب الخضرَ فيها وأطرق الأبوابـــا ؟

أطلب الماء فتأتيني من الفخّار جرّه
تنضح الظلَّ للبرود الُحلوَ ... قطره
بعد قطره .
تمتد بالجرة لي يدان تنشران حولِ رأسي الأطيابا :
(هالتي) تلك ، ام (وفيقة) ام (إقبال) ،
لم يبقَ لي سوى اسماء
من هوىً مرَّ كرعدٍ في سمائي
دونَ ماء .
كيف أمشي ! خطاي مزّقها الداء . كأني عمود
ملْحٍ يسيرُ ..
أهي عامورة الغويّة أم سادوم ؟
هيهات .. إنّها جيكورُ :
جنّةٌ كان الصبى فيها وضاعت حينَ ضاعا .
آه لو انّ السنين السود قمحٌ أو صخورُ
فوق ظهري حملتهُنَّ، لألقيتُ بحملي فنفضّتْ جيكورُ
عن شجيراتها ترابا يغشّيها وعانقتُ معزفي ملتاعا ،

يُجهش الحبّ ، به ، لحناً فلحنا
ولقاءً فوداعا .
آه لو أن السنين الخُضر عادت ، يوم كُنّا
لم نزل بعدُ فتيّين لقبّلتُ ثُلاثاً أو رُباعا
وجنتيْ (هالةَ) والشّعر الذي نشّر أمواج الظلامِ
في سيولٍ من العطور التي تحمل نفسي إلى بحارٍ عميقه
ولقبّلتُ ، برغم الموت ، ثغراً من وفيقه
ولأوصلتُكِ يا (إقبال) في ليلة رعدٍ ورياح وقتامِ ،
حاملاً فانوسيَ الخفّاق تمتدُّ الظلالْ
منه أو تقصر ، إذْ يرعش في ذاك السكونْ ،
ذلك الصمتِ سوى قَعقعة الرعد ،
سوى خفْق الخطى بين التّلال
وحفيف الريـــح في ثوبكِ ، أو وهوهة الليل مشى بين الغصون ،
ولعانقتُكِ عند الباب ، ما أقسى الوداعْ !!
آهِ لكنَّ الصِّبى ولّى وضاع ؛

الصِّبى والزمانُ لن يرجعا بعْدُ ،

فقرّي يا ذكريات ونامي .

لندن ٥ / ٢ / ١٩٦٣

---

(١) إذا كان ٣ (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) = ٣ فاعلاتن، ٣ مستفعلن ، ٣فاعلاتن مثلاً فإن الفرضية التي تقوم هذه القصيدة موسيقياً، عليها صحيحة. ارجو ان تتاح الفرصة لتجربة هذه الفرضية على جهاز الأصوات الذي سبق للدكتور محمد مندور ان قام ببعض التجارب عليه في باريس . غير اني لم التزم بذلك إلا في الأجزاء الأولى من القصيدة .

(٢) نهر في جيكور .

يا غربة الروح

يا غربةَ الروح في دنيا من الحَجَرِ
والثلج والقار والفولاذ والضجرِ ،
يا غربة الروح .. لا شمْسٌ فأئتلقُ
فيها ولا أُفـُقُ
يطير فيه خيالي ساعةَ السَّحَرِ .
نارٌ تضيء الخـُواء البرد ، تحترقُ
فيها المسافات ، تُدنيني ، بلا سَفَرِ ،
من نخل جيكورَ أجني دانيَ الثـَّمَرِ .
نارٌ بلا سَمَرِ
إلاّ أحاديثَ من ماضيٌ تندفقُ
كأنهنّ حفيفٌ منه أخيلةٌ
في السَمْع باقيةٌ تبكي بلا شَجَرِ .
يا غربةَ الروح في دنيا من الحجر !

* * *

مسدودة كلُّ آفاقي بأبنيةٍ
سودٍ ، وكانت سمائي يلهث البَصَرُ
في شطّها مثل طيرٍ هدَّه السَّفَرُ :
النهر والشَّفَقُ
يميلُ فيه شراعٌ يرجف الألَقُ
في خفقِهِ ، وهو يحنو ، كلما ارتعشا ،
دنيا فوانيسَ في الشطَّين تحترقُ ،
فراشةً بعد أخرى تنشر الغَبَشا
فوق الجناحين .. حتى يلهث النَّظَرُ .

* * *

الحبُّ كان انخطافَ الروح ناجاها
روحٌ سواها ، له من لمسةٍ بيدِ
ذخيرةً من كنوزٍ دونما عَدَدِ .
الحب ليس انسحاقاً في رحى الجَسَدِ
ولا عشاءً وخمراً من حُميَّاها
تلتفُّ ساقٌ بساقٍ وهي خادرةٌ

تحت الموائد تُخفي نشوةَ البَشَرِ
عن نشوةِ الله من هَمْسٍ ومن سَمَرِ
في خيمةِ القَمَرِ .
يا غربةَ الروح لا روحٌ فتهواها .

* * *

لولا الخيالات من ماضيَّ تنسربُ
كأنها النوم مغسولاً به التَّعَبُ
لم يترك الضجرُ
مني ابتساماً لزوجٍ سوف ألقاها
ان عدتُ من غربة المنفى : هو السَّحَرُ
والحلم كالطلِّ مبتلاً به الزَّهَرُ
يمس جفنين من نورٍ وينسكبُ
في الروح أفرحها حيناً وأشجاها .
تسللتْ طرقتي للباب تقتربُ
من وَعيها وهو يغفو ثم تنسحبُ ،
ونشَّر الحُلمُ أستاراً فأخفاها

ورفّ جفناها
حتى كأنّ يدي
إذ تطرق الباب مسَّتْ منهما : « واها !
من دقّ بابي ؟ أهذا أنت يا كبدي ؟ »
وذاب في قبلتي ما خلـَّف السَّهَرُ
في عينها من نعاس ، فهْي تزدهر
كوردةٍ ُفتـّحت للفجر عيناها .

لندن ٢٦/٢/١٩٦٣

أم كلثوم والذكرى

وأشربُ صوتَها .. فيغوص من روحي إلى القاعِ
ويُشعل بين أضلاعي
غناءٌ من لسان النار ، يهتف « سوف أنساها
وأنسى نكبتي بجفائها وتذوب أوجاعي » .
وأشرب صوتها .. فكأنَّ ماء بُويبَ يسقيني
وأسمع من وراء كرومه ورباه « ها .. ها .. ها »
تردّدها الصبايا السُّمْرُ من حينٍ إلى حين .
وأشربُ صوتها فكأنَّ زورقَ زفّةٍ وأنينَ مزمارِ
تجاوبُه الدرابكُ ، يعبران الروح في شَفَقٍ من النار
يلوح عليه ظل وفيقةَ الفرعاء أسودَ يزفر الآها

سحائب من عطورٍ ، من لحونٍ دون أوتارِ .
وأشرب صوتها .. فيظل يرسم في خيالي صفّ أشجارِ
أغازل تحتها عذراءَ ؛ أو آها
على أيامي َ الخضراء بعثرها ووارها
زواجٌ . ليت لحن العُرس كان غناء حفّارِ
وقرعاً للمعاولِ وهي تحفر قبرَي المركوم منه القاع بالطين
وأذكرها ، وكيف (وجسْمُها أبقى على جسمي
عبيراً منه ، دفئاً غلـّف الأضلاع) أنساها ؟
أأنساها ؟ أأنسى ضحكةً رعشت على لحمي
وأعصابي ، وكفـّاً مسّحتْ وجهي برياها ؟؟
ُقساة كلُّ من لاقيتُ : لا زوجٌ وَلدُ
ولا خِلٌ ولا أب أو أخ فيزيل من همّي ..
ولكنُ . ما تبقى بعدُ من ُعمريْ ؟ — وما الأبَدُ ..
بعمري -
أشهُرٌ ويريحني موتٌ فأنساها .

لندن - ١٩٦٣/٣/٩

كيف لم أحببك ؟

كيف ضيَّعتك في زحمة أيامي الطويله ؟
لم أحلَّ الثوبَ عن نهديكِ في ليلة صيف مُقْمِرَه ؟!
– يا عبير التّوت من طوقيها .. مرّغتُ وجهي في خميله
من شذى العذراء في نهديك –
ضيّعْتك ، آهٍ يا جميله !
إنه ذنبي الذي لن أغفره !
كيف لم أحببكِ ؟! يا لهفة ما بعد الأوان
في فؤادٍ لم تكوني فيه إلا جذوةً في مجمره !
شعرك الأشقر شعّ اليوم شمساً في جناني
يتراءى تحتها ساقاكِ ، يا للزنبقِ

رفّ من ساقيْك ؟!

آهٍ كيف ضيّعتك يا سرحة خوخٍ مُزهرَه ؟

آه لو عندي بساط الريح !!

لو عندي الحصان الطائرُ !!

آه لو رجلاي كالأمس تُطيقان المسيرا !

لطويت الأرضَ بحثاً عنكِ .

لكنّ الجسورا

قطعتها بيننا الأقدار . مات الشاعرُ

فيّ وانسدّت كوى الأحلام .

آهٍ يا جميله !

البصرة — ٨/١١/٦٣

أسير القراصنة

أجنحةٌ في دوحةٍ تخفق
أجنحةٌ أربعة تخفق
وأنتَ لا حبٌ ولا دارُ ،
يُسلمك المشرقُ
إلى مغيبٍ ماتت النارُ
في ظلّه ... والدرب دوّار
أبوابه صامتةٌ تُغلقُ !

جيكور في عينيك أنوارُ

خافتةٌ تهمسُ :

« مات الصبي ! »

لم تبقَ آثارُ

من فجره ، وانفرط المجلسُ ،

فالتل لا ساقٍ ولا سامرٌ باقٍ وسمارُ :

وأراهمْ في سفحه الموحش المهجور حفّار !

وتحسدُ الشحاذ إن لاحا

يمشي على عكازه البالي .

مشلولة رجلاك مشدودة عيناك بالآل

وألف دربٍ دونك انداحا

يدعوك أن تقطعه في الدجى

وتقطف الأثمار عن جانبيْه

وأنت لا تملك غير الشجّى

ودمعة تجري اشتياقاً اليه .

عامان من نزع بلا موتِ

وأنت ما كنت سوى صوتِ ،

صوتٍ يدوي في قلاع الرياحْ .
يا ليتك المشاء في صمْتِ
لا عازف القيثار باسم الجراح ؟
وأنت في سفينة القرصان
عبدٌ أسيرٌ دون أصفادِ
تقبع في خوفٍ وإخلادِ
تُصغي إلى صوت الوغى والطعّانْ :
سال الدم ،
اندقت رقاب ومال
ربّانها العملاقْ
وقام ثانٍ بعده ثم زالْ
فامتدت الأعناقْ
لأي قرصان سيأتي سواه
وأي قرصانٍ ستعلو يداه
حيناً على الأيدي !؟

(وليأت من بعدي ...

من بعديَ الطوفان »

تسمعها تأتيك من بُعْدِ

يحملها الأعصار عبر الزمان !

البصرة — ١٩٦٣/١٠/٢٩

نسيم من القبر

نسيم الليْل كالآهات من جيكور يأتيني
فيبكيني
بما نفثتْه أمي فيه من وجدٍ وأشواقِ
تنفس قبرها المهجور عنها ، قبرها الباقي
على الأيّام يهمس بي : « تراب في شراييني
ودودٌ حيث كان دمي ، وأعراقي
هباءٌ من خيوط العنكبوت ؛ وأدمعُ الموتى
اذا ادّكروا خطايا في ظلام الموت .. ترويني .
مضى أبدٌ وما لمحتك عيني ! »
– ليت لي صوتا

كنفح الصور يسمع وقعَه الموتى . هو المرَضُ
تفككَ منه جسمي وانحنت ساقي
فما أمشي ، ولم أهجركِ ، إني أعشق الموتا
لأنكِ منه بعض ؛ أنت ماضيَّ الذي يمضُ
اذا ما اربدَّت الآفاق في يومي فيهديني !

* * *

أما رنّ الصدى في قبرك المنهار ، من دهليز مستشفى،
صداي أصيح من غيبوبة التخدير ، أنتفضُ
على ومض المشارط حين سفَّت من دمي سفـّا
ومن لحمي ؟ أما رنّ الصدى في قبرك المنهارْ ؟
وكم ناديتُ في أيام ُسهدي أو لياليـه :
أيا أمي ، تعالي فالمسي ساقي واشفيني » .
يئن الثلج والغربان تنعب من طوىً فيهِ ،
وبين سريريَ المبتلّ حقّ القاع بالأمطارْ
وقبركِ ، تهدرُ الأنهارْ

وتصطخب البحار إلى القرار يخضُّها الإعصار .

* * *

أما حَملت إليك الريحُ عَبْرَ سكينةِ الليْلِ
بكاء حفيدتيْكِ من الطوى وحفيدك الجوعانْ ؟
لقد جعنا وفي صمتٍ حملنا الجوع والحرمان ،
ويهتك سرنا الأطفال ينتحبون من ويلِ
أفي الوطن الذي آواك جوع ؟أيُّما أحزان
تؤرّق أعين الأموات ؟
لا ظُلم ولا جورُ
عيونها زجاجٌ للنوافذ يخنقُ الألوانْ .
هناك لكل ميت منزلٌ بالصمت مستورُ ،
ولكنا هنا عصفت بنا الأقدارُ من ظلٍّ
إلى ظلٍ ومن شمس إلى شمس يغيب النورْ
على شرفات بيتٍ ضاحكاتٍ ثم يُشرق وهي أطلالُ
ويخفق حيث كركر أمسِ أطفالُ

صريرٌ للجنادب هامسات :« إنه المقدورْ
تصدَّعَ برجُ بابل منه وانهدمت صخور السور ! »

* * *

أما حملت إليك الريح عَبر سكينة الليلِ
بكاء حفيدتيك من الطوى بعلو من السّهلِ ؟

البصرة — ١٨/٤/١٩٦٣

في المستشفى

كمستوحدٍ أعزلٍ في الشتاءْ
وقد أوغل الليل في نصفه ،
أفاق فأوقظ عين الضياء
وقد خاف من حتفه ،
أفاق على ضربة في الجدار –
هو الموت جاء !
وأصغى : أذاك انهيار الحجارْ
أم الموت يحسو كؤوس الهواء ؟
لصوصٌ يشقون درباً إليه
مضوا ينقبون الجدار .

وظلّ يعدُّ انهيار الترابْ
ووقعَ الفؤوس على مسمعيهْ .
يكاد يحس التماع الحِراب
وحزاتها فيه .. يا للعذابْ !!
وما عنده غير محض انتظار :
هو الموت عَبر الجدار !

* * *

كذاك انكفأتُ أعضُّ الوساد
وأسلمتُ للمشرط القارسِ
قفاي المدمى بلا حارس .
– بغير اختياري ، طبيبي أراد ! –
لقد قصّ .. مدّ المجسّ الطويل ...
لقد جره الآن . أواه .. عادْ .
ولا شيء غير انتظار ثقيل .
ألا فاخرقوا ، يا لصوص ، الجدارْ
فهيهات ، هيهات ، مالي فرار !

لندن – ٥/٢/١٩٦٣

سلوى

ظلامُ الليل أوتارُ
يدندن صوتك الوسنان فيها وهي ترتجف ،
يرجع همسها السعَفُ
وترتعش النجوم على صداه : يرن قيثار
بأعماق السماء . ظلام هذا الليل أوتار !

* * *

وكم عبر الخليج إليّ والأنهار والترعا ،
يدغدغ بيض أشرعة يهيم وراءها القمر
وينشج بينها المطر ؛
وأوغل في شعاب البرق ، يرجف كلما لمعا

ليحمل من قرارة قلبك الآلام والفزَعا .

* * *

أشمُّ عبيركِ الليليّ في نبراتك الكسْلى
يناديني ويدعوني
إلى نهدين يرتعشان تحت يدي وقد حلاّ
عُرى الأزرار من ذاك القميص ، ويملأ الليلا
مشاعلَ في زوارق ، في عرائشَ ، في بساتينِ

* * *

شذى الليمون يصرع كلّ ظلٍّ في دواليها .
أراكِ على السرير وأنت بين الليل والفجرِ :
يكاد النجم في الشباك والمصباحُ في الخِدْرِ
يمسُّها النعاس ، وأنت زنبقةٌ حواشيها
ينبّهها هُتاف الدّيكِ يعبر ضفّةَ النهرِ .

* * *

ويهمس بي صدى : « سلوى

تغنّي » . كلٌّ سلوى في خيالي تكشف الأضواء عنها
وهي تبتسمْ :
صديقةُ كلّ فحْلٍ من سدومٍ ، في يدٍ قَلَمُ
يسطّرُ في الجريدة أنها تهوى ولا تهوى ،
هي امرأتانِ في امرأةٍ ... ويسرب في دمي ضَرَمُ

* * *

وجارتنا الصبيّةُ في حرير النوم تنسربُ ،
يشف الثوبُ عن نهدين طوْديَّين كم رجفا
من الأحلام تحت يدٍ تُعصّر بردُها لَهَبُ .
لها من فورة العذراء عطرٌ يرتخي ، يثبُ ،
يمازجُ نفحَ ما نفَحَ الحشيشُ ، يسيلُ مرتجفا .

* * *

وألمحُ في سماء الصيف عَبرَ تماوجِ الشجَرِ
سماوةَ لندنَ المنهلّ فيها الثلج كالمطر ،
ونافذةً تعلّقَ في الظلام زجاجُها الألِقُ ،
ومدفأةً وراء الليل تحترق ،

وأسمع من يحدّث عن هوى سلوى ويرقبُ طلعةَ السَّحرِ :

* * *

« وأشعلتِ الظهيرةُ نارها في الشارع الممتدّ بين حدائق
النارنج والعِنَبِ
وأصدتْ في رحاب المنزل الخالي
خُطى سلوى ، وأُرخِيتْ الستائر يا لشلاّلِ
من الألوان والخَدَر البَرود .
ومسّها لَهَبي
فارْعشَ كلّ عرْق في صِباها ، كلّ ما عَصَبِ

* * *

ويزرع ألفَ غابٍ للنخيل غناؤكِ المكسالْ
ترقرقتِ الجداولُ بينهنّ وأزهرَ اللّيمونْ ...
وأنسامُ الربيع تمرُّ تنثّر زَهرَهُ في مائها السلْسال
لا حَمَلَ الوجوهَ إليّ ماءُ غنائكِ المكسال
ويحملني النعّاس إلى جزائرَ في مدىً محزونْ !

البصرة ٩ / ٩ / ١٩٦٣

متى نلتقي ؟

ألا يأكلُ الرعبُ منا الضلوعْ
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه ،
فلاحتْ لنا ، من ظلامٍ ، قلوع
تهدهدُها غمْغماتٌ حزينه ؟
ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟
ألا تتحجَّرُ منا العيونْ
إذا لاح في الليل ظل البيوتْ
هزيلاً كما ينسجُ العنكبوت
ألا تتحجَّر منا العيون
ويلمع فيها بريقُ الجنون ؟

وبالأمس كنّا يُذيبُ العناقْ
دماً في دمٍ ،
كنورٍ ونارٍ ، سناً واحتراقْ
يجولان في منزلٍ مُظْلمٍ
ولكن ما بيْننا كانَ بَحْرْ
تغنّيك أمواجُه العاتيه :
« سنرعاكِ من قلعةٍ شدّ منها حديد وصخْرُ
فما الحب هدْمٌ لجدرانكِ العاليه » .
ولكن ما بيْننا كان بَحْرُ
وصحراء تنشجُ فيها النجومْ
ولا نلتقي في دجىً أو صباحْ ،
تموت على رملها عاصفاتُ الرياحْ
وتأكل عيْنَ الدليل التخوم
وصحراءُ تنشج فيها النجومْ

وطارتْ بي الريحُ عبْرَ البحار
إلى الليل والثلج والجهلِ ،

فصرنا إلى واقعٍ لا نحار
بألغازه فاسألي :
– وطارت بي الريحُ عبر البحارْ –
« أما من لقاءٍ لنا في الزمان ؟ »
بلى .. حينما تفهمين اللّقاءْ
فيأوي إلى اللوحة المُغرَقان
يشدانها ، يرفعان الدعاء :
« ألا نجّنا يا إله السماء ! »

ألا يأكل الرعب منا الضلوع
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه
فلاحت لنا ، من ظلام ، قلوع
تهدهدها غمغمات حزينه ؟
ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟

لندن – ١٩٦٣/٣/١٠

أظل من بشر[1]

يا رب لو جدت على عبدك بالرقادْ
لـَعله ينسى
من عمره ِ الأمسا
لعله يحلم أنه يسير دونما عصا ولا عماد
ويذرع الدروب في السحرْ
حتى تلوحَ غابةُ النخيلْ
تنوء بالثمرُ
بالخوخ ؛ والرمان ، والأعناب فيها يعصر الأصيل
رحيقه المشمس أو تألقْ القمر

---

(١) كانت هـذه القصيدة مشطوبة ٠

يدخلها فيختفي تحت ذوائب الشجرْ
ويقطف الجنى .
علق في رمّانةٍ عصاه وانثنى
يأكل أو يجمّع الزهرْ :
حتى إذا ما انطلقا
وراح يطوي الطُّرُقا
أحسّ أو ذكرْ
بأنه بلا عصاً سار وما شعَرْ !
يا رب لو جدت على عبدك بالرقاد
لأنه يُذكرُهُ السَّهَر
بأنه أقلُّ من بَشر !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٥

القن والمجرّة

ولولا زوجتي ومزاجُها الفوارُ لم تنهدّ أعصابي [(١)]
ولم ترتدّ مثل الخيط رجلي دونما قوّه ،
ولم يرتجّ ظهري فهو يسحبني إلى هُوّه ،
ولا فارقتُ أحبابي ،
ولا خلّفتُ اودْسيوس[(٢)] يضرب في دجى الغابِ
وتقذفه البحار إلى سواها دونما مرسى .
هناك تركتُه وطويتُ عنه كتابيَ المهجور ،
سأكمل سفرتي معه ، ستحملني إلى جيكور
سفينتُه ، ولن أنسى
بأنّ وراء رغو البحر قلباً هدّه القَلَقُ

وعيناً كلما زرع الغروبُ حدائقَ الدّيجور
بأنجمها الصبايا شدّ من حملاقها الشّفَقُ
على الافق البعيد لعل خفقاً من شراع أو سنا مصباع
على اللُّجَج الضواري لاحْ .
فـآهٍ لوْ كبنلوبَ الحزينةِ زوجتي تترقبُ الأنسامْ
لعلّ جناح طيّاره
كمحراثٍ من الفولاذ ، شقّق بينها الأثلامْ
ليزرع ، ثَمّ ، أزهاره .

* * *

ألا تبّاً لحبٍّ هذه الآلامُ من عُقباهْ !
كأنّ شفاهنا ، حين التقتْ ، رسمت من القُبَل
سريراً نمتُ فيه أنثُ منه الآهَ بعد الآهْ ،
وعكّازاً عليه مشيْتُ ثم هويْتُ في ثقَلِ .
كأنّ حجارة السور الذي ما بيننا قاما .
لها من هذه القبلات طينٌ شدّها شدّا .

أدهراً كان أم سبعاً من النكبات أعواما ؟

* * *

ولكنْ ما عليها من جُناحٍ ؛ كنتُ معتدّا
بذهني أو شبابي :
سوف أصهرها ، أغيِّرها كطينٍ في يد الفنّانْ .
وقد غيّرتُ . لكنّ الذي غيّرتُ ماذا كانْ ؟
فؤاداً ضيِّقاً كاللحْد ... كيف اوسِّعُ اللحدا ؟
ونفساً حدُّها بين السرير وبين قائمة الحساب كأنها قنٌ
من الأقنان

مداه يمد بين البيْت والحقلِ
حبالاً قيدت قدميه وهو يردد الألحانْ
ولم يكُ يفهم الكلمات (ليس لقطرة الطلِّ
مكان إذ يجوع البطن يا لتلهف الظمآن !!
أترويه المجرة وهي بحر – هكذا زعموا – على الشطآن
منه تناثرت كسَرُ الكواكب فهي كالرمل

هنالك ، والمحار ؟ أكل هذا يشبع الجوعانْ ؟)

* * *

ولكني أحنُّ .. فهل أعود غداً إلى أهلي ؟
نعم سأعود ،
أرجع ، لا إليها بل إلى غيلان ؟

لندن - ١٩٦٣/٣/٢

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة في سورة غضب ، إذ ان زوجته أصرت عليه بالرجوع إلى العراق وقد ساءت صحته بعد ذلك: فتشاءم واعتبر زوجته مسؤولة عن تدهور صحته « وكان من المفروض أن تنشر هذه القصيدة في « شناشيل ابنة الجلبي » ولكنه طلب عدم نشرها حينذاك ووضع مكانها قصيدة ليلة الوداع المنشورة في صفحة (٧٠) والتي أهداها إلى زوجته الوفية ؛ وفي قصيدة « ليلة الوداع » وقصائد أخرى نشرت في مجموعاته المختلفة ما يدل على أن قصيدة القن والمجرّة بنت سورة غضب وتشاؤم . ونحن ننشرها هنـــا احتراماً لتراث الشاعر الذي يجب إلا يضيع منه شيء .

عكاز في الجحيم

وبقيت أدور
حول الطاحونة من ألمي
ثوراً معصوباً ، كالصخرة ، هيهات تثور
والناس تسير إلى القممِ
لكني أعجز عن سير — ويلاه — على قدمي
وسريري سجني ، تابوتي ، منفاي إلى الألمِ
وإلى العدمِ !!
وأقول سيأتيني يوم من بعد شهور
أو بعد سنين من السقمِ
أو بعد دهورْ !!

فأسير ... أسير على قدمي

عكازٌ في يديَ اليمنى

عكاز ؟ .. بل عكازانِ

تحت الإبطين يعينان

جسماً من أوجاع ... يفنى

َطلـَلاً يغشاه مسيل دمٍ

وأسير ... أسير على قدمي !! ...

لو كان الدرب إلى القبرِ

الظلمة والدود الفرّاس بألف فمٍ

يمتد أمامي في أقصى أركان الدنيا .. في نحرٍ

أو واد أظلم أو جبل عالٍ

لسعيت إليه على رأسي أو هدبي أو ظهري

وشققت إلى سقر دربي ودحوت الأبواب السودا

وصرخت بوجه موكلـّها

لم تترك بابك مسدوداً ؟؟ ...

ولتدعُ شياطين النار

تقتص من الجسد الهاري
تقتص من الجرح العاري
ولتأتِ صقورك تفترس العينين وتنتهشُ القلبا
فهنا لا يشمتُ بي جاري
أو تهتف عاهرة مرّت من نصف الليل على داري :
« بيت المشلول هنا ، أمسى لا يملك أكلاً أو شربا
وسيرمون غداً بنتيه وزوجته دربا
وفتاه الطفل إذا لم يدفع متراكم إيجارِ »
انثرني ، ويكَ ، أباديدا
وافتح بابك لا تتركه أمام شقائي مسدوداً
ولتطعم جسميَ للنارِ !!

لوي مكنيس

أتى نعيُه اليوم ، جاب الديارْ
وجاب المحيطات حتى أتاني ،
فلم تجر بالأدمع المقلتان
فقد غلغلتْ من دمي في القرار .
(أبي مات لم أبكِ حزناً عليه
وإن جنّ قلبي
من الهمّ وانهد شوقاً اليه) .
نعته إلينا مجلّـه ،
نعاه مقالٌ حزينْ
نعته لنا آدمياً مؤله

سماواته الشّـعر يصرخ بالغافلين ؛
وأحسستُ بالشوق (كالمدمنينْ
إلى جرعة من طلىً ظامئين)
إلى شعره ..
لأحرق ، قربانَ وجدٍ وحبٍّ ،
فؤاديَ في جمره .
ولكنّ ديوانه
دفيناً غدا بين أكداس كُتبِ
تلصّ العناكبُ ألوانه
ويقرأه الصمتُ للآخرين .
ومن لي بإخراج كنز دفينْ
تهاوى عليه الحجارْ ؟
كسيحٌ أنا اليوم كالميتين
أُنادي فتعوي ذئاب الصدى في القفار :
« كسيحْ
كسيحٌ وما من مسيحْ » (١)

* * *

وتقرع – للصدى في خيالي – :

نواقيس من شعرهِ في الضبابْ

أمن بعد عشرين مثل الحرابْ

يمزّقن جنبيّ . مثل النّصالِ

ارجّي ادّكاراً لأبياتِهِ ؟

وهل يتذكر طفلٌ ملامح أمواته

وقد بعثرتها صروف الليالي ؟

« وبين المحبين ، زوجين عادا ،

يُدحرجُ شايُ الصباحْ

صحارى يضيع الصدى في دجاها الفساحْ ،

وعند المساء تقوم الجريده

جداراً يدقانه بالأكفّ الوحيده

فتضحك ، إذ يضربان ، الرياحّ ! » (٢)

* * *

وما بين زوجي وبيني خواءْ ،

فليت الصحارى وليت الجدارْ

توحّد ما بين زوجي وبيني ببرد الشتاءْ

وصمت الحجار !

ويا ليتني مت . إن السعيدْ

من اطّرحَ العبء عن ظهرِهِ

وسار إلى قبره

ليولد في موته من جديد !

البصرة - ٩ - ١ - ١٩٦٤

---

(١) توفيق صايغ ؛ معلقة توفيق صايغ .

(٢) الأصل للوي مكنيس .

حميد

« حميد » أخي في البلاء الكبير
– فقد كان مثلي كسيحا
يدب بكرسيه مستريحا
تساءلت عنه فقالوا « يسير
على قدميه فقد عاد روحا
لقد مات »
يا ويلنا للمصير !!
ينام ورجلاه مطويتان
شهوداً على الداء ، في قبره
إذا ما رأى الله رأي العيان

وقد سار زحفاً على صدره
فأي انسحاقٍ وأي انكسار
يشعان من عينه الضارعه !!
سيبكي له الله من رحمة واعتذار .

* * *

وفي الساعة السابعه
إذا ذرت الريح ورد الغروب .
سأجلس في الشرفة الخاليه
ومن تحتيَ الدرب يخفقُ ، ينأى ، يذوب :
ألوف من الأرجل الماشيه
إلى أي مبغى وراء الدروب
وخمارة في الدجى نائيه !!
إلى اللغو والقهقهات الكذوب
وألمح فيما وراء الظلال
حميداً وكرسيه في الخيال
فتخنقني اللوعة الباكيه

فأواه لو توقدين الشموع
لدى مسجد القرية المترب
تمد من النور خيطاً تعلق فيه الدموع ،
ولو تضرعين ، مع المغرب ،
إلى الله : « يا رب رفقاً بطفلي الصغير
وابقِ أباه
وجنّبه ، يا رب ، هذا المصير ! »
ولكنني متُّ ... واحسرتاه !

المعول الحجري

رنين المعول الحجري في المرتج من نبضي
يدمر في خيالي صورة الأرضِ
ويهدم برج بابل ، يقلع الأبواب ، يخلع كلّ آجره
ويحرق من جنائنها المعلقة الذي فيها
فلا ماءٌ ولا ظلٌ ولا زهره
وينبذني طريداً عند كهف ليس تحمي بابهِ صخره
ولا تدمي سوأد الليل نار فيه يحييني وأحييها .
تعالي يا كواسر يا أسود ويا نمور ومزقي الإنسان
إذا أخذته رجفة ما يبث الليل من رعب
فضجي بالزئير وزلزلي قبره .

دماغي وارث الأجيال ، عابر لجة الأكوان
سيأكل منه داءٌ شلّ من قدمي وشديداً على قلبي
كلامٌ ذاك أصدق من نبؤة أيّ عرّافِ
تريه مسالك الشهُبِ
حمى الأسرار ، تطلعه على المتربص الخافي
إذا نطق الطبيبُ فأسكتوا العرّاف والفوّالْ
رنين المعول الحجري يزحف نحو أطرافي
سأعجز بعد حين عن كتابة بيت شعر في خيالي جالْ
فدونك يا خيال مدىً وآفاقٌ وألف سماءْ
وفجّر من نجومك ، من ملايين الشموس من الأضواءْ
وأشعلْ في دمي زلزالْ
لأكتب قبل موتي أو جنوني أو ضمور يدي من الإعياءْ
خوالج كل نفسي ، ذكرياتي ، كل أحلامي
وأوهامي
وأسفح نفسي الثكلى على الورَقِ
ليقرأها شقي بعد أعوام وأعوام

ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا
وآلى رغم وحش الداء والآلام والأرقِ
ورغم الفقر أن يحيا
ويا مرضي ، قناع الموت أنت ، وهل ترى لو أسفر الموتُ
أخاف ؟ ألا دع التكشيرة الصفراء والثقبين ،
حيث امتصت العينين
جحافلُ من جيوش الدود يجثم حولها الصمتُ ،
تلوح لناظري . ودع الدماء تسحّ من أنفي من الثقبين
فأين أبي وأمي .. أين جدي . أين آبائي
لقد كتبوا أساميهم على الماءِ
ولست براغب حتى بخط اسمي على الماءِ
وداعاً يا صحابي ، يا أحبائي
إذا ما شئتمو أن تذكروني فاذكروني ذات قمراءِ
وإلا فهو محض اسم تبدد بين أسماءِ
وداعاً يا أحبائي ..

في غابة الظلام

عيناي َ ُتحرقان غابة الظلامْ
بجمرتيهما اللتين منهما سقرْ ،
ويفتح السّهرْ
مغالق الغيوب لي .. فلا أنام .
وأسبر الأرض إلى قرارها السحيق
ألمّ في قبورها العظامْ
فطالعتني – كالسراج في لظى الحريق –
تكشيرة رهيبة ٌ رهيبة
ُتليحها جمجمتي الكئيبه
سخرية الإله بالأنام

* * *

عيناي َ من سريري الوحيدْ
تحدّقان في المدى البعيد ؛
الليل وحش ٌ تطعنانه ، مع النجومْ ،
بخنجريهما وخنجر السَّحَر ،
الليل خنزير الردى ، العنيد
يشقُّ خنجراهما إهابَه الغشوم
لألمح العراق مرّغ القمرْ
على ترابه البليل ضوءه الحزينْ .

* * *

و ُمقلتا غيلانَ تومضان بالحنينْ ،
يرقب من فراشه ذوائب الشجرْ ،
أمضّه السهاد ، عذّبتْه زحمةُ الفِكَرْ
(أين من الطفولة السهاد والفكرْ ؟)
عيناه في الظلام تسربان كالسفين .
بأيّ حقلٍ تحلمان ؟ أيما نَهَرْ ؟
بعودة الأب الكسيح من قرارة الضريحْ ؟

(أميتُ فيهتفَ المسيحْ
من بعد أن يزحزح الحَجَرْ :
« هلم يا عازر » ؟)
عيناه لظىً وريحْ
تُحرق في أضالعي مضارب الغَجَرْ !

* * *

أليس يكفي أيُّها الآلهْ
أنَّ الغناء غايةُ الحياه
فتصبغَ الحياةَ بالقتامْ ؟
تحيلني ، بلا ردىً ، حُطام :
سفينةً كسيرةً تطفو على المياه ؟
هاتِ الردى ، أريد أن أنام
بين قبور أهليَ المبعثره
وراء ليل المقبره
رصاصة الرحمة يا إله !

الكويت ٩/٧/١٩٦٤

رسالة

رسالةٌ منكِ كاد القلبُ يلثمها
لولا الضلوع التي تثنيه أن يثبا
رسالة لم يهبَّ الورد مشتعلاً
فيها ؛ ولم يعبق النارنج ملتهبا
لكنها تحمل الطيّب الذي سكرت
روحي به ليل بتنا نرقب الشّهبا
في غابةٍ من دخان التّبغ أزرعها
وغابةٍ من عبـــير منك قد سربا
جاءت رسالتكِ الخضراء كالسّعَفِ
بلَّ الحيا منه والأنسام والمَطَرُ

جاءت لمرتجفٍ
على السرير ، وراء الليل يُحتَضَرُ
لولا هواك وبُقيا فيه من أسفٍ
أنْ لم يروِّ هواه منك فهو على الشطّين ينتظرُ
سفينةُ يتشهّى ظلّها النّهَرُ
فيها الشفاءُ هو الربّان ، والقَدَرُ
فيها المغني
لكان ممّا عراه الداء ينتحرُ !
جاءتْ تحدّثني عنّي
عن شهقة الصيف في جيكور يُحتضَرُ
عن صوت أغربة تبكي ، وأصداءِ
تذرْذر الظلمةَ الصفراءَ في السّعَفِ
وعن بناتٍ لآوى خلف منعطفٍ
تعوي فتهتفُ أُم ! « أين أبنائي ؟؟! »
وتنفض الدرب عيناها وتهتف !
« يا محمود ... علوان ! »

لا ردٌّ ولا خَبَرُ !

* * *

ويا حديثك عن « آلاء » يلذعُها
بعدي فتسأل عن بابا « أما طابا »[1]
أكاد أسمعها
رغم الخليج المدوّي تحت رغوتهِ
أكاد ألثم خدّيها وأجمعُها
في ساعديَّ ...
كأنيَ أقرع البابا
فتفتحين ...
وتُخفي ظلّنا السُّتُرُ !!

الكويت ٣/٨/١٩٦٤

---

١ - « آلاء » طفلة الشاعر ، و « أما طاب » أي أما أبلّ من مرضه وقد أوردها على ما يبدو كما تلفظها طفلته ، وهي عامية .

ليلة انتظار

يدُ القمر النديّةُ بالشذى مرّتْ على جُرحي ،
يدُ القمر النديةُ مثلَ أعشاب الربيع لها إلى الصّبحِ
خفوقٌ فوق وجهي ، كفُّ طفلتيَ الصغيرةِ ، كفُّ آلاءِ !
وهمسٌ حول جُرحي : كفُّ طفلتي الكبيرة ، كفُّ غيداءِ
تُدغدغني ونحنُ على السرير معاً ، على السّطحِ
هناك !! وآه من ذاك المدى النائي ،
لأقربُ منه مجرةُ الثريّا وهي تلتَهبُ
بعيدٌ بُعدَ يوم فيه أمشي دون عكازٍ على قدمي
يئست من الشفاء ، يئست منه وهدّني التعبُ
وحلّ الليلُ ما أطويه من سَهَر إلى سهر ومن ظلمٍ إلى ظلم

ولكنّ اليد النديانةَ الكسلى ترشُّ سنابلَ القمح
على دربٍ من الهمسات في حُلُم
بلا نومٍ يرفّ على جفوني ثم يحشوهنّ بالملحِ

* * *

غداً تأتين يا إقبال ، يا بعثي من العدمِ
ويا موتي ولا موت .
ويا مرسى سفينتيَ التي عادتْ ولا لوحٌ على لوحِ
ويا قلبي الذي إن متُّ أتركه على الدنيا ليبكيني
ويجأرُ بالرثاء على ضريحي وهو لا دمعٌ ولا صوتُ
أحبّيني ! إذا أُدرجتُ في كفني ... أحبّيني
ستبقى — حين يبلى كلُّ وجهي ، كل أضلاعي
وتأكل قلبيَ الديدانُ ، تشربه إلى القاعِ
قصائدُ .. كنت أكتبها لأجلك في دواويني
أحبيها تحبيني !!

الكويت — المستشفى الأميري ٥/٨/١٩٦٤

نفس وقبر

نفسي من الآمــال خاويةٌ
جرداء لا مــاءٌ ولا عُشُب
ما أرتجيه هو المحال ومــا
لا أرتجيــه هو الذي يجبُ
قدرٌ رمى فأصاب صادحــة
في الجوّ خرّتْ وهي تنتحبُ
من ذا يُعيدُ إلى قوادمهــا
أفق الصبـاح تضيئه السُّحبُ

* * *

صُلِبَ المسيحُ فأيُّ معجزة
تأتي ؟ وأيُّ دعــاء ملهوفِ
ستزيح أبوابُ السماء لـه
أغلاقها ؟! حبْلٌ من الليفِ
هيهات يُرقى للسماء به
ليهــزّ عرش الله تخريفي
« مولاي مشلولٌ ! » فتحدجني
عَينُ الملاك : « وأي ملهوفِ
لا يشتكي لله محنتـه ؟
إرجع لبيتك دون إبطاء »
فبأيّ آمـالٍ أعيش إذن
وأدبُّ حَيّـاً بين أحياء
لولا مخافـة أن يعاقبني
عـدْلُ السماء لعنتُ آبائي
ولعنتُ ما نسلوا وما ولدوا
من بائسين ومن أذلاّء

الدودة العمياءُ يلسعهـــا

بردٌ يقلّصهـــا ويطويهـا

أوّاه لـــو ترضى تبادلني

عيْشي بعيشٍ كاد يُفنيهـــا

ولو استجاب الله صرخة ذي

بلوى لصحتُ : « وخيرُ ما فيها

موتٌ يجيء كأنـــه سِنةَ

ويمس آلامي فينهيهـــا »

* * *

كم ليـــلةٍ قمراء يطفئها

ليل النجـــوم ودورةُ الشّهر

محسوبةٌ ، ويلاه ، من عُمري

وهْي التي ضاعت على عمري

وثلاثـــةٌ خضراء ، أربعةٌ ،

نثرت أزاهرهـــا وما أدري

يا ليتهـــا بغـــدٍ تعوّضني

فتمرُّ باكيـــة على قبري

الكويت – المستشفى الأميري ١٠/١١/١٩٦٤

اقبال والليل

وما وَجدُ ثكلى مثلَ وجدي إذا الدجى
تهــاوَينَ كالأمطــار بالهمّ والسهْدِ
أحــن الى دارٍ بعيدٍ مزارُهــا
وزُغبٍ جيــاعٍ يصرخون على بُعدِ
وأشفقُ من صبح سيأتي ، وأرتجـي
مجيئاً له يجـلو من اليــأس والوجدِ

***

الليل طار وما نهاري حين يُقبلُ بالقصيرِ
الليل طال : نُباحُ آلاف الكلاب من الغيومِ

ينهلّ ، ترفعه الرياح ، يرنّ في اللّيْل الضريرِ
وهتافُ حرّاسٍ سهارى يجلسون على الغيومِ
الليل والعُشّاق ينتظرون فيه على سنا النجم الأخيرِ

* * *

يا ليل ضمّخكَ العراقْ
بعبير تُرْبتهِ وهدأةِ مائه بين النخيلِ
إني أُحسّك في الكوْيت وأنت تُثقل بالأغاني والهديلِ
أغصانك الكسلى و « يا ليل » طويل
ناحت مطوّقةٌ بباب الطاق في قلبي تذكّر بالفراقْ
في أيّ نجْمٍ مطفأ الأنوار يخفق في المجرّه
ألقت بي الأقدار كالحجر الثقيل
فوق السرير كأنه التابوت لولا أنّةٌ ودمٌ
يُراقْ
في غرفةٍ كالقبر في أحشاء مستشفى حواملَ
بالأسرّة .

يا ليل أين هو العراقْ ؟

أين الأحبّةُ ؟ أين أطفالي ؟ وزوجي والرفاق ؟

يا أمّ غيلان الحبيبة صوّبي في الليل نظره

نحو الخليج . تصوّريني أقطع الظلماء وحدي

لولاكِ ما رمتُ الحياة ولا حننتُ إلى الديارْ

حبّبتِ لي سُدَف الحياة ، مسحتها بسنا النهار

لمَ توصدين الباب دوني ؟ يا لجوّاب القفارْ

وصل المدينة حين أطبقت الدجى ومضى النّهار

والبابُ أُغلق فهو يسعى في الظلام بدون قصدِ

* * *

وخوّض في الظلماء سمعي تشدّه
يجيكور آهاتٌ تحدّرْنَ في المدّ

بكاءٌ وفلاحون جوعى صغارهم
تصبّرهم عذراءُ تحنو على مهدِ

يغنّي أساها خافقُ النجْم بالأسى
وتروي هواها نسمة الليل بالورْدِ

أين الهوى ممّا ألاقي والأسى مما ألاقي؟
يا ليتني طفل يجوع ، يئنّ في ليل العراقِ !
أنا ميّت ما زال يحتضر الحياه
ويخاف من غده المهدّد بالمجاعة والفراقِ
إقبال مدّي لي يديْك من الدجى ومن الفلاه ،
جسّي جراحي وامسحيها بالمحبّة والحنانْ
بكِ ما أفكر لا بنفسي : مات حبُّك في ضحاه
وَطوى الزمان بساط عرسك والصبى في
العنفوان [1]

(١) لم تؤرخ هذه القصيدة ويحتمل أنها آخر قصيدة كتبها الشاعر .

ليلو

قَـرِّبْ بعينيكَ منّـى دونَ اغضاءِ
وخلّـني أتملّـى طيفَ أهوائي [1]

أبصرتَها ؟ كادت الدنيـــا تفجّر في
عينيك دنيـــا شموس ذات الاءِ

أبصرتَ ليلى فلبنان الشموخ على
عينيك يضحكُ أزهاراً لأضواءِ

إني سألثمها في بؤبؤيك كمــــن
يقبّل القمَر الفضيّ في المـــاء

(١) من القصائد التي نظمت في الكويت ولا يعرف تاريخها .

ليلى ! هواي الذي راح الزمان به
وكاد يفلت من كفــي بالداء
حنانهـــا كحنان الأم دثّـرني
فأذهب الداءَ عن قلبي وأعضائي
أختي الــتي عرضها عرضي وعفتها
تاجٌ أتيــه به بــين الأخلاء
عرفتُها فعرفتُ اللهَ عن كَثَبٍ
كأنَّ في مقلتيها درب اسرائي
ليلى هوايَ منايَ شعري
روحي الأعزّ عليّ من روحي وآمالي وعُمري
حملت ضفيرتُها هوايَ كأنها أمواجُ نهرِ
حملته نحو مدى السماءْ
نحو المجرة والنجوم ونحو جيكور الجميلة
فأنا فتى أتصيّد الاحلام يالك من فراشات خضيلة

أتصيَّد الأشعارَ فيها والقوافي والغناءْ
أو تذكرين لقاءنا في غرفة للداء فيها
ظل كظلِّ الليل يخنق ساكنيها

لكننا بالشعر حوّلناه زرعاً من ضياءْ
بالحب أزهر واللقاءْ
ما كان أحلى حبنا العربي حب كـثّير وجنون قيسِ
التبغ صحرائي أهيم على رفارفها الحزينه
وهناك نبني خيمتين من التأسي

« ليلى منادٍ دعـــا ليلى فخفّ له
نشوانَ في جنبَـات القلب عربيـــد
كسا النداء اسمها سحراً وحببـــه
حتى كأن اسمهـــا البشرى أو العيد
هل المنادون أهلوهـــا وإخوتهـــا
أم المنـــادون عشاق معاميـــد
إن يشركونيَ في ليلى فلا رجعـــت
جبـــال نجد لهم صوتا ولا البيد »

ليلى تعالي نقطع الصحراء في قمراء حُلْوة
متماسكين يداً الى يد من نحب
وترن في الأبعاد غنوة
للرمل همس تحت أرجلنا بها ، للرمل قلبٌ

يهتز منها أو ينام وللنخيل بها أنين .
وتهرعن بعدِ كلابُ يا لِغيم من نباحْ
هيهات يعشقه سوى غبش الصباحْ
فأنا وأنتِ نسير حتى تتعبين
« ماء أريد أليس في الصحراء غير صدى وطين ؟ »

وتكركر الصحراء عن ماء وراء فمِ الصخورِ
فأظل بالكفين أسقيك المياه فترتوين
أسقي صداك فترتوين
أوَتذكرين لقاءنا في كل فجر
وفراقنا في كل أمسية إذا ما ذاب قرصُ
الشمس في البحر العتي
تأتين لي وعبير زنبقة يشق لك الطريق فأي عطر !
وتودعين فتهبط الظلماء في قلبي ويطفىء نوره القمر الوضي
فكأن روحي ودعتني واستقلّت عبر بحر
وأظل طول الليل أحلم بالزنابق والعبير
وحفيف ثوبك ، والهدير
يعلو فيغرق ألف زنبقة وثوب من حرير

أقلُّ من بشـــر[1]

يا ربٌ لو جُدْتَ على عبدك بالرقادْ

لَعله ينسى

من عمرهِ الأمسا

لعله يحلم أنه يسير دونما عصا ولا عماد

ويذرع الدروب في السحرْ

حتى تلوحَ غابةُ النخيلْ

تنوء بالثمرْ

بالخوخ؛ والرمان، والأعناب فيها يعصر الأصيل

رحيقه المشمسَ أو تألُّـقَ القمر

يدخلها فيختفي تحت ذوائب الشجرْ

ويقطف الجنى.

علّقَ في رمّانة عصاه وانثنى

يأكل أو يجمّع الزهرْ:

حتى إذا ما انطلقا

وراح يطوي الطُّرُقا

أحسّ أو ذكرْ

---

[1] كانت هذه القصيدة مشطوبة.

بأنه بلا عصاً سار وما شعَرْ!

يا رب لو حدت على عبدك بالرقاد

لأنه يُذكِرُهُ السَّهَر

بأنه أقلُّ من بَشر!

لندن ١٩٦٣/٢/٢٥

الهدايا

(١٩٧٤)

قصائد متفرقة تعود إلى مراحل

مختلفة من حياة الشاعر

وقد جمعناها من مصادر مختلفة

يـا أبـا الأحـــرار[1]

هبَّ في الفجر هبوب العاصــفاتِ
قـــدرٌ حطَّـــم أبـــواب الطغـــاة

قـــدر مـــن ســـدّة الله ســـعى
يزرع الزيتـــونَ في الأرض المـــوات

يا لهـــا مـــن قبضـــة في حـــدّها
يكمن المـــوتُ وأســـباب الحيـــاة

حـــررت أعناقنـــا مـــن نيرهـــا
وأنـــارت في الليـــالي المظلمـــات

يـــا كريمـــاً مـــا رأينـــا.. مثلـــه
من كريم، يـــا نجـــيَّ المكرمـــات

لم تلُـــح لـــولاك في ذاك الـــدجى
شمســـنا، أو تمـــوِ أصـــنام البغـــاة

يـــا أبـــا الأحـــرار، يـــا رافعهـــا
رايةً تزهو علـــى شـــطّ الفـــرات

دُمْ لشـــعب عـــاش مـــن تموزه
في نعـــيم فـــوق أشـــلاء الطغـــاة

[1] ذكرها علي الحلي في العدد السابع من السنة ١١ من مجلة "الآداب" ١٩٦٣ في مقـال عـن "الفنـان والخلق الثوري".. وكانت القصيدة قد نشرت في جريدة "العهد الجديد" العـدد ٤٧٧؛ فـي ١٩ تمـوز ١٩٦٢.

عثر الأستاذ عبد الإله أحمد على هاتين القصيدتين، فنشرهما في مجلة الأديب المعاصر، العدد ٣، وقدَّم لهما بهذه المقدمة:

عنيت وزارة الإعلام بنشر قصائد الشاعر بدر شاكر السيّاب، التي لم يضمَّها إلى مجاميعه الشعرية المعروفة، أزهار ذابلة، أساطير، أنشودة المطر، المعبد الغريق، منزل الأقنان، شناشيل ابنة الجلبي، إقبال. فكان أن أصدرت "قيثارة الريح" عام ١٩٧١، بمناسبة الاحتفال بالذكرى السادسة لوفاة الشاعر.

ثم أصدرت الوزارة في مستهل عام ١٩٧٢، مجموعة أخرى للشاعر بعنوان "أعاصير" تضم العديد من القصائد السياسية التي ألقاها الشاعر في مناسبات وطنية مختلفة في الأربعينيات.

ويبدو أن هاتين المجموعتين، لم تحيْطا بشعر الشاعر كله وبقي خارجهما ربما شعر كثير يحتاج إلى ديوان ثالث، يتوفر على أعداده آخرون، وقد يكون من مواد هذا الديوان الثالث، قصيدتان وجدتهما وأنا أبحث في الصحف العراقية، غفل عن نشرهما معدُّو المجموعتين، أولاهما: قصيدة بعنوان "وحي النيروز" نشرتها جريدة (السلام) في العدد ١٩ السنة ١، ٢٤ أذار ١٩٤٨ وقدمتها بقولها: "القصيدة العصماء التي ألقاها شاعر الجماهير الأستاذ بدر شاكر السياب في الحفلة التأبينية التي أقامتها الشبيبة الكردية في ملهى الجواهري يوم الجمعة ٤٨/٣/١٦". وكانت هذه الجريدة قد نشرت في عدد سابق هو العدد ١٤ السنة ١، ١٨ آذار ١٩٤٨ قصيدة أخرى للشاعر، ضمتها مجموعة "أعاصير"

ص/١٥ بعنوان حطمت قيداً من قيود... وقد أثبتت الجريدة للقصيدة عنواناً مغايراً هو "الجلاء". كما أن هناك بيتاً من الشعر، ورد في هذه القصيدة، ويبدو أنه سقط من طبعة الديوان لسبب من الأسباب، قد يكون في تثبيته، ما يؤكد اتجاهاً كان عليه الشاعر آنذاك و لم يعد مجهولاً، والبيت:

عـــادت مناجلـــهُ مـــرايا ينجلي   فيهـــن وجـــهُ الثـــورة الحمـــراءِ

وقد ورد في الجريدة بعد قوله:

حيث التفتُّ رأيت شعباً جائعاً   عريـــان، يمـــلأ جوفـــه بالمـــاء

أما القصيدة الثانية فهي بعنوان "قاتل أخته" نشرتها جريدة العصـــور في العدد ٨٤، السنة ١، ٢٦ أيلول ١٩٤٨، وقد وصفت الجريدة الشاعر بشـــاعر الشباب، وقدمت القصيدة بكلام قد يكون للشاعر نصه: "أثمت فقتلها.. ولكن شبحها المنكود ما زال يعتاده كلما لفّه الظلام".

ولا نريد هنا أن نشير إلى جوانب في القصيدتين، أدخلـــت في النقـــد. ويكفي أن نقول أن القصيدتين من الشعر الساذج، الذي كتبه الشاعر في أوائل حياته الأدبية، وإن كانتا لا تقلان جودة، عما نشر في المجموعتين. واننا ننشرهما انقاذاً لهما من الضياع، في صحف قد لا يتيسر الوصول إليها بسهولة، ودعوة في الوقت ذاته، للآخرين ممن يحتفظون بقصائد للشاعر مجهولة أو نادرة، أن يعدوها للنشر، لكي يوفروا للباحثين إمكانية تعميق دراسة هذا الشاعر الممتاز الذي رفد الشعر العربي الحديث بالكثير من العطاء".

(القصيدة الأولى)

طيفٌ تحدّى بـه البـارودُ والنـارُ ... ما حاك طاغٍ وما استبناه جبّـارُ
ذكرى من الثورة الحمراء وشّحها ... بـالنور والقـانئ المسفوك، آذارْ
مرّت على القمة البيضـاء صاهرةً ... عنها الجليد، فملء السفح أنهـارْ
في كل نهر ترى ظـلاً تحف بـه ... أشباح (كاوا)[1] ويزهو حوله الفـارْ
يا شعب (كاوا) سل الحدّاد كيف هوى ... صرح على الساعد المفتول ينـهار؟
وكيف أهوت على الطاغي يد نفضت ... عنها الغبار وكيف انقضّ ثـوار؟
والجاعل (الكير) يوم الهول مشعلةً ... تنصبُّ منه علـى الآفـاق أنـوارْ

* * *

قف عند (شيرين)[2] واهتف ربما نطقت ... وحدّثتك بمـا تشتاق أحجـارْ
وربما ارتجّت الأصداء، وانفجرت ... قيثارة في يـد الراعـي ومزمـارْ
والفارس الثائر المغوار هل بقيت ... من خيله الصافنات البُلْق آثـارْ

* * *

تكاد تسمع في الآفاق صيحته ... كأنها في سماء الحق إعصـارْ
مرّت على الظلم فاهتزّت دعائمه ... وجلجلت فهي للباغين إنـذارْ

---

[1] كاوا الحداد بطل الشعب الكردي في عيد نوروز التحريري.
[2] جبل في أربيل. (الجريدة)

وساء مستعمراً أن يستفيق على ... أصدائها، جائع في الحقل منهار
وأن يهبَّ إلى الأغلال يحطُمها ... شعب، وتنشق عن عينيه أستار

* * *

كم أيتم البغي من طفل، وسار على ... بيت هوى، جحفلٌ للبغي جرّار
واستؤسر الجائع العريان واغتصبت ... عذراؤه واستبيح الحقل والدار
وشُرِّدت في صحارى الثلج أفئدةٌ ... من فوقها أعظم تدمى وأطمار
وكشَّر السجن عن بابيه، وارتفعت ... حمر المشانق يغذوهن جزّار[1]

* * *

شيرين، يا جبل الأحرار، ما غفلت ... عن حقها الضائع المسلوب أحرار
كاوا كيعربَ.. مظلوم يمد يداً ... إلى أخيه، فما أن يهدر الثار
والمستغلان في سهل وفي جبل ... يدميهما بالسياط الحمر غدّار
سالت دماؤهما في السوط فامتزجت ... فلن يفرقها بالدس أشرار
وأغمد الظلم في الصدرين مخلبه ... فجمّعت بالدم الجرحين أظفار
ووحَّد الجوع عزم الجائعين على ... أن يوقدوها.. وألا تخمد النار
وكدَّس العري أجساد العراة على ... درب إلى النور قد أفضى بمن ساروا
وقرَّب القيد من شعبين شدّهما ... ووجّهت من خطى الشعبين أفكار
يا فرحة العيد ما في العيد من مرح ... حتى تُحرَّر من محتلها الدار

[1] حر في الصحيفة، وهو خطأ مطبعي.

(القصيدة الثانية)

ليلى.. كفاك! إلى يدي نظراً ماذا ترين سوى الدم القاني
هذي دماؤك فوقها صرختْ: "ما كان ذنبي أيها الجاني!؟"
عودي فقد شحب الدجى ومشى نعش الكواكب فوق أجفاني!
شُدّي عظامك والبسي كفناً قد كان أجدر بي وبالزاني

* * *

الدود جاع وضجَّ من ألمٍ والقبر أوصد بابه الضجر...
عودي إليه وأشبعيه دماً حتى يُرنِّحَ جسمك النخِرُ!"
حتى يكون عداد ما نهشت منك السروب وعبَّت الزمر
وخزٌّ يسيل له الضمير وما يجري ورائي حين أنتحر!

* * *

أختاه أنطقُها وملء فمي آهٌ يقطِّع حرُّها كَلِمي..
أختاه، صوتك ما يفارقني يدعو الي ظُلَم التراب دمي!
حيث التفتُّ رأيت ثَمَّ يداً صفراءَ تجذبني إلى العدم
إنِي أكاد أحسها لمست بالثلج خدّي، والنجيع فمي!

* * *

أغواك بالومضات من ذهب طامٍ، فأغرق حسَّك الذهبُ
وتنبَّه الحرمان فيك، على قصر يحوِّم حوله لقب،

لمـــا رأيـــت أخـــاك بيـــع دمـــاً بـــالفلس مـــن رئتيـــه يغتصـــبُ
هان العفـــاف عليـــك وانحطمـــت قيمٌ تعهَّـــد صـــوغها الكـــذب!

* * *

إن التـــراب غـــداً ســـيجمعنا في حجـــره المتجمـــد النـــائي!!
فـــاطوي عتابـــك إن موعـــده يمشـــي علـــى رمـــم وأشـــلاء!
بـــين العظـــام هنـــاك في جـــدث راجٍ.. يهـــزُّ أســـاك إصـــغائي
شـــدي علـــيَّ بقبضـــةٍ سَـــحقتْ أوصـــالها شـــهواتِ عـــذراء!

* * *

آثـــار كفـــكِ بالـــدم انطبعـــت في كـــل ناحيـــة، علـــى كفـــني
أبلـــى، وتلبـــث غـــير باليـــة حـــتى تجـــف منـــابع الـــزمن
حـــتى أعـــود ثـــرى تنقّلـــه بين القفـــار عواصـــفُ الـــدُجن
حـــتى تـــذوب علـــى مـــدارجها بـــيض النجـــوم صـــريعة الحـــزَن

* * *

ربـــاه.. هلـــك وهـــو متكـــئ بين الكـــؤوس يـــداعب الأمـــلا؟
يحـــي.. فيقتلـــها.. ويقـــتلني ظلمـــاً — ويجهـــل أنـــه قـــتلا؟
هيهات يجهـــل، لســـت أحســـبهُ، لكنَّ طرفـــك عنـــه قـــد غفـــلا!
أين العدالـــة، كيـــف تصـــرخ بي "جانٍ"، وتُشـــبع كفَّـــه قـــبلا!؟
أمضـــي وألـــف دم ســـيتبعني مـــا دام أثمـــن شـــيءٍ الـــذهب
العاطفـــاتُ غـــدت تبـــاع بـــه والغيـــد، والحيـــوات، والرتـــب
والعقـــل صـــانع كـــل معجـــزة والســـاعد المفتـــول والعصـــب
والفـــن: مـــن وتـــر وقافيـــة ودمـــى تُصـــاغ وريشـــة تثـــب!

* * *

إني لأضحك ساخراً حنقاً، ... آناً – وأحْطم أضلعي آنا!
ماذا أرى؟؟ أدمى مسخرةً ... للمال يحشدهنَّ قطعانا؟
ختم الغباء على نواظرها ... فتلبدت حدقاً وأجفانا!!
تبكي وتضحك وهي سائرة ... تحت السياط، دماً وإذعانا

* * *

إني أكاد.. أكاد أسمعها ... تعلو على مهل أغانيها
كالدود زاحفة مقاطعُها، ... كالقبر.... باردة قوافيها
كالخنجر المسموم مرتعشاً ... في كف منتحر – معانيها
كالطفل يرضع ثدي زانيةٍ ... شهوى وعاشقها يواليها!!

* * *

أودعتَ يا أبتاه في عنقي ... أنثى، وقلتَ: سأرقد الآنا!
أورثتَني.. قُبَلاً مجنحةً ... والذلُّ يوثقها.. وحرمانا
أودعتني جسداً تكبِّله ... أسمالُه، فيثور طغيانا!
أنثى تريد هوى تعانقه ... عطراً وأردية وعقيانا

* * *

أنثى يؤجج في جوانحها ... طيف اللآلي والحلى، لهبا..
يتلقَّف المرآة من يدها ... حلمٌ يكلِّل جيدَها ذهبا
فتبرى وراء دموعها، أفقاً ... جاشت به قبلاتها شهبا
حسناً ترفُّل بالحرير على ... عرش من المهجات قد نصبا

* * *

حلمٌ يمد يداً إلى يدها ... سكرى... ويجذبها فتنجذبُ
جذلان يهمس: يا فتاةَ غدٍ ... آت... أعِنَّةُ خيله ذهبُ

طارت إليك به – على عجل – في الجو مركبةٌ لها صخب
ساعاته غزل يقطّره ثغران مرتقِب ومرتقَب

* * *

لا تحسبيني ما هممتُ به طعناً تسدِّده يد الحنقِ
طعناً يعدُّ على جوانحه حمرَ الليالي تُضاء بالشبق
في كل ومضة خنجرٍ تِرَةٌ من ومضةٍ ذهبيّة الألق
أعمّت نواظرَ غادةٍ.. فكبا جسمٌ بها... وهوى إلى نفق!

* * *

يا خنجراً رسم الجنون على مرآته رمماً وأشباحا
رقصت على لجج النجيع يداً سوداء تملأ منه أقداحا
وتخيطه مقلاً مؤججةً بالحقد، أحملهن مصباحا
كيف انحطمتِ على يديَّ.. فلا جرح أمات ولا دم ساحا؟!

* * *

أقبلتُ وهو على أرائكه سكران بالضحكات والخمر..
حتى إذا رفع انتقام أبي يمناي فاتحةً فمَ القبر
صاح الشقيُّ: أأنت تقتلني؟! يا ليت أختك في الثرى تدري
العار تاجُك.. سلْه: أي يدٍ قد كلّلته بقانئ الدر؟!!

الهديـــة..[1]

يقـــول المحبـــون: إنّ الهـــدايا / طعام الهـــوى".. ذاك مـــا أسمـــعُ

وإني لأهـــواك، حـــتى لأفشـــو / بحبّـــي، وتـــدمى بـــه الأضـــلع

وأهـــواك حـــتى اللقـــاء اشـــتياق / وحـــتى يضـــيق المـــدى الأوســـع

* * *

فماذا ســـأهديك يـــوم اللقـــاء؟ / وماذا ســـأهديك يـــوم النـــوى؟

أيرضيك مـــا يشـــتريه انحـــداري / إلى حيث يـــأبى علـــيَّ الهـــوى؟

فمـــا المـــال إلاّ دمـــاء تبـــاع / كعرض البغايا.. لـــدرء الطـــوى

* * *

سأصحو مع الفجر قبـــل الطيـــور / ولمســـةُ كفيـــك في خـــاطري

ألُمّ الندى مـــن حقـــول الربيـــع / وأشـــدو مـــع القُبَّـــرِ الطـــائر

وأجمـــع مـــن زهرهـــا باقـــةً / لعينيـــك.. يـــا زهـــرة الشـــاعر

* * *

وهيهـــات، هيهـــات إن الريـــاح / يـــذرّين أزهـــاريَ الذابلـــهْ

ويـــبقين في مقلتيـــك انكســـاراً / كمـــن يتبـــع الأنجـــم الآفلـــهْ

ســـأهديك أغنيـــةً كنســـيم / المدينـــة يســـتقبل القافلـــهْ

ومـــاذا أُغنّيـــك، والحشـــرجات / وعصف اللظى كـــل مـــا أسمـــع

كـــأنّ البرايـــا دم في عروقـــي / تصـــدّى لـــه الخنجـــر المشـــرع

---

[1] جريدة "الجهاد" البغدادية العدد ١٠٦ – ٣١ آب ١٩٥٢.

فيا قبضة من رماد الحريق ... على سلّمٍ دكّه المدفع...

* * *

سأهديك من ساعديَّ الحياه ... ومن قلبيَ الضحكة الصافيهْ

سأهديك ما في عبوس السحاب ... من النور للدوحة العاريهْ

سأهديك أن لا تكوني رماداً ... على مدرج الزعزع العاتيه

سأهديك دنيا يرين السلام ... عليها "كحشد" من الأنجم

تنامين فيها وتستيقظين ... بلا ريبة في الغد المبهم

ولا خوف من أن يعزّ الرغيف ... وأن تستباحي.. وأن تهرمي!

يوم ارتوى الثائر

بشراك هذا سحاب الذلة انقشعا — وانفكَّ عن ساعديك القيد وانقطعا[1]

إزّلزلَ الشر ما خلّفتِ زاوية — يندسُّ فيها ولا أبقيت منتجعا

يا أمةً ما الهوى من صدرها صنمٌ — إلا وأوصى لدانٍ منه فافترعا

من كل جازي يد بالزاد تطعمه — غِلاً، ومن آكل الثدي الذي رضعا

هاك اسمعي الصُور والموتى إذا انبعثوا — فاليومَ كلٌّ سيُجزى بالذي صنعا

الله أكبر، ما أمهلتِ طاغيةً — إلا لكي يحصد النارِ التي زرعا

جيل من الأعين الغضبى وقافلةٌ — من غيظ جيلين في ميعادك اجتمعا

وانحط منها على الباغي وزمرته — ظل تخطى إليه السور والقلعا

كالسيل من حِمم والنار من ظُلَمٍ — والموت لو كان يحوي ذلك الفزعا

ما رعب (قابيل) إذ يعدو فتتبعه — عينا أخيه المسجى حيثما نزعا

شق الثرى عنه من لحظيهما شبح — أزجى عليه الدمَ المطلول فاتسعا

يوماً بأوفى من الرعب الذي فجأت — نكباؤه الصرصرُ الطاغوتَ فامتقعا

يوم اشتفى كل قلب كان فاجعه — وزلزل القصر حتى مال وانصدعا

وامتد من حيث ولّى باعُ محتجز — واسودّ من حوله الفولاذ والتمعا

في موقف تنفس الشحاذ ذلتها — فيه الأمير الذي من جوعها شبعا

---

[1] كتب السياب هذه القصيدة إبان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ولم ينشرها في حينها. وقد ألقاها في ذكرى الثورة الثالثة بدعوة من مدير مصلحة الموانئ العراقية في البصرة، وأضاف إليها بإيعاز منه البيت الثامن والعشرين والبيت الثاني والثلاثين.

وزمرة من لصوص كل ما جمعت
ما ردّ عنها قضاء الشعب أو دفعا

أنزلتَ بالثورة البيضاء عَاليَها
سفلاً وعاجلت منها الرأس فاقتطعا

لم يرتوِ الثأر من جلاد أمته
حتى وإن جندلته النار وانصرعا

فاقتصَّ من جيفة الجلاد مجتزياً
منها عداد الضحايا من دم دفعا

هذا الذي كل ثكلى فهو مثكلها
والمستحل الضحايا ليته ارتدعا

والسارق النور من عينيَّ أطفأه
والجاعل النوم في مهد ابنتي وجعا

بالأمس كنّا سبايا دون سدّته
فاليوم نعطيه ما أعطى وما منعا

ما قطّعته الجموع الثائرات ولا
أدمته إلا بما أدمى وما قطعا

لم يكذب الجيش إلا ظن شرذمة
خالته في كل ما تبغي له تبعا

والجيش ما كان إلا سورَ أمته
والرافع الجور عنها كلما وقعا

إن تعلُ يعلُ وإن تُمسسْ بنائبة
مَسّته أدهى وإن نادت به سمعا

والجيش ما كان إلا سرّ قائده
هذا الذي حرّر الأعناق إذ طلعا

عبد الكريم الذي أجرى بثورته
ماء ونوراً كغيم ممطر لمعا

أسرى وبغدادُ تحت الليل غافية
في سجنها وسهيلٌ بعدُ ما طلعا

فما تنفّس أو كاد الصباح بها
إلا وقد حطم الأوثان واقتلعا

في ثورة عاد منها الشعب منتصراً
والحق مزدهراً والبغي منصرعا

حتى ازدهى كل شبر في العراق ففي
مينائه اليوم نور الفجر قد سطعا

ليلة القـدر

يا ليلة تفْضــل الأعـوامْ والحقبــا ... هيَّجتِ للقلب ذكرى فاغتدا لهبـا[1]

وكيف لا يغتدي ناراً تطـيح بـه ... قلبٌ يرى هرم الإسـلام منقلبـا

يـرى شـعائرَ ديـن الله هاربـة ... يسفها النَّوءُ تمضي حيثمـا ذهبـا

أين العنان الذي تلويـه عاصـفة ... ما فاتحين يـرون المـوت مطّلبـا

للرغو حول شدوق الخيل وسوسةٌ ... والنقع يذري لثاماً قنّـع السـحبا

من كل محتسـبٍ بـالله متّكـلٍ ... عليه يفري ضلوع البغي إن ضـربا

كأنّ أسـيافهم في كـل معمعـةٍ ... جسرٌ إلى جنة الفردوس قد نصـبا

* * *

يا ليلة القدر، يا ظـلاً نلـوذ بـه ... إن مسَّنا جاحم الرمضـاء ملتـهبا

ذكراك في كل عام صيحة عـبرت ... من عالم الغيب تدعو الفتية العربـا

أقوْمُ أحمدَ مضروبٌ علـى يـدهم ... بالذل من هول ذاك الفتح[2] واعجبا

تفرَّقوا شـيعاً في كـلّ حاضـرة ... قوم يقيمون من أغلالهـم نصـبا

لولا بقايا مـن الثـوّار صـامدةٌ ... في ظل وهران تسقي خصمها العطبا

الموت ولّى فراراً مـن جحافلـها ... والرعب مما تصك الظـالم ارتعبـا

لكنَّ واضـيعة الإسـلام في بلـد ... بالأمس أعلى منار الحـق ثم خبـا

* * *

---

[1] كتب السياب هذه القصيدة لإلقائها في احتفال في مكتبة ناحية الزبير. ولعل ذلك في سنة ١٩٦١. وقد نقلها مؤيد العبد الواحد عن نسخة مهلهلة واهية.

[2] كلمة "الفتح" أضافها مؤيد العبد الواحد ليستقيم الوزن بها.

يا ليلة القدر أغلى قدر أمتنا — شهم تعالى على الشطّين وانتصبا

عبد الكريم الذي جاد الكريم به — أقال من عثرة شعباً بما وهبا

ما كان يرغب عن أنوار ثورته — إلا الخفافيش. ساءت تلك منقلبا

هوَوا إلى قاع بئرٍ لا قرار لها — مستمسكين بحبل من دم خضبا

حبلٌ تشدُّ يد الشيطان أوّله — ويجذب الفوضويّ الخائنُ الذنَبا

كم جيد عذراء دق الحبل أتلعَه — وكم ذراعٍ لطفل قصّ واجتذبا

* * *

يا ليلة القدر يا نوراً أضاء لنا — قاع السماء فأبصرنا مدى عجبا

تنزّل الروح رفّافاً بأجنحة — بيض على الكون أرخاهنّ أوسحبا

عطف الأمومة في عينيه متقد — وإن يكن للتقاة المحسنين أبا

وللملائك تسبيح وزغردة — تكاد رنّاتها أن تذهل الشهبا

ومن دماء الضحايا في جوانبه — نار تمد اللسان المغلق الذربا

يشكو إلى الله من ذرى عقاربه — فأنبتت زهراً من سمّها أشِبا

ومن هوَت تقطع الأضلاع مديته — وساق ظلماً على الجلاّد من هربا

ذكرى تعود كأن الغدر يبعثها — من كهف أمس الذي ولّى بما كسبا

أمس الذي إن غفلنا عاد جاحمه — فاقتصّ ممن يحبّ الله والعربا

لا صلح بين الهدى والبغي، لا سِنةٌ — تعمي النواظر عمن سامنا العطبا

دموع اليتامى في دجى الليل تقطرُ ... ونوح الثكالى عاصفٌ فيه يصفرُ[1]

وأغفى على الآهات طفلٌ ميتمٌ ... تقطّرُ فيه الحقدَ أمٌ وتبذرُ

إذا جنّ ليل في الصحارى ولألأت ... نجومٌ وقد يخضل ليلٌ ويقمرُ

ففي كل قلبٍ من دجى الليل سدفةٌ ... وفي كل عقلٍ ظلمة ليس تسفرُ

وقامت من الأنصاب في البيت عصبةٌ ... كذَوح من الصَّوان بالشر يثمرُ

وأجرى على النهرين أقيال فارس ... دماً يعربياً واستباحوا ودمروا

وفي الشام يطغى في حمى الروم تابعٌ ... ويعدو على الأحرار كسرى وقيصر

* * *

وأشرقتَ فاهتزتْ نواويس في الدجى ... وأوشك موتى أن يهبّوا وينشروا

نبيّ الهدى يا نفحة الله للورى ... ويا خير ما جاد الزمان المقتّر

إذا ما افتخرنا كنت للفخر أوّلاً ... وإن جاءنا نصر فذكراك تنصر

ولولاك ما اندكت عروش ولا هوى ... صليبٌ على كفيه كنّا نسمّر

وكم سار في شرق من الغرب جحفلٌ ... بقرآنك الهادي وفي الغرب عسكروا

ويا مولد المختار ميلاد أمّة ... وميعاد بعث أنت فيها مُقدّر

* * *

---

[1] هذه القصيدة مسجلة على شريط بصوت السياب، ومحفوظة في مكتبة جامع العلامة السيد عبد الحكيم الموسوي في المعقل. وقد نقلها كتابة مؤيد العبد الواحد، ووجد في ذلك صعوبة لقدم الشريط وعدم وضوح الصوت في مواضع منه والمقاطع فيها تشير إلى وقفات السياب أثناء الإلقاء. ولعلها من نتاج سنة ١٩٦١. ألقاها السياب بمناسبة المولد النبوي فأعطاها مؤيد العبد الواحد هذا العنوان.

ألا قبسةٌ مما تنفستَ في الدجى | فنحيا وينهدّ الظلام المسوّر
ألا تفجُر البركان في مقفراتنا | فيستبسل الأحرار أيان يُفجر
تلبّد وجه الليل يخفيه غيمة | من الوحل والقار المدّمى تزمجر
ومالت على الأفق الضرير منائرٌ | وخرَّت قبابٌ والهوى ثَمَّ منبر
كأن لم يضئ بالنور ميلاد أحمد | و لم تنطفئ للفرس نارٌ ومسعر
و لم يدحر الجيش الصليبيّ صامد | ولا راعت الغازين "ألله أكبر"

* * *

رمت رأسها أفعى من الفرس تغتدي | بأشلاء ما أبقاه قيسٌ ومنذر
شعوبية رقطاءُ بالدين تارة | وبالعدل أخرى تحتمي وهي منكر
وما الدين إلا العُرب إن ذل منهمُ | عزيز تهاوى وهو دامٍ معفّر
هي الراية الحمراء من عهد قَرْمَطٍ | وهيهات يخطي بالذي شاء أحمر
إذا خبأوها فهي للشرّ مكمن | وإن نشروها فهي للعار مظهر
ولاحت من الكيد اليهوديِّ غيمة | على أفقنا المنكوب بالويل تنذر
تبدَّى لظاها فهو نور ورحمة | وسرمٌ[1] لمن بالمال يشرى ويؤجر
تذكرت والميلاد حالٍ بنوره | شعاعاً من المعراج ذكراه مطهر
سما من مطاوي نومه يقصد السما | نبيّ تلقّاه البُراق المطهر
أتى صخرة بيضاء يندى بياضها | كما لاح في الظلماء نجم منوّر
فيا صخرة المعراج قد سدّ بالدجى | وبالإثم منّا فيك شقٌّ ومعبر
فما عاد بين الله والناس منفذ | كأنْ حل بالأرض العذاب المسعَّر

* * *

[1] كذا سمعت، ولعلها "سحر".

وعـــاث ببيـــت الله قِـــدمٍ مشـــردٌ ... كـــأن فلســـطين المـــدماة خيـــبر

كأن لم يَسر طـــه إليهـــا ولا دحـــا ... أبو حسنٍ من بابها فهـــي تصـــفر

وما زال في وهران والأرض حولهـــا ... قلوج[1] أباحوا واستباحوا ودمـــروا

إذا جـــنّ ليـــل ســـاءلت كـــلُّ أيمّ ... كواكبه عـــن بعلـــها أيـــن يقـــبر

جهاد على اســـم الله يلظـــى أواره ... فيكوي جبين الظلـــم ممـــا يســـعّر

نبيًّ الهدى عذراً إذا الشـــعر خـــانني ... ولكنّـــه قلـــبي بمـــا فيـــه يقطـــر

نبي الهدى كن لي لـــدى الله شـــافعاً ... فإني ككـــل النـــاس عـــانٍ محـــير

تمرســـت بالآثـــام حـــتى تهـــدمت ... ضلوعي وحتى جنتي لـــيس تثمـــر

ولكن من ينجدْه طـــه فقـــد نجـــا ... ومن يهدِه — والله — هيهات يخسر

[1] كذا سمعت، ولعلها "علوج".

ثورة ١٤ رمضان

أألف لسانٍ جاء عندك يشكر ... لإيفاء ما أسديتَ؟ هيهات يقدر[1]

بعثتَ حياةً من رداها ونفّضت ... أياديك عنها كل ما كان يوقر

جزاك الإله الخير عن أم صبية ... أعدت لها البعل الذي كاد يقبر

فصار اليتامى من جداك ذوي أب ... فداك الأب الفاديه درٌّ وجوهر

أسير فيكسو شارق الشمس جبهتي ... فيعلو دعائي: ظلْتَ بالله تنصر

ألست الذي أحيا – وقد ثار – شعبه ... فصاح ابتهاجاً منه: "الله أكبر"

وقام الكسيح المبتلى من فراشه ... يسير على ساق ويعدو ويطفر

تقحّمْتَ أوكانَ المنيّات والسنا ... يئن وآلاف الشياطين تصفر

فما هي إلا ضربة الثأر وانجلى ... ظلام من البلوى وبغداد تنظر

فمن ير بغداد التي أنت نورها ... يقلْ عاد هارونٌ وقد مات جعفر

ثأرت لشوّافٍ وأمطرت ناظماً ... بما قد روى القبر الذي كاد يطمر

وسد من التهريج أعلاه قاسمٌ ... وما كان يوماً كاسمه فهو يشطر

يحنّ إلى النيل الفرات ودونه ... صحارى وقد قالوا لنا تلك كوثر

ألوف الضحايا سامها الخسف والأذى ... غلوم ورقاع ونخش وقنبر

ولولاه ما عاد الشيوعيُّ حاكماً ... كما شاء أو كان الشيوعي ينحر

---

[1] كتب السياب هذه القصيدة وهو في مستشفى سانت ماري بلندن، وذلك إثر سماعه بنبأ ثورة ١٤ رمضان. وقد أشار عليه صديقه مؤيد العبد الواحد بإهمالها لأنها دون مستوى شعره، ثم كتب السياب بعد أيام قصيدة من الشعر الحر عنوانها (قصيدة إلى العراق الثائر) نشر في اخر مجموعة (منزل الأقنان). ولكنه جعل تاريخها ٨ شباط ١٩٦٣، وهو يوم الثورة.

فكنت الجواب المرتجى مـــن دعائـــه وكنت لنا النور الذي فيـــه نبصـــر

فيا جيش–لا نلت الأذى–دونك الذي هبطنا إلى الأعماق إذ كان يهـــذر

يمنّ بمال الشـــعب أعطـــاه عـــاجزاً ومن ظلمة الداء الذي فيـــه ينخـــر

لقد جاع حتى حطّم الجوع جســـمه وطورد حتى ما على المشي يقـــدر

لك الحمد إذ أرويت بالثأر أرضـــنا فسرنا على الدرب الذي كاد يطمر

لندن – سانت ماري

١٩٦٣/٢/١٠

حب وشاعر

سألتني ذات يوم عابرةْ — عن غرامي وفتاتي الساحرةْ
لم تكن تعلم أني شاعر — ملهم أهوى فتون الطاهره
وحبيب لست أهوى عاتباً — إنما أهوى العيون الآسره
وقواماً أهيفاً خلّفني — ساهماً خلّف روحي سادره
ووفاء لم أكن أنكره — أترى ينكر غصن طائره

* * *

سألتني والربى مزدانة — في شروق، والأماني زاهره
ليتها تدرك أني ها هنا — شاعر لا بد لي من شاعره
قلت يا أختاه لا لا تسألي — أنا ذاك الصبُّ أهوى "نادره"

البصرة ١٩٦٣/١٠/١٧

أنـــت تــدري أن في قلــبيَ جرحــي
ألــف آهٍ تتنـــــزّى دون بـــوحِ
أنت تدري صار مثـل الليـل صبحي
أنـــت تــدري أيهــا الجــاني – فــنحٌ
ودِّع الآلام واقبـــل بعـــض نصـــحي
يـــا عـــذابي خلّـــني وحـــدي أضـــحّي
دعْ أغـــانيّ اللـــواتي صـــغتهنَّ
في أســـار مبـــهم بـــين الدُّجنّـــه
دع أمـــانيّ، فـــإني عفتـــهن
يـــا عـــذابي دع رؤى عـــاودتمن
ودع الآه فلـــن تجـــديك أنّـــه
ثم دعـــني، فأنـــا أشـــتات محنـــه

البصرة ١٩٦٣/١/١

فهـرس

ديوان

بدر شاكر السيّاب




9 789953 593722